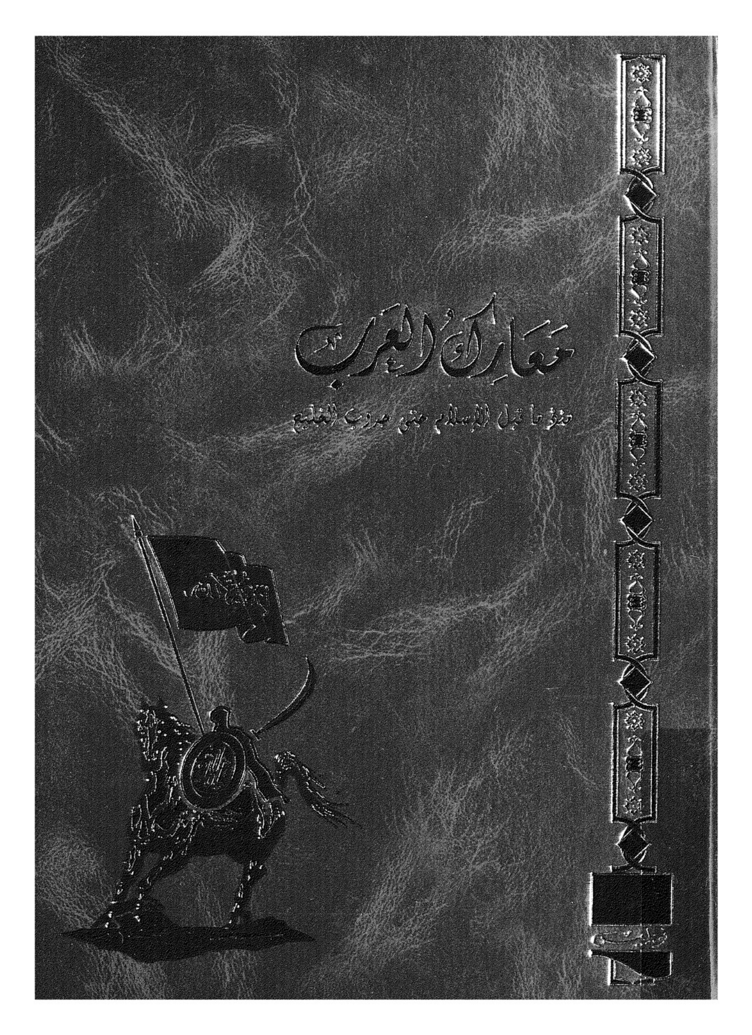

معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج



معارك العرب 14

اسم الموسوعة	: معارك العرب
	منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب	: الخلافة العبّاسيّة (5) – عصر النفوذ السلجوقي (2)
المؤلف	: العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب	: 20x28 سم
عدد الصفحات	: 200
عدد صفحات الموسوعة	: 5920
مكان النشر	: بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	: دار نوبليس
تلفاكس	: 961 1 58 34 75
هاتف	: 961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني	: NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى	: 2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (14)

الخلافة العباسيّة (5)

عصر النفوذ السلجوقي (2)

NOBILIS
2007

المقدّمة

كما سبق القول في الجزء السابق من هذه الموسوعة فقد حفلت نهاية السلطنة السلجوقية الاسلامية بحروب داخلية وثورات أدّت إلى إضعافها والتمهيد لقيام دول إسلامية أخرى في الشرق انسجاماً مع مبدأ صعود الأمم وهبوطها.

بلغت الامبراطورية السلجوقية ذروة اتساعها وعظمتها في عهد السلطان ملكشاه فدانت له، إضافة إلى خراسان والعراق، بلاد الشام كلّها، مع مناطق من آسيا الصغرى. وفي آخر عهده عاد الخلفاء العباسيون إلى التحرّك لاسترداد سلطانهم، فقام صراع بين الخلافة والسلطنة.

عمل ملكشاه سياسياً على خطين، الأول قضى بالتخلّص من وزيره القوي نظام الملك، والثاني بإخراج الخليفة العباسي من بغداد إلى الحجاز. لكن وفاة نظام الملك وملكشاه في السنة ٤٨٥هـ أجهضت تنفيذ هذه الخطة المزدوجة.

وعندما توفي ملكشاه خلف عدداً من الأولاد لم يكن أي منهم قد بلغ العمر الذي يؤهّله لاعتلاء عرش السلطنة. لذلك نشب صراع بين ملوك السلاجقة وإمرائهم على خلافته، ساند خلاله كلاً منهم فئة من التركمان في محاولة لإيصال مرشحها إلى عرش السلطنة. وهذا ما أدى إلى قيام حروب داخلية عنيفة أُعلن في بدايتها محمود، الابن الأصغر لملكشاه، سلطاناً جديداً. لكن تركمان خراسان رفضوا الانصياع له فنشب صراع داخلي رجحت في نهايته كفّة شقيقه بركيارق، الابن الأكبر لملكشاه.

في أثناء هذا الصراع على السلطة سيطر تتش بن ألب ارسلان، عم السلطان بركيارق، على دمشق وأعلن نفسه ملكاً عليها، وتحرّك نحو خراسان. إلاّ أنه، بعد تحقيق بعض النجاح في صراعه ضد بركيارق، قتل في إحدى المعارك، فتخلّص السلطان الجديد من أحد أبرز خصومه.

رغم ذلك، تميّز عهد بركيارق باستمرار الحروب الأهلية بين التركمان، وبانفراط عقد الدولة السلجوقية وتمزّقها إلى دول عدّة، قبل أن يدخل على خط الصراع عامل جديد سيكون له الأثر الكبير في مجرى الحروب والصراعات العسكرية في الشرق الإسلامي. هذا العامل تجسّد بتوجّه اوروبا المسيحية إلى محاربة الشرق الإسلامي خلال ما عرف يومذاك بـ«الحروب الصليبية».

وبعد وفاة بركيارق، بويع شقيقه محمد طبر الذي سبق له وقاوم سيطرة بركيارق على السلطة. وفي الوقت نفسه كان شقيق ثالث لهما اسمه سنجر قد تدخّل في الصراع، فتمّ الاتفاق بينهم على أن تكون خراسان وبلاد ما وراء النهر لسنجر، والعراق لبركيارق، وبلاد الشام والموصل وبعض المناطق الأخرى لمحمد طبر. ولقب كلّ من الثلاثة بلقب «سلطان».

وهكذا توزّعت الدولة السلجوقية إلى سلطنة عظمى تحمي الخلافة العباسية في بغداد، وسلطنتين أدنى تسيطر كلّ منهما على جزء من العالم الإسلامي وتدين بالطاعة للسلطان الأعظم بركيارق.

وحفل عهد السلطان محمد طبر بقيام فرقة الاسماعيلية الحشاشين التي أسسها حسن الصباح والتي استولت على عدد من القلاع الحصينة أبرزها قلعتا ألموت ولمسر، وراحت تنفذ الاغتيالات السياسية. نظم السلطان طبر حملات عديدة ضد الحشاشين باءت جميعها بالفشل، قبل أن يتوفى السنة ٥١١هـ، مما أدى إلى تجدّد الخلافات والحروب بين الفرق التركمانية لتأمين خلافته.

ذلك أن السلطان طبر أوصى، بموافقة الخليفة العباسي المستظهر بالله، بولاية العهد لابنه محمود وعمره أربعة عشر عاماً. لكن السلطان سنجر، صاحب خراسان، نازعه السلطنة وأعلن نفسه سلطاناً أعظم على كلّ

السلاجقة، الأمر الذي أدى إلى نشوب حرب بينه وبين محمود انتهت بفوز سنجر وإعلانه سلطاناً على كلّ السلاجقة، يعاونه محمود في العراق. وعاد سنجر إلى خراسان حيث خاض صراعات دامت اربعين سنة.

أما أسباب هذه الصراعات فكانت التغييرات العرقية التي حصلت خلال هذه الحقبة في الصين التي تخلّصت من حكم سلالة «لياو» التي كانت تعود بأصولها إلى شعوب الخطا التركية. ونتيجة لذلك غادر الخطا الصين، وتحرّكت جموعهم غرباً فضغطت على القبائل التركمانية في بلاد ما وراء النهر، فتهدّدت بذلك أملاك السلطان سنجر من قبل قبائل من الغز والقرلق الذين هزمهم سنجر في معركة قرب سمرقند السنة ٥٣٦هـ. لكن الصراع بين هذه القبائل والسلطان سنجر استمرّ بعد أن قصدت بلاد خراسان ونزلتها. وتمكّن الغز من هزيمة سنجر وأسره السنة ٥٤٨هـ فبقي في السجن أعواماً ثلاثة هرب بعدها إلى مرو حيث توفي السنة ٥٥٢هـ.

وبوفاة السلطان سنجر أسدل الستار نهائياً على عصر مهمّ من عصور السيطرة السلجوقية، إذ توزعت السلطنة إلى سلطنات كان أشهرها: سلاجقة العراق، سلاجقة الروم وسلاجقة كرمان؛ وإلى دول اتابكية عديدة أبرزها:

- دولة بني أرتق، نسبة إلى أرتق التركماني، أحد مماليك ملكشاه الذين حكموا حصن كيفا بين ٤٨٥ و٦٢٩هـ.
- دولة ماردين (٥٠٢ - ٨١١هـ).
- أتابكة الشام (٤٩٧ - ٥٤٩هـ)، وأول ملوكها طغتكين الذي كان مملوكاً لتتش ابن ألب ارسلان.
- شاهات خوارزم (٤٧٠ - ٦٢٨هـ) الذين ينتسبون إلى انو شتكين الذي عيّنه السلطان ملكشاه حاكماً على خوارزم.

وانقرضت دولة السلاجقة في خراسان وبلاد الري والجبل وما وراء النهر على أيدي ملوك خوارزم: أتسز وتكش وعلاء الدين. ثمّ انقرضت الدولة الخوارزمية على أيدي المغول السنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م. في عهد جلال الدين خوارزمشاه، ومن أصل هؤلاء قامت دولة المماليك في مصر.

أما دولة سلاجقة الروم فبقيت حتى القرن الثامن الهجري حين استولى عليها الأتراك العثمانيون.

خلال هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي خاض العباسيون معارك سياسية وعسكرية واجتماعية سعياً إلى التخلّص من سيطرة السلاجقة، حققوا خلالها نجاحات كبيرة خاصة في عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) الذي شجّع حركة الفتوّة بهدف توحيد ممالك الدولة العباسية، كما عقد تحالفات عديدة داخلية وخارجية.

وفيما بدأ الضعف يدبّ في أوصال الدولة السلجوقية التي راحت تتفكّك إلى دويلات أتابكية وسلطنات، برزت إحدى هذه الدوليلات الاتابكية التي أسسها الأمير عماد الدين زنكي في الموصل والشام وديار بكر ومضر والجزيرة الفراتية. وعماد الدين هو ابن القائد أقسنقر الحاجب عند السلطان ملكشاه.

وبفضل عماد الدين وابنه نور الدين زنكي انتقلت النظم السلجوقية إلى مصر حيث تمثّلت بدولتي الأيوبيين والمماليك، خاصة بظهور القائد الكبير صلاح الدين الأيوبي نائباً عن الزنكيين. ودولة المماليك هي التي وقفت في وجه الخطر المغولي القادم من الشرق، والخطر الصليبي الآتي من الغرب.

هذه الأحداث سنعالج وقائعها العسكرية تباعاً في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة.

الفصل الأول

متابعة العمليات العسكرية في عهد السلطان بركيارق

بعد مقتل تتش بن ألب ارسلان استقل بركيارق بالسلطة في بغداد، واستفحل أمره وخطب له على المنابر واستولى على أصفهان.

وكان السلطان بركيارق قد ولّى على خراسان وأعمالها أخاه لأبيه سنجر، الذي استقلّ بأعمال خراسان.

ولما خرج أخو السلطان واسمه محمد عليه، سار بركيارق من بغداد إلى شهرزور، حيث جرى قتال بينهما انتصر فيه محمد الذي انتقل إلى بغداد وأمر الخليفة المستظهر بالله بالخطبة له، وذلك منتصف رجب السنة ثلاث وتسعين وأربعمائة للهجرة.

ثمّ جرى قتال بين بركيارق وأخيه سنجر في بلخ انتصر خلاله هذا الأخير وانهزم بركيارق الذي اجتاز البرية إلى أصبهان.

وفي السنة أربع وتسعين واربعمائة للهجرة جرى قتال بين بركيارق وأخيه محمد في همذان، فانتصر بركيارق وسار إلى الري، حيث لقيه كربوقا صاحب الموصل ونور الدولة دبيس ابن صدقة بن مزيد واجتمع إليه نحو مائة ألف فارس.

ثمّ تفرّقت العساكر عن بركيارق.

واستمرّت المعارك سجالاً بين الشقيقين إلى أن تمّ الاتفاق بينهما على اقتسام المناطق الاسلامية بين الأشقاء الثلاثة.

هذا ما سوف نتطرّق إليه في هذا الفصل، مع ذكر وقائع أخرى جرت خلال هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي.

١ - سيطرة صاحب افريقيا على مدينة قابس

كان والي مدينة قابس قاضي بن ابراهيم ابن بلمونة قد شقّ عصا الطاعة على صاحب افريقيا تميم بن المعزّ بن باديس من دون أن يتعرّض له هذا الأخير. وفي السنة تسع وثمانين وأربعمائة للهجرة توفي قاضي فولّى أهل قابس عليهم عمرو بن المعز بن باديس الذي أساء السيرة وسلك طريق قاضي في العصيان على تميم.(١)

قرّر صاحب افريقيا قمع عصيان شقيقه، فسيّر جيشاً كبيراً إلى مدينة قابس، فقال له بعض أصحابه:(٢)

«يا مولانا، كان فيها قاضي توانيت عنه وتركته. فلما وليها أخوك جرّدت إليه العساكر». فقال: «لما كان فيها غلام من عبيدنا، كان زواله سهلاً علينا. وأما اليوم، وابن المعز بالمهدية وابن المعز بقابس، هذا ما لا يمكن السكوت عليه».

وبالفعل تمكّن جيش المعز من فتح قابس عنوة، منهياً حال العصيان فيها.(٣)

٢ - استيلاء كربوقا على الموصل

كان تتش بن ألب ارسلان قد أسر قوام الدولة أبا سعيد كربوقا وسجنه، بعدَن قتل آقسنقر بوزان. وبقي محبوساً في حلب إلى أن قتل تتش واستولى ابنه رضوان على حلب، فأمره السلطان بركيارق بإطلاق سراحه فأطلقه رضوان وأطلق أخاه التونتاش.(٤)

اجتمعت العساكر على كربوقا وأخيه فسارا إلى حرّان وتسلّماها من صاحبها.(٥)

نقل ابن الأثير تفاصيل احتلال كربوقا لنصيبين وحصاره الموصل ودخولها عنوة، فكتب:(٦)

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٩، ص ٤.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ١٢، ص ١٦٦.
(٤) هكذا في ابن الأثير - وفي ابن خلدون «التوسطاش».
(٥) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، جزء ٩، ص ٣٤.
(٦) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥.

«وكاتبهما محمد بن شرف الدولة مسلم ابن قريش وهو بنصيبين ومعه ثروان بن وهيب وأبو الهيجاء الكردي يستنصرون بهما على الأمير علي بن شرف الدولة، وكان بالموصل قد جعله بها تاج الدولة تتش بعد وقعة المضيع. فسار كربوقا إليهم فلقيه محمد بن شرف الدولة على مرحلتين من نصيبين واستحلفهما لنفسه، فقبض عليه كربوقا بعد اليمين وحمله معه. وأتى نصيبين فامتنعت عليه فحصرها أربعين يوماً وتسلّمها. وسار إلى الموصل فحصرها فلم يظفر منها بشيء، فسار عنها إلى بلد وقتل بها محمد بن شرف الدولة وغرقه. وعاد إلى حصار الموصل ونزل على فرسخ منها بقرية باحلافا، وترك التونتاش شرقي الموصل فاستنجد علي بن مسلم صاحبها بالأمير جكرمش[1] صاحب جزيرة ابن عمر فسار إليه نجدة له. فلما علم التونتاش بذلك سار إلى طريقه فقاتله فانهزم جكرمش وعاد إلى الجزيرة منهزماً وصار في طاعة كربوقا وأعانه على حصر الموصل. وعدمت الأقوات بها وكلّ شيء حتى ما يوقدونه، فأوقدوا القير وحب القطن. فلما ضاق بصاحبها علي الأمر فارقها وسار إلى الأمير صدقة بن مزيد بالحلة، وتسلّم كربوقا البلد بعد أن حصره تسعة أشهر. وخافه أهله لأنه بلغهم أن التونتاش يريد نهبهم وأن كربوقا يمنعه من ذلك، فاشتغل التونتاش بالقبض على أعيان البلد ومطالبتهم بودائع البلد. واستطال على كربوقا فأمر بقتله فقتل في اليوم الثالث وأمن الناس شرّه. وأحسن كربوقا السيرة فيهم وسار نحو الرحبة فمنع عنها فملكها ونهبها واستناب بها وعاد».

٣ - استيلاء ارسلان أرغون على خراسان ومقتله

كان ارسلان أرغون بن ألب ارسلان مقيماً عند أخيه السلطان ملكشاه في بغداد، وكان له من الاقطاع ما مقداره سبعة آلاف دينار. فلما توفي ملكشاه وبويع ابنه محمود، سار ارسلان أرغون إلى همذان في سبعة من مواليه، حيث

(١) في ابن خلدون: مكرس.

اجتمعت عليه جماعة فكثر جنده فقصد نيسابور وحاول فتحها، فعصت عليه.[1]

سار بعد ذلك إلى مرو، وكان أميرها قودر[2] من مماليك ملكشاه، وكان أحد الساعين في قتل الوزير نظام الملك. مال قودر إلى ارسلان أرغون وسلّمه مرو، فأقبلت العساكر إليه فيها وزاد جمعه فقصد بلخ وفيها فخر الملك بن نظام الملك فحاصرها وفتحها عنوة، وفرّ فخر الملك منها.[3]

وملك ارسلان أرغون بلخ وترمذ ونيسابور وعامة خراسان، وأرسل إلى السلطان بركيارق يطلب منه أن يقرّه على خراسان كما كانت لجده داود باذلاً الأموال له. سكت عنه بركيارق لانشغاله بمحاربة أخيه محمود وعمه تتش، فلما انتهى من هذه الحروب سيّر جيشاً بقيادة عمّه بوربرس[4] ابن ألب ارسلان لقتاله.

التقى الجيشان في خراسان حيث جرى قتال عنيف هزم خلاله ارسلان أرغون، فسار منهزماً إلى بلخ، وأقام بوربرس وجيشه في هراة. ثمّ عاد ارسلان وجمع جيشاً جديداً وسار إلى مرو، فحاصرها أياماً عدّة وفتحها عنوة وقتل عدداً كبيراً من سكانها وهدم سورها.

حيال ذلك سار بوربرس إلى هراة حيث التقى الجيشان ودار قتال عنيف بينهما انهزم خلاله بوربرس مجدداً. وكان ذلك السنة ثمانٍ وثمانين واربعمائة. وسبب هزيمة بوربرس أن ارسلان تمكّن من استمالة بعض أمراء جيشه، ما أضعف هذا الجيش فانهزم وتفرّق جنده وأسر قائده وحُمل إلى شقيقه ارسلان أرغون الذي سجنه في ترمذ، ثمّ أمر بقتله فقتل مع أكابر جند خراسان. وصادر ارسلان أرغون ثلاثمائة الف دينار، وخرّب أسوار مدن خراسان ومنها سور سبزوار وسور مرو الشاهجان، كما هدم قلعة سرخس وقهندز نيسابور وسور شهرستان وغيرها.[5]

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٥.
(٢) في ابن الأثير: قودن - في ابن خلدون: قودر.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧.
(٤) في ابن خلدون: بورسوس.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٦ - ٣٧.

وفي السنة تسعين وأربعمائة للهجرة جهّز السلطان بركيارق جيشاً بقيادة أخيه سنجر وجعل الأمير قماج اتابكاً له، وسيّرهم إلى خراسان لقتال عمه ارسلان أرغون.(١)

فلما وصل الجيش إلى منطقة الدامغان بلغه خبر مقتل ارسلان أرغون بعدما طعنه أحد غلمانه بخنجر بسبب ظلمه وتعسّفه، فتوقّف الجيش في انتظار السلطان بركيارق الذي لحق به تمهيداً لإعادة خراسان إلى بيت الطاعة.(٢)

لخص ابن خلدون نتيجة الحملة التي شنّها بركيارق على خراسان، والتي انتهت بسيطرته عليها، فكتب:(٣)

«ولما قتل ارسلان أرغون ملّك أصحابه من بعده صبياً صغيراً من ولده. وكان السلطان بركيارق قد جهز العساكر لخراسان للقتال ومعه الأتابك قماج، ووزيره علي بن الحسن الطغرائي. وانتهى إليه مقتل أرسلان بالدامغان، فأقاموا حتى لحقهم السلطان بركيارق، وساروا إلى نيسابور فملكها في جمادى سنة تسعين وأربعمائة، وملك سائر خُراسان، وسار إلى بَلَخ. وكان أصحاب ارسلان قد هربوا بابنه الذي نصبوه للملك إلى جبل طخارستان، وبعثوا يستأمنون له ولهم فأمنهم السلطان، وجاؤا بالصبيّ في آلاف من العساكر(٤) فأكرمه السلطان، وأقطعه ما كان لأبيه أيام ملك شاه. وانفضّ عنه العسكر الذين كانوا معه، وافترقوا على أمراء السلطان، وأفردوه فضمّته أم السلطان إليها، وأقامت من يتولى رتبته. وسار السلطان إلى ترمذ فملكها، وخطب له بسمُرقند، ودانت له البلاد، وأقام على بلخ سبعة أشهر. ثمّ رجع وترك أخاه سنجر نائباً بخراسان».

٤ – عصيان في خراسان

في السنة تسعين واربعمائة للهجرة، وفيما كان السلطان بركيارق في خراسان،

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٧ – ٣٨.

(٤) نقل ابن الأثير أن عدد العساكر كان خمسة عشر ألفاً، جزء ٩ – ص ٩.

خالف عليه أمير اسمه محمد بن سليمان، ويعرف بـ«أمير أميران»، وهو ابن عم ملكشاه. سار محمد إلى بلخ واستمدّ صاحب غزنة[1] فأمدّه بجيش كبير وفيه المقاتلون والفيلة، حتى قويت شوكته وعظم جيشه.[2]

سيّر إليه الملك سنجر صاحب خراسان حملة من دون أن يُعلم بها أمير اميران، مما أدى إلى مفاجأته فيما كان جيشه على غير تعبئة. فجرت معركة خاطفة لم تستغرق سوى ساعة فقط، انتهت بأسر محمد وحمله إلى بين يدي سنجر الذي أمر به فسملت عيناه.[3]

التقييم:

من مجرى الحملتين المذكورتين يمكننا ملاحظة ما يلي:

أ - رغم كثرة أعداد جيش ارسلان أرغون وقوته العسكرية وسيطرته على كامل خراسان وانتصاره على الحملة التي أرسلها السلطان بركيارق لإخضاعه، فان حمايته الخاصة لم تكن مؤمّنة، مما أدى إلى مقتله على يد أحد غلمانه في حمّامه باستعمال خنجر فقط. وهذا ما أدى إلى انتهاء عصيانه ووقوع خراسان في يد السلطان.

ففي هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي سجلت حوادث عدّة مشابهة لهذه الحادثة، حيث كان يقتل القائد أو الأمير بيد غلمانه أو مماليكه، ما يعني أن الحماية الشخصية للقائد لم تكن قد تنظّمت. كما أن الإكثار من الغلمان والمماليك داخل القصور، حيث كان هؤلاء يخططون للمؤامرات بالتعاون مع الجواري، كان يبقي دائماً القادة والأمراء في دائرة الخطر على حياتهم.

ب - أما بالنسبة إلى عصيان أمير أميران في خراسان أيضاً، فإن اعتماد السريّة في التحضيرات للحملة ضده

(١) من بني سبكتكين.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٨.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩.

وانتقال الجيش المتوجّه لإخضاعه بطريقة سريّة، أمّنا للسلطان سنجر انتصاراً سريعاً عليه. هذا رغم أن جيشه كان قد أصبح كبيراً وفيه المقاتلون والفيلة، لاسيما بعد التعزيزات التي أرسلها له صاحب غزنة. فهذا الجيش الكبير لم يكن جاهزاً للقتال عند مفاجأته من قبل جيش السلطان سنجر.

فالجيش الذي لا يكون على تعبئة ويفاجأ بحملة عليه يفقد قدراً كبيراً من فعاليته وإمكاناته.

هذا الأمر تنبّه إليه كبار القادة المسلمين خلال مرحلة الفتوحات الكبرى . فالقائد الكبير خالد بن الوليد، على سبيل المثال، كان ينتقل باتجاه عدوّه وجيشه على تعبئة دائمة، وهذا ما كان يسمح له بمباشرة القتال في صورة فورية، الأمر الذي كان يساهم في انتصاراته المتعدّدة.

٥ – ظهور المخالفين في خراسان

كان السلطان بركيارق قد ولّى على خوارزم أميراً اسمه «أكنجي»، ولقبه خوارزمشاه.[١] جمع اكنجي عساكره وسار في عشرة آلاف فارس ليلحق بالسلطان المتوجّه من مرو إلى العراق، لكنه سبق العسكر إلى مرو في ثلاثمائة فارس، حيث تشاغل بالشرب واللهو.[٢]

اتفق أميران من أمراء خراسان، هما قودن ويارقطاش، على الغدر به، فجمعا خمسمائة فارس وسارا إليه واشتبكا معه في قتال أدى إلى مقتله. ثمّ سار الأميران إلى خوارزم وأظهرا أن السلطان قد استعملهما عليها فتسلّماها.[٣]

لمّا علم السلطان بالأمر جنّد جيشاً بقيادة أميرداذ حبشي بن التونتاق وسيّره إلى خراسان لقتالهما. نقل ابن الأثير تفاصيل القتال الذي انهى العصيان في خراسان، فكتب:[٤]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٨.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٨.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩.
(٤) المرجع نفسه، ص ١٠.

«وأعاد أمير داذ حبشي بن التونتاق في جيش إلى خراسان لقتالهما، فسار إلى هراة وأقام ينتظر اجتماع العساكر معه. فعاجلاه في خمسة عشر ألفاً فعلم أمير داذ أنه لا طاقة له بهما، فعبر جيحون فسار إليه وتقدّم يارقطاش ليلحقه قودن، فعاجله يارقطاش وحده وقاتله فانهزم يارقطاش وأخذ أسيراً. وبلغ الخبر إلى قودن فثار به عسكره ونهبوا خزائنه وما معه فبقي في سبعة نفر، فهرب إلى بخارى فقبض عليه صاحبها. ثمّ أحسن إليه وبقي عنده وسار من هناك إلى الملك سنجر ببلخ فقبله أحسن قبول. وبذل له قودن أن يكفيه أموره ويقوم بجمع العساكر على طاعته، فقدر أنه مات عن قريب، وأما يارقطاش فبقي أسيراً إلى أن قتل أمير داذ».

التقييم:

يلاحظ أن الخلافات الداخلية والثورات ضد السلطان بركيارق قد تتابعت خلال مرحلة حكمه، لا سيما في خراسان وما وراء النهر. لذلك وجّه بركيارق جهوده العسكرية إلى إخضاع الثائرين والعاصين عليه، وهذا ما ساعد الفرنجة في حروبهم ضد العالم الإسلامي في الشرق. ففي السنة التالية للسنة التي جرت فيها هذه الأحداث تمكن هؤلاء من احتلال انطاكية ومعرّة النعمان، كما ملكوا في السنة التي تلتها بيت المقدس التي سقطت في قبضتهم.

وسنرى لاحقاً أن مهمة الصراع ضد الفرنجة أو الصليبيين ستقع على عاتق الجيش المصري بقيادة الأفضل، فيما ستستمرّ الفتن الداخلية في أرجاء السلطنة السلجوقية. وهذا ما سيؤذن بزوالها تمهيداً لظهور آل زنكي واضطلاعهم بالجهد العسكري المقاوم للسيطرة الصليبية على بلاد الشام. وذلك تطبيق لمبدأ صعود الأمم وهبوطها والذي ينص على أن الدولة تتجه نحو الانحدار عندما لا تعود إمكاناتها السياسية والإدارية والمالية والعسكرية تلبي حاجاتها المتراكمة.

٦ - الحرب بين الملك رضوان وأخيه دقاق

كان رضوان بن نظام الملك ملكاً على حلب وأخوه دقّاق على دمشق. وفي السنة

تسعين وأربعمائة سار رضوان على رأس جيش كبير إلى دمشق بهدف الاستيلاء عليها. فلما رأى منعة اسوارها وقوتها أدرك عجزه عنها، فرحل إلى نابلس وسار إلى القدس لاحتلالها فلم يتمكّن منها، مما أدى إلى انفضاض الجند عنه ومنهم «باغي سيان» صاحب انطاكية.[(١)]

ثمّ إن باغيسيان قصد دقاقاً وأقنعه بمهاجمة أخيه في حلب جزاءً لما فعله معه، فجمع دقاق جيشاً كبيراً وسار معه القائد باغيسيان في اتجاه مدينة حلب لمهاجمتها. وفي هذه الأثناء استنجد دقّاق بأمير سروج سقمان بن أرتق الذي أنجده بجيش كبير من التركمان.

التقى الجيشان في قنسرين حيث وقعت معركة عنيفة انهزم خلالها دقاق وجيشه ونهبت خيامهم وكلّ أموالهم، قبل أن يتفق الجانبان على الخطبة لرضوان قبل دقاق في دمشق وانطاكية.[(٢)]

ملاحظة:

جرت هذه المعارك بين الأخوة من المسلمين فيما كان الخطر الفرنجي يقترب من انطاكية من دون أن يعطيه أي من القادة الأهمية والخطورة اللتين يستحقهما.

٧ – استيلاء الفرنجة على انطاكية وغيرها من سواحل الشام

كان الفرنجة قد اشتدّ أمرهم وبدأوا بمهاجمة بلاد الإسلام، فاستولوا السنة ٤٧٨هـ على طليطلة في الأندلس. وفي السنة ٤٨٤هـ احتلوا جزيرة صقلية التي ملكها «رجّار» الفرنجي، كما بلغوا أطراف افريقيا فملكوا سواحلها.

وفي السنة ٤٩٠هـ، جمع الملك بردويل جيشاً كبيراً من الفرنجة[(٣)] ورغب في الانطلاق من صقلية لغزو بلاد افريقيا. لكن نسيبه رجار أشار عليه بوجوب التوجه

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١ – في ابن الأثير باغيسيان.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٩.

وابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩ ص ٤٠.

بحملته إلى الشرق لاحتلال مدينة بيت المقدس وإنقاذها من أيدي المسلمين. نقل ابن الأثير تفاصيل التحضيرات لهذه الحملة، وصولاً إلى احتلال انطاكية، فكتب:[1]

«فتجهّزوا وخرجوا إلى الشام. وقيل إن أصحاب مصر من العلويين، لما رأوا قوّة الدولة السلجوقية وتمكّنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزّة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول الأقسيس إلى مصر وحصرها، فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين والله أعلم. فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد المسلمين ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم. فلما وصلوا إليها منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده وقال: لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لي أنكم تسلّمون إليّ أنطاكية. وكان قصده يحثهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظناً منه أن الأتراك لا يبقون منهم أحداً لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد. فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج عند القسطنطينية سنة تسعين ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش وهي قونية وغيرها. فلما وصلوا إليها لقيهم قلج أرسلان في جموعه ومنعهم، فقاتلوه فهزموه في رجب سنة تسعين واجتازوا في بلاده إلى بلاد ابن الأرمني فسلكوها وخرجوا إلى أنطاكية فحصروها. ولما سمع صاحبها باغيسيان بتوجههم إليها خاف من النصارى الذين بها، فأخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم، وأمرهم بحفر الخندق. ثمّ أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضاً ليس معهم مسلم فعملوا فيه إلى العصر. فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم: أنطاكية لكم فهبوها لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنج. فقالوا له: من يحفظ أبناءنا ونساءنا. فقال: أنا أخلفكم فيهم. فأمسكوا وأقاموا في عسكر الفرنج فحصروها تسعة أشهر وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره. فهلك أكثر الفرنج موتاً ولو بقوا على

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣ - ١٥.

كثرتهم التي خرجوا فيها لطبّقوا بلاد الإسلام. وحفظ باغيسيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم وكفّ الأيدي المتطرّقة إليهم. فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين للأبراج وهو زراد يعرف بروزبه وبذلوا له مالاً وأقطاعاً، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي وهو مبني على شباك في الوادي. فلما تقرّر الأمر بينهم وبين هذا الملعون الزراد جاؤوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه وصعد جماعة كثيرة بالحبال. فلما زادت عدّتهم على خمسمائة ضربوا البوق وذلك عند السحر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة. فاستيقظ باغيسيان فسأل عن الحال فقيل إن هذا البوق من القلعة ولا شك أنها قد ملكت، ولم يكن من القلعة وإنما كان من ذلك البرج. فدخله الرعب وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه. فجاء نائبه في حفظ البلد فسأل عنه فقيل إنه هرب فخرج من باب آخر هارباً وكان ذلك معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا. ثمّ إن الفرنج دخلوا البلد من الباب ونهبوه وقتلوا من فيه من المسلمين وذلك في جمادى الأولى.

وأما باغيسيان فإنه لما طلع عليه النهار رجع إليه عقله وكان كالولهان فرأى نفسه وقد قطع عدّة فراسخ، فقال لمن معه: أين أنا. فقيل: على أربعة فراسخ من أنطاكية. فندم كيف خلص سالماً ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل. وجعل يتلهّف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين، فلشدّة ما لحقه سقط عن فرسه مغشياً عليه. فلما سقط إلى الأرض أراد أصحابه أن يُركبوه، فلم يكن فيه مسكة قد قارب الموت فتركوه وساروا عنه. واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية. وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية».

وتتوافق روايتا ابن خلدون وابن كثير مع رواية ابن الأثير للأحداث التي أدت إلى سقوط مدينة انطاكية بيد الفرنجة الغزاة. كما أن هذه الرواية تتوافق مع رواية مؤرّخ نصراني لهذه الأحداث التي عايشها نوردها في ما يتبع.

فالمؤرّخ وليم رئيس أساقفة صور (١١٣٠ - ١١٨٥م) الذي عاش خلال حقبة الحروب الصليبية في صور كتب مطوّلاً عن معركة انطاكية. نستخلص بعض المقاطع التالية:(١)

«كان حاكم المدينة رجلاً يعرف باسم يغي سيان من الشعب التركي، وكان ينتسب إلى أسرة الحاكم القوي ملكشاه العظيم، سلطان فارس... وعندما علم يغي سيان أن جيشاً ضخماً بأمرة قادة مسيحيين كان قادماً، بعث برسائل متوالية إلى جميع أمراء الشرق يلتمس العون والمساعدة... ووعده الحكام بالقوات والمساعدة التي طلبها، ونفذوا وعدهم في ما بعد بإخلاص، كما أظهرت النتائج.

وقام في هذه الأثناء يغي سيان بتجنيد العساكر وجمع الجند بجدٍ واجتهاد من الأقاليم المجاورة... فقد قيل إنه وجد فيها ستة آلاف، أو سبعة آلاف، من الفرسان، وأكثر من خمسة عشر ألفاً، أو عشرين ألفاً تقريباً من الرجّالة المسلحين للقتال.

في الثامن عشر من شهر تشرين الأول زحفوا (أي الجيوش الفرنجية) إلى انطاكية، وأقاموا أمام المدينة، وكان من المستحيل بالنسبة للعساكر تطويق المدينة بأكملها، وذلك على الرغم من أن عدد القوات المسيحية التي كان بإمكانها استخدام السيف بلغ، كما قيل، ثلاثمائة ألف محارب إضافة إلى النسوة والأطفال...

كان في القسم الواقع في السهل خمسة أبواب... ترك اثنان منها من دون حصار وتمّ تطويق الأبواب الثلاثة العليا...».

وفي رواية وليم أسقف صور جاء أن الفرنجة قاموا ببناء جسر من المراكب على النهر لتسهيل عبوره لجلب المؤونة والعلف لجندهم وخيولهم.

ثمّ أنشأ الفرنجة برجاً خشبياً متحركاً لاستعماله في الحصار، فقام المسلمون بهجوم عنيف عليه وطردوا الذين كانوا قد عيّنوا لحمايته وأضرموا فيه النيران، فتحوّل البرج إلى رماد.

وعن سقوط المدينة أورد وليم رواية عن صداقة ربطت بين أحد القادة الفرنجة الذين كانوا يحاصرون المدينة ويدعى «بوهيمند» وأحد نبلاء انطاكية، واسمه فيروز والذي عرض المساعدة لتسليم المدينة إلى

(١) وليم، رئيس أساقفة صور، تاريخ الحروب الصليبية، دار نوبليس، بيروت ١٩٩٠، جزء ٢، ص ٢٧٩ - ٣٣٢.

المسلمين شرط أن تكون لبوهيمند وحده بعد احتلالها. أما طريقة مساهمة فيروز فكانت تسليم أحد الأبراج المحصّنة تحصيناً قوياً والذي كان موكلاً بحراسته.(١)

في هذا الوقت كان السلطان بركيارق قد أرسل قوات كبيرة من مختلف الولايات لفك الحصار عن انطاكية. كانت هذه القوات التي بلغ عددها مائتي ألف رجل، بقيادة القائد كربوغا الذي أضاع عشرين يوماً في محاصرة الرها، مما سمح للفرنجة باحتلال انطاكية قبل وصول النجدات إليها.(٢)

في المقابل، طلب بوهيمند من كبار القادة الموافقة على منحه قيادة المدينة بعد سقوطها كي يقبل فيروز الوفاء بوعده بتسليم حصنه لهم. وهؤلاء القادة، وفق وليم الصوري، هم الدوق غودفري، وروبرت كونت فلاندرز، وروبرت كونت نورماندي، وريموند كونت طولوز.(٣)

قبل القادة بهذا الطرح، فأعلم بوهيمند فيروز النتيجة، فنفذ هذا وعده. كتب وليم الصوري عن فتح المدينة:(٤)

«استدعى القادة الآخرين سراً، واستجاب الجميع مع مجموعاتهم الخاصة بلمح البصر، وحسبما كان الأمر مرتباً من قبل. وفي وقت قصير وقفوا كرجل واحد عند قدمي البرج المخصص منذ فترة طويلة، ولم يُسمع لهم أدنى صوت أو ضجّة عندما تقدّموا.

وكان فيروز خلال تلك الفترة القصيرة، قد دخل إلى البرج، فوجد أخاه غارقاً في النوم. وبما أنه كان قد تأكّد أن عواطف أخيه كانت ضد المشروع الذي كان مصمماً عليه، فقد خشي من أن تسبب دناياه عائقاً ما يعوق تنفيذه، وهو الآن على وشك الإنجاز. ولهذا أهوى عليه بسيفه بضربة مميتة أودت بحياته، لقد كان عملاً فظيعاً وورعاً في آن واحد.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣١٦ - ٣١٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣١٨ - ٣١٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢٨ - ٣٣٢.

ثمّ عاد إلى فتحات شرفات الأسوار فوجد حلفاءه قائمين في الأسفل، وتمّ تبادل التحيات مع عبارات الأمل بسلامتهم المشتركة، ثمّ أدلى حبلاً رفع بواسطته السلم من الأسفل.

وعندما رفع هذا السلم وربط بإحكام من الأعلى والأسفل، لم يجرؤ أحد على تسلّقه. ولم يكن بينهم من هو على استعداد للمجازفة بحياته في مثل هذا الإمتحان العسير، حتى عندما أمر بذلك من قبل قائده الأعلى، لا بل حتى من قبل بوهيموند نفسه. وأدرك بوهيموند ذلك على الفور، فأخذ زمام المبادرة، وصعد السلم بجرأة. وما أن وصل إلى السطح ولامست يده شرفة السور حتى أمسك فيروز بيده من الداخل. وعندما اكتشف فيزوز أنها كانت يد بوهيموند يقال إنه صاح قائلاً: «لتعش هذه اليد طويلاً». وأدخل بوهيموند إلى داخل البرج، وأراه جثة أخيه الميت وقد غطاها الدم وذلك بغية نيل حظوة أكبر في نظره ونظر المقدمين المسيحيين الآخرين، وليريهم أنه قد قتل أخاه الذي رفض أن ينضم إليه في عمل مقدّس للغاية. وعانق اللورد بوهيموند ذلك الرجل صاحب الإخلاص الثابت والحقيقي بعاطفة صادرة عن القلب، ثمّ عاد إلى شرفة السور، ومدّ رأسه قليلاً من خلال الفتحة، وطلب بصوت خافت من رجاله أن يصعدوا. ومع ذلك كانوا ما يزالون مترددين، ولم يجرؤ أحد منهم على إطاعته، لأنهم نظروا بعين الارتياب لكلّ ما قيل من على شرفة السور. وما أن لاحظ بوهيموند هذا حتى عاد إلى رفاقه بوساطة السلم، وأعطاهم بذلك برهاناً حقيقياً على سلامته. وهكذا شرعوا على الفور يتنافسون فيما بينهم في المحاولة لبلوغ الشرفات. وبتسلّقهم للسور لم يكتفوا بالإستيلاء على ذلك البرج، بل استولوا على عدّة أبراج أخرى إلى جانبه، وسمعنا أنه كان من بين الذين صعدوا: كونت فلاندرز، واللورد تانكرد، الذي حذا البقية حذوه وتبعوه صعوداً.

....

وكان هنالك باب خلفي في قطاع السور الذي كان المسيحيون قد جعلوه مرتقى. ونزلوا إليه بعد كسر الرتاجات والمزالج الكابحة وفتحوه بالقوة، وأدخلوا الجند المنتظرين في الخارج مما أدى إلى زيادة عدد الغزاة داخل الأسوار. وأسرعوا مع بعضهم

إلى الموقع المعروف باسم باب الجسر، وقتلوا جميع الحراس، وفتحوا ذلك المدخل بهجوم عنيف أيضاً.

وكان عدد من أتباع بوهيموند قد حملوا رايته في هذه الأثناء إلى هضبة تطل على المدينة، ونصبوها هناك في مكان بارز جداً، وعلى هضبة بالقرب من الحصن الأعلى.

......

«ومع هذا الوقت، فُسح المجال لجيشنا بأسره لدخول المدينة، فاستولى بسهولة على الأبواب والأبراج وشرفات الأسوار. ونشرت رايات المقدمين وشعاراتهم المعروفة من قبل الجميع فوق الأماكن المرتفعة كبرهان على الإنتصار. وتبعثرت الأشلاء في كلّ مكان، وانتشر الكرب وعويل النسوة، وفي كلّ مكان ذبح آباء الأسر مع جميع آلهم.

......

ويروى أنه قتل في ذلك اليوم أكثر من عشرة آلاف من أهل أنطاكية، وانتشرت جثث الموتى غير المدفونة على طول الطرقات، تماماً حسبما سقطت».

وعن نهاية حاكم انطاكية باغيسيان (يغي سيان كما يدعوه وليم الصوري) كتب هذا الأخير:[١]

«عندما رأى يغي سيان أنه قد تمّ تسليم المدينة إلى العدو، وأن العدو قد استولى على جميع الأبراج والحصون، وعلاوة على ذلك أن جميع الذين نجوا من الموت قد انسحبوا بسرعة إلى القلعة. وقد بدأوا يخشون من أن يتبعهم المسيحيون إلى هنالك، ويحاصرون ذلك المكان أيضاً، اندفع بجنون من خلال أحد الأبواب الخلفية هارباً وحده، دون أن يكون معه رفيق واحد، ساعياً للحفاظ على حياته فقط. وحدث أن صادف العديد من الأرمن عندما كان يتجوّل قلقاً يائساً بدون هدف محدّد. وعرفه الأرمن على الفور، واقتربوا منه وكأنهم يريدوه أن يظهروا له التبجيل المألوف. وسمح لهم بالاقتراب منه بعدما كان الفزع قد روّعه. وأدركوا على الفور حقيقة أنه كان قد فرّ وحده، وأنه قد تمّ الإستيلاء على المدينة. وهكذا طرحوه بعنف أرضاً، واستلوا سيفه، وقطعوا رأسه،

(١) المصدر نفسه، ص ٣٣١.

وحملوه إلى المدينة، وقدموه إلى القادة بحضور جميع الناس».

الدروس المستقاة من الحملة الصليبية الأولى ومعركة انطاكية:

من تحليل النص الذي كتبه ابن الأثير عن حملة الفرنجة على انطاكية واحتلالها يمكننا استخلاص الدروس الآتية:

أ - لم يكن المسلمون فقط منقسمين على بعضهم، بل جاراهم الفرنجة في ذلك. فصاحب صقلية، ورغم أنه نسيب لبردويل قائد جيش الفرنجة، فإنه خاف على مصالحه في افريقيا في حال قيام الحملة بالهجوم عليها. لذلك أشار على نسيبه بالتوجّه بحملته شرقاً لاحتلال بيت المقدس.

ب - الامبراطور البيزنطي، من جهته، منع الحملة عن اجتياز مملكته قبل حلف قادتها اليمين أمامه بتسليم انطاكية إليه بعد احتلالها. وكان يرغب في فشل الحملة وفي تمكّن المسلمين الأتراك من إفناء جندها، وذلك لخوفه من الاعتداء على مملكته من قبل عناصرها. إضافة إلى ذلك فإن الخلافات المذهبية بين الروم والفرنجة كانت تزيد من كره الامبراطور لقادة الحملة وجندها.

ج - جابه الملوك والأمراء المسلمون الحملة كلٌّ بمفرده، مما جعل الفرنجة يحاربونهم الواحد بعد الآخر بدءاً بقلج ارسلان، وصولاً إلى ابن الأرمني وإلى باغيسيان صاحب انطاكية. وهذا ما مكّن الفرنجة من التغلّب عليهم، إذ أن الحملة مجتمعة كانت تواجه فريقاً مسلماً تلو الآخر. وهذا أمر طبيعي إذ أن القادة المسلمين كانوا يدافعون عن مقاطعاتهم ومدنهم، فيما الفرنجة كانوا يهاجمون، لذلك كانت المبادرة بأيديهم. لهذا السبب نصت إحدى قواعد العلم العسكري على أن «الهجوم هو أفضل وسائل الدفاع».

د - عدم ثقة صاحب انطاكية بنصارى المدينة دفعه إلى الاحتيال عليهم لإخراجهم منها رغم عدم ظهور أي بوادر خيانة منهم. وهذا ما دفعهم إلى مساعدة الفرنجة أثناء حصارهم المدينة.

هـ - فرّ باغيسيان صاحب انطاكية اثر سريان شائعة عن دخول الفرنجة المدينة بعد ضربهم البوق، فيما الفرنجة لم يكونوا فعلاً قد دخلوا انطاكية بعد، وكان، بالتالي، بإمكان صاحبها المقاومة كما فعل سابقاً.

وهنا لا بدّ من التأكيد على أهمية الشائعات في الحروب، إذ أنها تعمل على بث الرعب في نفوس الأعداء والتأثير على معنويات المقاتلين، مما يسهّل مهمّة الجيش الصديق الذي تستعمل الشائعة لمصلحته. وحرب السنتين في لبنان شاهد على مدى تأثير الشائعات في تأجيج الصراع بين الفرقاء المتقاتلين من جهة، وفي الحطّ من معنويات أحدهم من جهة أخرى. والتاريخ العسكري حافل بالأمثلة عن فعالية الشائعات في الحروب.

و - تواكب الشائعات في الحروب أعمال الخداع التي كثيراً ما تمارس، أثناء العمليات الحربية. والخدعة في القتال هي أمر شائع الحصول وطبيعي، وتدخل ضمن هذا الإطار عمليات إخفاء النوايا عن العدو وإظهار عكسها له.

لقد سجلت خلال الحروب المعقّدة عمليات تمويه وإخفاء النوايا وغش العدو وخداعه، وهي من الأعمال المشروعة في الحرب إذ أن المهم هو كسب المعركة.

أما الحملة الفرنجية الأولى التي نتكلّم عنها، فقد قام خلالها الفرنجة بخديعة كبرى للقادة المسلمين في حلب ودمشق، فكتبوا لهم يعلمونهم بأنهم يطلبون محاربة صاحب انطاكية فقط، وذلك لدفعهم إلى عدم مساعدته. وهذا ما حصل بالفعل، فأعطت الخديعة نتيجتها المرجوّة فلم يساعد هؤلاء انطاكية في محنتها.

ز - الخيانة أيضاً مورست خلال عمليات الحملة الفرنجية الأولى على بلاد الشام، إذ لمّا طال أمد حصار انطاكية راسل الفرنجة أحد مستحفظي الأبراج وبذلوا له مالاً وإقطاعاً. فتح هذا الأخير لهم الباب المولج بحراسته، فدخلوا إلى أعلاه وضربوا البوق مما ساعد على فتح المدينة.

لقد دخلت الخيانة في قاموس الأعمال الحربية عبر التاريخ الذي سجّل العديد من حالاتها بسبب المال أو العقيدة أو الدين أو غير ذلك من الفوائد. وضمن هذا الإطار تدخل أيضاً أعمال الجاسوسية لصالح العدو. ومن هنا تأتي أهمية الاستخبارات العسكرية الاستراتيجية والتي لها دوران أساسيان:

- **الأول:** حماية القوات الصديقة من أعمال التجسّس وكشف أعمال الخيانة قبل وقوعها.

- **الثاني**: خرق جبهة العدو الاستخباراتية وتجنيد عملاء من صفوفه لكشف نواياه وتخطيطاته للقوات الصديقة، وذلك بهدف أخذ الحذر منها والرد عليها وفق ما تقتضيه ظروف المعارك.

٨ – محاولة المسلمين استرجاع انطاكية

رداً على احتلال الفرنجة انطاكية، جمع قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل العساكر من سائر بلاد الشام، عَربَها وتركها، وأقام في مرج دابق حيث اجتمع إليه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وارسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن أرتق وغيرهم من القادة.(١)

قصد هؤلاء الفرنجة في انطاكية فحاصروهم وعظمت المصيبة على الفرنجة بسبب قلّة الأقوات لديهم. لكن الأمير كربوقا أساء السيرة في من معه من المسلمين وأغضب الأمراء بعد أن تكبّر عليهم، فاضمروا له الشر في نفوسهم.

كتب ابن خلدون واصفاً مجرى القتال الذي هزم فيه المسلمون بسبب أخطاء ارتكبها كربوقا:(٢)

«واجتمعت عساكر المسلمين، وزحفوا إلى انطاكية من كلّ ناحية ليرتجعوها من الافرنج. وجاء قوام الدين كربوقا إلى الشام، واجتمعت عليه العساكر بمرج دابق فكان معه: دِقاق بن تُتش وطُغرُلتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسُقمان بن أُرتق وغيرهم. وساروا إلى انطاكية فنازلوها واستوحش الأمراء من كربوقا، وأنفوا من ترفّعه عليهم. وضاق الحصار بالافرنج لعدم الاقوات، لأن المسلمين عاجلوهم عن الاستعداد فاستأمنوا كربوقا فمنعهم الأمان. وكان معهم من الملوك بردويل، وصنجيل وكمدمري والقمص صاحب الرُّها، وسمند(٣) صاحب انطاكية، وهو مقدّم

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٦٩ – ١٧٠.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤١.
(٣) في ابن الأثير: بيمنت.

العساكر. فخرجوا مستأمنين وضربوا مصياف، وتخاذل الناس لما كان في قلوبهم من الأضغان لكربوقا فتمّت الهزيمة عليهم. وآخر من انهزم سقمان بن ارتق، واستشهد منهم العرب، وغنم العدو سوادهم».

أما ابن الأثير فقد أورد تفاصيل مهمة في مجرى المعركة، فكتب:(١)

«لما سمع قوام الدولة كربوقا بحال الفرنج ومُلكهم أنطاكية، جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق. واجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب، فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلّة الأقوات عندهم. وسار المسلمون فنازلوهم على أنطاكية، وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبّر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال. فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال وعزموا على إسلامه عند المصدوقة.

وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يوماً ليس لهم ما يأكلونه، وتقوّت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر. فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم ما طلبوا، وقال: لا تخرجون إلاّ بالسيف. وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكندفري والقمص صاحب الرها وبيمنت صاحب أنطاكية وهو المقدم عليهم. وكان معهم راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال، فقال لهم إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالفسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق.

وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام. فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الأماكن

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق ، جزء ٩، ص ١٥ - ١٦.

فوجدوها كما ذكر، فقال لهم أبشروا بالظفر. فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرّقين من خمسة وستة ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كلّ من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرّقون سهل. فقال: لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يمكّن من معالجتهم. فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء إليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم. فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بأنطاكية أحد منهم ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا، أولاً من الاستهانة لهم والإعراض عنهم، وثانياً من منعهم عن قتل الفرنج.

وتمّت الهزيمة عليهم ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم. وآخر من انهزم سقمان بن أرتق وجناح الدولة لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم. فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة فقتل الفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم».

الدروس المستقاة:

من دراسة النصين الأنفين يمكننا التأكيد على الأخطاء التي ارتكبها القائد المسلم كربوقا والتي أدت إلى إفشال هجوم المسلمين على انطاكية. لقد كان بالإمكان أن يعطي هذا الهجوم نتيجة إيجابية فيتمكّن الجيش الإسلامي من فتح انطاكية، وربما تغيير مجرى الحملة الصليبية الأولى. وهذه الأخطاء هي:

أ - تكبّره على القادة الآخرين الذين جاؤوا لنجدته والذين اعتبرهم تابعين له في القيادة، فيما أن كلاً منهم كان أميراً مستقلاً على إحدى المناطق الإسلامية. لم يقدّر كربوقا هولاء القادة الذين راحوا يتحيّنون الفرص للغدر به.

ب - لم يستغلّ كربوقا الصعوبات التموينية التي كان يتعرّض لها الفرنجة لمتابعة حصارهم داخل المدينة، مما كان سيؤدي إلى أحد أمرين:

* اما استسلامهم من دون شروط.

* أو خروجهم تباعاً من المدينة اضطراراً، مما كان سيعرّضهم لسيوف المسلمين الذين سيهزمونهم.

وبالفعل كان الفرنجة، وبعد أن وجدوا الحربة التي تكلّم عنها راهبهم، قد خرجوا من باب المدينة «متفرّقين من خمسة وستة ونحو ذلك».

ج - سمح كربوقا للفرنجة بإكمال إخراج كلّ مقاتليهم من انطاكية من دون أن يهاجمهم أثناء خروجهم، كما أشار القادة الأخرون. وهذا ما سمح لهم بإعادة جمع قواتهم خارج المدينة وعودة المبادرة العسكرية إليهم، فيما كانت في يد المسلمين خلال عملية الخروج.

د - انهزام المسلمين أمام هجوم الفرنجة من دون بذل الجهود العسكري الممكن. لذلك، وفق ابن الأثير، «لما رأى الفرنجة ذلك ظنّوه مكيدة إذ لم يجرِ قتال يُنهزم من مثله، وخافوا ان يتبعوهم».

اما الذين ثبتوا من المسلمين، وكانوا أقلية، فقد استشهدت منهم ألوف وغنم العدو ما في معسكرهم من الأقوات والأموال وغيرها.

هـ - كان سليمان بن أرتق وجناح الدولة قد أقاما كميناً لمفاجأة الفرنجة، لكن سرعة هزيمة باقي الأمراء حالت دون الإفادة من هذا الكمين.

في المقابل، كان الفرنجة موحدين في القيادة، وتمكّنوا من إعادة جمع قواتهم والقيام بهجوم عام كاسح أدى إلى تراجع المسلمين وهزيمتهم. وما شدّ عزائم الفرنجة أيضاً إيمانهم بالظفر بعد العثور على الحربة التي دفنها الراهب أرضاً وأقنعهم بأنها مقدّسة وبأنهم سينتصرون إذا وجدوها.

فالعوامل التي تساهم في انتصار جيش على آخر ليست محصورة بعدد المقاتلين في كلّ جانب، بل تتعدى ذلك لتأخذ في الاعتبار أموراً أخرى، وخاصة:

- الحماس والاقتناع وشدّة الحوافز النفسية والشعور بالانتماء إلى المجتمع.
- نوعية الأسلحة.
- وحدة القيادة.
- حراكية الوحدات.
- شخصية القائد وإمكاناته.
- الخطة العسكرية المعتمدة.
- المفاجأة والسريّة.

إلى ما هنالك من العوامل الأخرى التي تؤثر في مجرى المعركة.

٩ – استيلاء الفرنجة على معرّة النعمان

بعدما صدّ الفرنجة هجوم المسلمين على انطاكية، ساروا إلى معرّة النعمان فاحتلوها بعد قتال عنيف مع أهلها.(١)

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال على معرّة النعمان، فكتب:(٢)

«لما فعل الفرنج بالمسلمين ما فعلوا، ساروا إلى معرّة النعمان فنازلوها وحصروها وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً. ورأى الفرنج منهم شدّة ونكاية ولقوا منهم الجد في حربهم والاجتهاد في قتالهم، فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة ووقع القتال عليه فلم يضر المسلمين ذلك. فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين وتداخلهم الفشل والهلع، وظنوا أنهم إذا تحصّنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها، فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه. فرآهم طائفة أخرى ففعلوا كفعلهم، فخلا مكانهم أيضاً من السور. ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول حتى خلا السور، فصعد الفرنج إليه على السلاليم. فلما علوه تحيّر المسلمون ودخلوا دورهم فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير وملكوه».

التقييم:

– لم يورد المؤرّخون المسلمون أسباب تراجع المدافعين عن سور معرّة النعمان وتحصنهم ببعض الدور، رغم معرفتهم بأن الدفاع عن المدينة يجب ان يكون على سورها بسبب منعته.

لقد فسّر ابن الأثير سبب ذلك بالخوف.

– أما الفرنجة فقد استعملوا معدّات حصار تقليدية في القتال، أولها البرج المتحرّك، وهو برج من الخشب من طبقات

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٠ – وابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٢.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٦.

عدّة يتمركز المقاتلون في الطبقات العليا الموازية لسور المدينة، ويُدفع البرج إلى قرب السور فينتقل المقاتلون منه إلى السور حيث كان يجري قتال للسيطرة عليه.

وكان المقاتلون داخل المدينة يرمون عادة هذا البرج بالنبال المشتعلة لاحراقه بمن فيه من مقاتلي الأعداء.

ومن معدات الحصار التي استعملها الفرنجة، والتي كانت معروفة عند المسلمين، السلالم التي تسلقها المقاتلون الفرنجة للصعود إلى الأسوار. هذه السلالم كان يعمد المدافعون عن سور المدينة إلى دفعها من الأعلى بعيداً عن السور، مما كان يؤدي إلى سقوط المقاتلين الذين يرتقونها من علٍ، وبالتالي وضعهم خارج المعركة.

وما يحيّر المراقب في معركة معرّة النعمان أن المقاتلين المسلمين تخلّوا عن السور فنجح العدو في اجتيازه إلى المدينة.

١٠ - احتلال الفرنجة بيت المقدس

بعد احتلال معرّة النعمان سار جيش الفرنجة إلى عرقة فحاصرها مدّة أربعة أشهر، وثقب جنده سورها في أمكنة عدّة، لكنه لم يتمكّن من احتلالها. في هذا الوقت راسل الفرنجة منقذاً صاحب شيزر فصالحهم عليها، فساروا إلى حمص وحاصروها، فصالحهم أيضاً صاحبها جناح الدولة. أما مدينة عكا فلم يتمكّن الفرنجة من احتلالها.(١)

وأما بيت المقدس فكانت تتبع تاج الدولة تتش الذي أقطعها للأمير سقمان بن أرتق التركماني. وبعد أن ظفر الفرنجة بانطاكية ضعف السلاجقة وتفرّقوا، فقرّر المصريون أخذ زمام المبادرة، فساروا إلى بيت المقدس بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي فحاصروه. وكان يدافع عن المدينة الأميران سقمان وأيلغازي ابنا أرتق.(٢)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٩.

نصب المصريون حول بيت المقدس نيفاً وأربعين منجنيقاً وراحوا يقذفون سور المدينة بقذائفها في السنة تسع وثمانين وأربعمائة، فتمكّنوا من هدم مواضع عدّة منه. رغم ذلك صمد أهل المدينة وقاتلوا المصريين أشد قتال مدافعين عنها، فدام القتال أربعين يوماً. ثمّ ملك المصريون المدينة بالأمان وكلفوا بإدارتها رجلاً يعرف بافتخار الدولة.(١)

أما الفرنجة، فبعد أن عجزوا عن احتلال عكا، اتجه جيشهم إلى بيت المقدس في السنة اثنتين وتسعين وأربعمائة فحاصروه مدّة أربعين يوماً دار خلالها قتال شديد حول أسوار المدينة. ونصبوا عليها برجين(٢) أحدهما من ناحية صهيون أحرقه المسلمون وقتلوا من كان به من المقاتلين. لكن البرج الثاني نصبه الفرنجة من ناحية الشمال فتوصّلوا إلى دخول المدينة من هذا الجانب، وذلك ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان السنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فتمكّنوا من احتلال المدينة.(٣)

كتب ابن خلدون عن احتلال بيت المقدس من قبل الفرنجة:(٤)

«وقتل بالمسجد سبعون ألفاً أو يزيدون من المجاورين: فيهم العلماء والزهّاد والعبّاد. وأخذوا نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، زنة كلّ واحد ثلاثة آلاف وستمائة درهم، ومائة وخمسين قنديلاً من الصفّار، وتنّوراً من الفضّة زنته أربعون رطلاً بالشامي، وغير ذلك مما لا يحصى. ووصل الصريخ إلى بغداد مستغيثين، فأمر المقتدي أن يسير إلى السلطان بركيارق أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني، وأبو الوفاء بن عقيل، وأبو سعد الحُلواني، وأبو الحسين بن السمّاك. فساروا إلى بركيارق يستصرخونه للمسلمين فانتهوا إلى حلوان، وبلغهم مقتل مجد الملك ألب أرسلان وفتنة

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٤.
(٢) سبق الحديث عن وصف البرج.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٠.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٩ – ٢٠

بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا، وتمكّن الافرنج من البلاد».

كما كتب ابن الأثير:[1]

«فلما وصلوا إليه حصروه نيفاً وأربعين يوماً ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون أحرقه المسلمون وقتلوا كلّ من به. فلما فرغوا من إحراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد ملكت من الجانب الأخر وملكوها من جهة الشمال منه صحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان. وركب الناس السيف ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الأمان فسلموه إليهم. ووفى لهم الفرنج وخرجوا ليلاً إلى عسقلان فأقاموا بها. وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمّة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف. وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كلّ قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم. وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء. وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب. وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا ما دهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال...».

ابن كثير، من جهته، كتب عن الموضوع نفسه:[2]

«لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، أخذت الفرنجة لعنهم الله بيت المقدس شرّفه الله، وكانوا في نحو ألف ألف مقاتل، وقتلوا

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٩ - ٢٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٠.

في وسطه أزيد عن ستين ألف قتيل من المسلمين...».

أما وليم الصوري، مؤرّخ الحروب الصليبية، فقد أورد بعض المعلومات التي رأينا ضرورة لحظها في سياق حديثنا عن معركة القدس، وهي التالية:(١)

«- حطّت فيالق جيش الفرنجة رحالها أمام مدينة القدس في السابع من حزيران السنة ١٠٩٩م، وبلغ تعدادها نحو أربعين ألفاً، منهم عشرون ألفاً من الرجالة وألف وخمسمائة فارس، فيما بقية الحشد جمهرة بائسة وعاجزة.

- ذكرت إحدى الروايات أنه كان داخل مدينة القدس نحو أربعين ألف محارب شجاع مجهزين تجهيزاً رائعاً.

- قرّر القادة مهاجمة المدينة من الشمال لأن الممرّات العميقة والضيّقة في الشرق والجنوب أعاقت الهجوم من هاتين الجهتين.

- في اليوم الثالث لإقامة الحصار شنّ جيش الفرنجة هجوماً عاماً على المدينة. لكن هؤلاء لم تكن لديهم سلالم للحصار أو آلات لاستعمالها في تسلّق الأسوار مما أدى إلى فشل الهجوم.

وهنا حوّل القادة انتباههم للحصول على مادة مناسبة لإقامة آلات الحصار، فدخلوا إلى إحدى الغابات وقطعوا أشجارها وصنّعوا الأبراج النقالة والمنجنيقات والعرادات وكباش الدك وغيرها.

- وبسبب تدمير مصادر المياه والصهاريج والأحواض من قبل المسلمين تعرّض الجيش الفرنجي للعطش، فقامت وحدات منه بجلب المياه من ينابيع تبعد أربعة أو خمسة أميال عن موقع الحصار.

- كانت مجموعات مقاتلة من داخل المدينة تنطلق إلى الريف فتتصدّى للذين كانوا يقصدون الينابيع البعيدة لجلب المياه. وهكذا راحت قوات الفرنجة تتناقص في اعدادها، فيما تتزايد أعداد المسلمين بالامدادات الجديدة التي كانت تدخل المدينة من خلال الأقسام غير المحاصرة.

- أنشأ المحاصرون داخل الأسوار آلات حربية من العوارض الخشبية. كما احتفظوا

(١) وليم الصوري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٠٦ - ٤١٦، وجزء ٣، ص ٤١٧ - ٤٤٣.

بالحرس الدائم على الأسوار والأبراج لمراقبة ما يجري في المعسكر الفرنجي.

- وصل أسطول بحري من جنوى إلى ميناء يافا لتعزيز الفرنجة فأرسل كونت تولوز قوّة مؤلّفة من ثمانين فارساً وخمسين راجلاً واكبت القادمين إلى موقع الحصار، فيما وصل اسطول مصري دمّر السفن الجنوية في ميناء يافا.

- وفي اليوم السابق ليوم الهجوم العام نقل الكونت والدوقان جيوشهم ليلاً وبسرية تامة نحو أمكنة السور التي لم تكن محاصرة قبلاً، وذلك لأنها لم تكن تحرس باهتمام من قبل المسلمين. كما وضعوا البرج المتحرّك في مكان حيث السور أكثر انخفاضاً إلى حدّ ما، والطريق إليه أكثر استواءً. واعتبر نقل آلات الحصار ليلاً من الإنجازات العسكرية المهمّة للفرنجة.

- أما باقي القادة فقد نصبوا الأبراج المتحرّكة وأدنوها من شرفات السور كي يسهل الانتقال منها إليه.(١)

- وهكذا وقف جيش الفرنجة، عند الفجر، أمام المدينة وفق الخطة الموضوعة، مسلّحاً تسليحاً كاملاً ومستعداً للهجوم.

- أطلق سكان المدينة المصمّمون على الدفاع عنها وابلاً من السهام والقذائف على الجيش العدو. كما قذفوا الحجارة من آلات القذف الحربية بكثافة هائلة، وذلك لمنع المهاجمين من الاقتراب من السور.

- الفرنجة، من جهتهم، قذفوا المدافعين بشتى أنواع القذائف ودفعوا الأبراج المتحرّكة نحو السور. لكن خندقاً عميقاً وعريضاً أمام التحصينات أعاق تقدّم الآلات الحربية.

علّق المدافعون على الأسوار الخارجية أكياساً مليئة بالقش والتبن، إضافة إلى الحبال والمنسوجات والعوارض الخشبية الضخمة والفرش المحشوة بالحرير. وهذه الأشياء الطرية أعاقت ضربات القذائف على الأسوار وأحبطت جهود المهاجمين لفتح ثغرات فيها.

(١) كانت الأبراج مربعة، وحُميت جوانبها المقابلة للمدينة بستائر مزدوجة بحيث يمكن اسدال الغطاء الخارجي بطريقة بارعة يشكل فيها جسراً بين البرج والسور. وزُود الجنود داخلها بوسائل تمكّنهم من بلوغ المدينة.

- استمرّ القتال عنيفاً إلى المساء وسقط العديد من القتلى والجرحى لدى الجانبين. وقذف خلاله المدافعون بالقذائف المشتعلة والنبال المحمّلة بالكبريت والاسفلت والزيت مما عرّض الات القتال الفرنجية للتزعزع، فأصبحت جوانبها مثقبة والمقاتلون في داخلها معرّضين للسقوط إلى الأرض.

- خلال الليل توقّف القتال، ونُظمت عملية حراسة الآلات الحربية خوفاً من إحراقها خلسة. كما نظمت حراسة الأسوار والأبراج بدقّة متناهية وسيّرت الدوريات طيلة الليل.

- استؤنف القتال في اليوم التالي وتمكّن المهاجمون من ردم الخندق ودفع الأبراج المتحركة نحو الأسوار بعدما كثّفوا رمي السهام لطرد المدافعين من وراء الشرفات، حتى لا يتمكّنوا من إعاقة وصول الأبراج إلى قرب الأسوار. تمّ ذلك فيما ألقى المدافعون جراراً سهلة التحطيم وفيها الكبريت والزفت والدهن والشحم والشمع والخشب الجاف والنشارة وغيرها، وذلك بهدف إحراق الأبراج الخشبية.

وهذا ما أوقع العديد من القتلى والجرحى لدى الجانبين المتحاربين.

واستمرّ القتال حتى الساعة السابعة من دون أن تظهر نتيجة له.

- أخيراً تمكّنت الفيالق الفرنجية من تدمير التحصينات الخارجية للمدينة، بعد أن ردمت الخندق حولها، مما مكّن الجنود من الاقتراب الآمن من السور. كما قام المقاتلون الموجودون داخل الأبراج بإحراق أكياس القش والوسائد المحشوّة بالقطن والفرش المنصوبة على الأسوار. وزادت الريح الشمالية من لهيبها فدفعت دخاناً كثيفاً جداً إلى داخل المدينة، مما أربك المدافعين عن الأسوار وأصابهم بالدوار فتراجعوا عن الشرفات.

- عندما تبيّن للقادة الفرنجة خلو الأسوار من المدافعين أمروا بانزال العوارض الجانبية للأبراج بحيث تستقر نهاية الواحها الخشبية على السور فيجتازها المقاتلون بسهولة.

- قام غودفري دي بويون بالخطوة الأولى إلى داخل المدينة مشجعاً البقية للّحاق به. وهكذا لحقه المقاتلون بعدد كبير جداً لدرجة

أنه لم يعد بإمكان الجسر الخشبي تحمّل المزيد.

- وعندما رفع الدوق رايته على السور تسابق المقاتلون الفرنجة لتسلّق السلالم إلى الأسوار.

- بعد أن دخل المدينة عدد كبير من المقاتلين أرسل الدوق قسماً منهم لفتح الباب الشمالي لإدخال المنتظرين أمامه. فاندفع الجيش كلّه في صورة فوضوية ومن دون نظام أو ترتيب إلى داخل المدينة.

- بعد احتلال المدينة جرت في داخلها مجازر وحشية وصفها وليم الصوري الذي نقتطف من روايته بعض المقاطع:(١)

«ضم الدوق آنذاك والذين كانوا معه صفوف قواتهم، واندفعوا هنا وهناك خلال شوارع وساحات المدينة مستلّين سيوفهم وبحماية دروعهم وخوذهم، وقتلوا جميع من صادفوا من الأعداء بصرف النظر عن العمر أو الحالة ودون تمييز، وقد انتشرت المذابح المخيفة في كلّ مكان...».

«لقد كانت المجزرة التي اقترفت في كلّ مكان من المدينة مخيفة جداً، وكان سفك الدماء رهيباً جداً لدرجة عانى فيها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز».

«هرب الكثيرون للالتجاء إلى الأروقة المقدّسة للهيكل... فدخلت مجموعة من الفرسان والرجالة قتلت جميع الذين كانوا قد التجأوا إلى هناك، ولم تظهر أي شفقة لأي واحد منهم، وغُمر المكان كلّه بدم الضحايا».

وعن عدد القتلى كتب وليم الصوري:(٢)

«ويروى أنه هلك داخل حرم الهيكل فقط قرابة عشرة آلاف، بالإضافة إلى القتلى المطروحين في كلّ مكان من المدينة في الشوارع والساحات حيث قدّر عددهم أنه كان مساوياً لعدد القتلى داخل حرم الهيكل».

وهذا يجعل عدد القتلى، وفق وليم أسقف صور، عشرين ألفاً، فيما قدّرهم ابن

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٣٥ - ٤٣٧.

(٢) وليم الصوري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٣٧.

كثير بأكثر من ستين ألفاً.[1] أما ابن خلدون وابن الأثير فكتبا انه قتل من أهل بيت المقدس سبعون ألفاً داخل المسجد.[2]

الدروس المستقاة:

أ - يمكن ملاحظة الفروق في تقدير عدد الجيوش وعدد القتلى، إذ فيما قدّر وليم الصوري عدد كلّ القتلى من المسلمين في القدس بعشرين ألفاً، قدّره المؤرّخون العرب في المسجد فقط بسبعين ألفاً. أما عدد جند الفرنجة فقد قدّرهم ابن كثير بمليون مقاتل. وهذا رقم مبالغ فيه كثيراً.[3]

ب - ركّز وليم الصوري على وصف تحضيرات الفرنجة للمعركة وتحركاتهم وتنظيمهم قواتهم ومبادراتهم القتالية، فيما وصف المؤرّخون العرب أعمال المسلمين في الدفاع عن القدس.

ج - أما بالنسبة إلى المجازر التي ارتكبها الفرنجة خلال العمليات التي أدت إلى فتح المدينة، فلم ينكرها مؤرّخهم، بل فصّلها أكثر مما فصّلت لدى المؤرّخين العرب. فهذه المجازر لم يكن بالإمكان السكوت عنها لاسيما انها ارتكبت في المدينة المقدّسة من قبل حجّاج نقل عنهم ان هدفهم هو تخليص قبر السيد المسيح من أيدي المسلمين وحماية الحجاج إلى بيت المقدس.

د - يمكن اعتبار معركة القدس معركة نموذجية بالنسبة إلى عمليات الحصار للمدن والمدافعة عنها. فالمدافعون عن القدس أستنفدوا كلّ وسائل الدفاع واستعملوا مختلف أنواع الأسلحة التي كانت معروفة يومذاك. كما أنهم علّقوا على الأسوار معدات طريّة من فرش وأكياس معبأة بالقش وغيرها، والتي كانت تمتص صدمة القذائف الحجرية التي كانت تُرمى من المنجنيقات لهدم الأسوار. لكن المهاجمين استغلّوا وجود هذه المعدات معلّقة على الأسوار لاحراقها برمي السهام المشتعلة عليها، الأمر

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٠.

(٢) ابن خلدون مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٤ - وابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٩.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٠.

الذي ولّد دخاناً كثيفاً منع المدافعين من البقاء في أماكنهم.

أما العمليات العسكرية التي نفّذها المهاجمون، من تحضير آلات الحصار بسرعة وحسن استعمالها وردم الخندق المحيط بالمدينة، رغم رمايات المدافعين عنها، وتحضير سلالم كثيرة لارتقاء الأسوار بسرعة، فتدلّ على تمرّس كبير للفرنجة في حصار المدن واحتلالها.

وذكر وليم الصوري أن أول من ارتقى الأسوار من الفرنجة كان قادتهم، الأمر الذي دفع المقاتلين للاقتداء بهم وأعطاهم الحماس والحوافز الضرورية للمزيد من الاقدام. فعندما يعطي القائد المثل الصالح لجنوده يندفعون في العمل، لكي يكونوا على مستوى قيادته لهم. والأمثلة عن القادة الذين يدخلون المعركة في طليعة قواتهم كثيرة خلال التاريخ العسكري، نذكر منهم الإسكندر المقدوني وهنيبعل وخالد بن الوليد الذين كانوا من كبار القادة العسكريين عبر العصور.

وضمن إطار العمليات التحضيرية الناجحة للقتال نذكر عملية نقل القوات الفرنجية ليلاً نحو أمكنة لم تكن محاصرة من السور. كما نقلت ليلاً أيضاً، وبسرّية تامة، آلات الحصار الثقيلة إلى المكان عينه من دون لفت انتباه المدافعين عن المدينة. كذلك تمّ نقل البرج المتحرّك ليلاً إلى مكان حيث السور أكثر انخفاضاً. كلّ هذه الأعمال اعتبرت من الإنجازات العسكرية الناجحة للفرنجة.

١١ – القتال بين المصريين والفرنجة

بعد احتلال الفرنجة بيت المقدس في رمضان من السنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، ولما بلغ المصريين ما حصل لأهل بيت المقدس، جمع الأفضل أمير الجيوش العساكر وحشد الحشود وسار بها إلى عسقلان وأرسل إلى الفرنجة ينكر عليهم ما فعلوا ويتهدّدهم.[١]

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٢.

زحف الأفضل، على رأس الحشد القوي مع جيش رائع من الفرسان، نحو سوريا وخيّم أمام مدينة عسقلان. وانضمّت إليه قوات ضخمة من جميع مناطق دمشق.

كتب وليم الصوري عن تجمّع القوات الإسلامية ما يلي:[1]

«وهكذا اجتمعت قوات لا تحصى من المصريين والعرب والأتراك، وهم يضعون هذه الغاية نصب أعينهم. وخيّمت آنذاك في السهول الواقعة أمام مدينة عسقلان، وكان عليها أن تزحف من هنالك إلى القدس، حيث بدا لها مستحيلاً ان يتجرّأ جيشنا على المخاطرة بمواجهة جيش ضخم كهذا».

أما الفرنجة، فقد خصّصوا قسماً من جيشهم لحراسة القدس، وتحرّكت جموعهم إلى سهول الرملة.

كتب ابن الأثير عن مجرى المعركة ما يأتي:[2]

«وأرسل إلى الفرنج[3] ينكر عليهم ما فعلوا ويتهدّدهم، فأعادوا الرسول بالجواب، ورحلوا على أثره وطلعوا على المصريين عقيب وصول الرسول. ولم يكن عند المصريين خبر وصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على أهبة القتال. فنادوا إلى ركوب خيولهم ولبسوا أسلحتهم وأعجلهم الفرنج فهزموهم وقتلوا منهم من قتل، وغنموا ما في العسكر من مال وسلاح وغير ذلك. وانهزم الأفضل فدخل عسقلان ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز، وكان هناك كثيراً. فأحرق الفرنج بعض الشجر، حتى هلك من فيه، وقتلوا من خرج منه، وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر. ونازل الفرنج عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها قطيعة اثني عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار ثمّ عادوا إلى القدس».

نقل وليم الصوري ان الفرنجة، وقبل المعركة، كانوا قد استولوا على أعداد كبيرة من القطعان والمواشي كغنيمة سارت بجانب جيشهم المتقدّم نحو ميدان القتال. وهذا ما

(١) وليم الصوري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٥٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢١.

(٣) الكلام هنا عن الأفضل.

جعل المسلمين يعتقدون أن هذه القطعان هي قسم من الجيش المتقدّم نحوهم، الأمر الذي جعلهم يخلون ساحة المعركة من دون قتال.[١]

كتب وليم الصوري عن المعركة:[٢]

«ونظم القادة، الذين تأكّدوا الآن أن المعركة لا بدّ منها، قواتهم في تسع فرق، وشكلت ثلاث فرق منها طليعة الجيش، بينما وقفت ثلاث أخرى في القلب، وأمرت الثلاث الباقية بالبقاء في المؤخّرة. وهكذا كان العدو سيجد في أي نقطة قد يهاجم منها، تنظيماً ثلاثياً للجنود للتصدي له. وتعذّر الحصول على معلومات محدّدة بخصوص أعداد العدو، حيث كانت حشوده تفوق الإحصاء، وكان يتلقى نجدات إضافية في كلّ يوم.

كانت الغنيمة التي كان المسيحيون قد فازوا بها بدون مقاومة لا يمكن تقدير قيمتها، وقد قضوا الليل في ذلك الموقع بابتهاج كبير. وقد تصرّفوا كالرجال العاقلين المتمرّسين في الحرب، فوضعوا الحراس اللازمين حول المعسكر، وأبقوا حراسة يقظة.

ونادى المنادي في اليوم التالي إلى المعركة، وتقدّم المسيحيون بصفوف مرتبة بتشكيل نظامي، وبقصد واحد نحو العدو، مودعين النتيجة بيد الله. حيث وضعوا في الله كلّ آمالهم بالانتصار، فهو الذي يستطيع أن يهزم بسهولة عدداً كبيراً بعدد قليل.

وجعل موقف المسيحيين القوي والمصمّم المصريين الذين كانوا قد انضموا إليهم من بلاد سورية يرتابون بقوتهم. وتناقصت ثقتهم الآن كثيراً عن ذي قبل بأعدادهم الضخمة، لأنهم اعتقدوا أن سائر الجيش المتقدّم إليهم لم يتألّف إلاّ من الجنود.

كانت أعدادنا في الواقع صغيرة، لكن حدث أن القطعان والمواشي، التي كان قد تمّ الاستيلاء عليها كغنيمة قد سارت طوعاً بمحاذاة جيشنا. وعندما توقف الجنود، توقّفت الحيوانات أيضاً، وعندما تقدّم الجيش ثانية، تبعته المواشي مباشرة، على

---

(١) وليم الصوري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٦٠ - ٤٦١.

(٢) المرجع نفسه.

الرغم من عدم وجود موجه لها. وهكذا، اقتنع العدو أن أعدادنا كانت غير محدودة وقوتنا لا تضاهى فهرب على الرغم من أنه لم يطارده أي مخلوق. ومع ذلك، لم يشعروا إلاّ بقليل من الأمل بالنجاة حتى في الهروب.

واختفى أسقف مطيره Matera، محرّض النزاعات ومبتكر الفتنة، بسبب حادث مجهول في ذلك اليوم، ولم يعرف أحد مصيره. ومع ذلك، فقد أزيح من المسائل البشرية ولم يُر ثانية أبداً. وكان الدوق قد أرسله ليستدعي الزعماء الذين كانوا قد بقوا في القدس، ويقال إن العدو ألقى القبض عليه أثناء عودته وقد قتله أو حكم عليه بالسجن المؤبد.

ثمّ مضى الجيش، بعد أن منحته السماء النصر، إلى معسكر العدو، حيث وجد فيه كميات هائلة من السلع من جميع الأنواع بحيث أصبح الحجاج متخمين إلى حد الاشمئزاز وإلى درجة كرهوا فيها الكعك والعسل. وفي الحقيقة استطاع، الناس الأكثر وضاعة وتفاهة بينهم أن يقولوا: «لقد جعلتني الوفرة بائساً».

منح فرار العدو النصر للمسيحيين دون جهد من جانبهم، وعاد القادة والناس إلى القدس، بشكر قلبي الله، وهم محملون بالأسلاب وجالبين معهم غنائم ضخمة. لقد عادوا مبتهجين وجذلين كالمنتصرين الذين يقتسمون الكنوز التي استولوا عليها».

لم يذكر أي من المؤرّخين المسلمين شيئاً عن قطعان الماشية، وقد كتب ابن خلدون ما يأتي:[1]

«وسار الأفضل إلى الفرنج، فساروا إليهم وكبسوهم على غير أهبة فهزموهم. وافترق عسكر مصر، وقد لاذوا بخمّ الشعراء هناك فاضرموها عليهم ناراً فاحترقوا وقتل من ظهر. ورجع الفرنج إلى عسقلان فحاصروها حتى أنزلوا لهم عشرين ألف دينار فارتحلوا».

ابن الأثير ردّ سبب الهزيمة إلى أن المسلمين لم يكونوا على أهبة للقتال.[2]

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢١.

١٤ - القتال بين السلطان بركيارق وأخيه محمد

في السنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بدأ يظهر على مسرح السياسة الإسلامية السلطان محمد شقيق بركيارق الذي استفحل أمره إلى أن خُطب له ببغداد. ثمّ سار إلى الري حيث القى القبض على زبيدة خاتون أم أخيه بركيارق وأمر بخنقها.(١)

وكان سعد الدولة كوهرائين صاحب الموصل، وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، وسرخاب بن بدر صاحب كنكسوت قد أيدوا السلطان محمد فقوي أمره ولقّب حياة الدين والدنيا وسار مع أمرائه إلى أصبهان.(٢)

وفي السنة التالية سار بركيارق إلى شهرزور حيث التحق به جند كثير من التركمان وغيرهم، فسار نحو أخيه محمد ليحاربه، فوقع قتال بينهما، كتب عنه ابن الأثير:(٣)

«وسار نحو أخيه فوقعت الحرب بينهم رابع رجب وهو المصاف الأول بين بركيارق وأخيه السلطان محمد باسبيذروز ومعناه النهر الأبيض وهو على عدّة فراسخ من همذان. وكان مع محمد نحو عشرين ألف مقاتل، وكان محمد في القلب ومعه الأمير سرمز، وعلى ميمنته أمير آخر وابنه أياز، وعلى ميسرته مزيد الملك والنظامية. وكان السلطان بركيارق في القلب ووزيره الأعز أبو المحاسن، وعلى ميمنته كوهرايين وعز الدولة ابن صدقة بن مزيد وسرخاب بن بدر، وعلى ميسرته كربوقار وغيره. فحمل كوهرايين من ميمنة بركيارق على ميسرة محمد وبها مؤيد الملك والنظامية فانهزموا ودخل عسكر بركيارق في خيامهم فنهبوهم. وحملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارق فانهزمت الميسرة. وانضافت ميمنة محمد إليه في القلب على بركيارق ومن معه، فانهزم بركيارق ووقف محمد مكانه. وعاد كوهرايين

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٦.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٦.

من طلب المنهزمين الذين انهزموا بين يديه وكبا به فرسه فأتاه خراساني فقتله وأخذ رأسه. وتفرّقت عساكر بركيارق وبقي في خمسين فارساً. وأما وزيره الأعز أبو المحاسن فإنه أخذ أسيراً، فأكرمه مؤيد الملك ونصب له خيماً وخركاه وحَمَل إليه الفرش والكسوة وضمّنه عمادة بغداد وأعاده إليها وأمره بالمخاطبة في إعادة الخطبة للسلطان محمد ببغداد. فلما وصل إليها خاطب في ذلك فأجيب إليه وخطب له يوم الجمعة رابع عشر رجب».

التقييم:

- يمكن الملاحظة أنه، في الوقت الذي كان الشرق الإسلامي مهدداً من الصليبيين، كان الأمراء المسلمون، وحتى سلاطين السلاجقة، يخوضون صراعات داخلية فيما بينهم بدلاً من التصدّي للخطر الخارجي.

لذلك فشل السلاجقة في التصدي للحملات الصليبية. فالصراع ضد الصليبيين سيقوم به آل زنكي، وخاصة نور الدين زنكي في بلاد الشام وصلاح الدين الايوبي في مصر.

١٣ - هزيمة بركيارق امام أخيه سنجر

بعد وقعة بركيارق مع أخيه محمد ضعف أمره فقصد الري حيث كاتب الأمير داذ حبشي بن التونتاق لمساعدته، وكان حينذاك أميراً على خراسان وطبرستان وجرجان.[١]

وفي هذه الأثناء قصد الأمير سنجر شقيق بركيارق بلاد الأمير داذ حبشي بجيش من بلخ لقتاله، فطلب الأخير مساعدة بركيارق الذي سار إليه في ألف فارس ولم يعلم أحد بقدومه إلاّ الأمراء الكبار من جيش سنجر.[٢]

وكان جيش الأمير داذ يعدّ عشرين ألف فارس، فيهم من رجال الباطنية خمسة آلاف.[٣]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٣.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٧.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٣.

وقعت المعركة بين الجيشين خارج النوشجان، وكان سنجر قد حشد جيشه كالآتي:[1]

- الميمنة بقيادة الأمير بزغش.
- الميسرة بقيادة الأمير كندكز.[2]
- القلب بقيادة الأمير رستم.

بدأت المعركة بهجوم بركيارق على قلب جيش سنجر، حيث طعن الأمير رستم وقتله وانهزم أصحابه. بعد ذلك انصرف جند بركيارق إلى النهب، فحملت عليهم ميمنة وميسرة سنجر في هجوم كاسح، فانهزم جند بركيارق إلى مضيق بين جبلين. أرسل عليهم سنجر الماء فوقعت الهزيمة على جيش الأمير داذ وبركيارق.

هرب بركيارق في شرذمة قليلة وأُسر الأمير داذ فقتله القائد بزغش. كتب ابن الأثير عن مصير بركيارق بعد هذه المعركة:[3]

«سار بركيارق إلى جرجان ثمّ إلى دامغان. وسار في البرية ورُؤي في بعض المواضع ومعه سبعة عشر فارساً، ثمّ كثر جمعه وصار معه ثلاثة آلاف فارس...».

التقييم:

أ - مرحلة استغلال النصر:

في بداية المعركة، تمكّن بركيارق من هزيمة قلب جيش سنجر. لكن جنده انصرفوا إلى النهب بدل متابعة القتال، الأمر الذي سمح لسنجر بشن هجوم معاكس عنيف والانتصار عليهم.

لقد سبق وأكّدنا أن المعركة الناجحة ينبغي أن تليها مرحلة مهمّة من مراحل القتال يطلق عليها العسكريون اسم «استغلال النجاح أو النصر». تقوم خلال هذه المرحلة وحدات متحرّكة بملاحقة فلول العدو المنهزمة للقضاء عليها وعدم السماح لها بإعادة التنظيم والعودة للقتال.

هذا ما لم يحصل مع بركيارق.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٠.

(٢) في ابن خلدون: كوكر.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٨.

ب - المحافظة على حرية العمل:

ب - أحسن سنجر إدارة معركته. فعندما لجأ خصمه إلى مضيق بين جبلين يصعب الوصول إليه عبره، أرسل عليه الماء فأجبره على الخروج من المضيق وهزمه.

وهكذا حافظ سنجر خلال المعركة على حرية عمله وفرض إرادته على خصمه فانتصر عليه.

١٤ - فتح تميم بن المعزّ ابن باديس مدينة سفاقس

كان صاحب مدينة سفاقس حمو قد اشتدّ أمره بوزيره الذي كان حسن الرأي والتدبير. رغب تميم بن المعز بن باديس باستقدام الوزير إليه لإصلاح دولته، فرفض حمو توجيهه إليه.

سيّر تميم جيشاً كبيراً لحصار سفاقس وقام بخدعة أدت إلى مقتل الوزير على يد حمو صاحب سفاقس. وتفاصيل ذلك أن تميماً أمر قائد الجيش الذي سيّره إلى سفاقس بأن يهدم ما حول المدينة ويحرقه ويقطع الأشجار باستثناء أملاك الوزير التي لا يتعرّض لها بضرر، ففعل القائد ذلك.

كتب ابن الأثير عن نتيجة الخدعة:[١]

«فلما رأى حمو ما فعل بأملاك الناس ما عدا الوزير، اتهمه فقتله فانحلّ نظام دولته وتسلّم عسكر تميم المدينة وخرج حمو منها».

التقييم: دور الخدعة في الحرب:

- ان الخدعة التي نفذها جند تميم هي خدعة تقليدية تمارس عادة حتى في أيامنا هذه، وفي عالم الاستخبارات خاصة، وذلك بقصد الإيقاع بعميل خارج عن الطاعة أو بمخبر معادٍ.

أما سرعة انهيار مملكة حمو صاحب سفاقس بعد مقتل الوزير فأمرٌ لم يذكره سوى ابن الأثير ولم نستطع مقاطعته بمرجع آخر.

١٥ - هزيمة الفرنجة وأسر أمير انطاكية بوهيمند

في ذي القعدة من السنة ثلاثة وتسعين وأربعمائة أسر أتابك دمشق ستكين بن

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٨.

أنشمند[١] أمير انطاكية الصليبي بوهيمند بعد ان هزم جيشه وقتل منه خلقاً كثيراً.

كتب ابن كثير عن الموضوع:[٢]

«أقبل ملك الفرنجة في ثلاثمائة ألف مقاتل فالتقى معه ستكين بن أنشمند طايلو، أتابك دمشق... فهزم الافرنج وقتل منهم خلقاً كثيراً، بحيث لم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف وأكثرهم جرحى... ولحقهم إلى ملطية فملكها وأسر ملكها».

ابن الأثير من جهته، عالج موضوع هذا القتال، فذكر أن «عدد جيش بوهيمند كان خمسة آلاف، فلقيهم ابن الدانشمند فانهزم بوهيمند وأسر. ثمّ وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج وأرادوا تخليصه، فأتوا إلى قلعة تسمى «انكوويه» فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين. وساروا إلى قلعة أخرى فيها اسماعيل بن الدنشمند وحصروها، فجمع ابن الدانشمند جمعاً كثيراً ولقي الفرنجة وجعل له كميناً وقاتلهم. وخرّج الكمين عليهم فلم يفلت أحد من الفرنج، وكانوا في ثلاثمائة ألف غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين. وسار ابن الدانشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها. ثمّ خرج إليه عسكر الفرنج من انطاكية، فلقيهم وكسرهم».[٣]

أما رواية وليم الصوري فقد اختلفت عن روايتي المؤرّخين العرب، فكتب:[٤]

«حدث أثناء مجريات هذه الأحداث في مملكة القدس أن كان أرمني اسمه جبرائيل يحكم مدينة ملطية الواقعة ببلاد الجزيرة وراء نهر الفرات. وقد أرسل هذا الرجل، الخائف من غزو الفرس[٥] الذين عرف انه

(١) في ابن الأثير: الدانشمند.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٣.

(٣) أطلق الدانشمند أسيره بوهيمند السنة ٤٩٥هـ بعد أن أخذ منه مائة ألف دينار وشرط عليه إطلاق ابنة باغيسيان صاحب انطاكية التي كانت في أسره.
المستند: ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٩ وص ٥٦.

(٤) وليم الصوري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٧٣ - ٤٧٤.

(٥) كان هؤلاء «الفرس» تحت حكم انوشتكين بن الدانشمند وهو من أصل تركي، حكم دولة شبه مستقلّة من عاصمته سيواس. وبقيت أسرة الدانشمند الحاكمة هامة خلال معظم القرن الثاني عشر.

لن يتمكّن من مقاومة عنفهم، رسلاً إلى بوهيموند أمير انطاكية، يرجونه الحضور على الفور ليستولي فوراً على مدينة ملطية وفق شروط محدّدة. وأسرع بوهيموند الشجاع بالرد على الدعوة فور تلقيه الرسالة، وعبر نهر الفرات بمصاحبة حاشيته المألوفة ودخل بلاد الجزيرة. وقبيل وصوله إلى غايته هاجمه على حين غرة حاكم تركي قوي يسمى الدانشموند. وكان هذا القائد قد تلقى معلومات مسبقة عن بوهيموند وصحبه، وباغتهم فجأة وانقضّ عليهم بهجوم صاعق، فقتل بعضهم وهرب الباقون الذين لم يتمكّنوا من الصمود في وجه حشد كهذا. وأسر العدو النبيل بوهيموند، بسبب آثامه، وقيدوه بالسلاسل. وحيث أبهج هذا النجاح الحاكم، واستغلالاً منه للأعداد الضخمة من الجيش الذي كان يقوده، فقد ضرب الحصار على مدينة ملطية، وأمل أن يستولي فوراً عليها. إلا أن الهاربين، الذين كانوا قد نجوا، نجحوا في بلوغ الرها حيث قدموا للكونت وصفاً كاملاً للحظ العاثر الذي أحاق بالأمير وبهم.

عندما سمع الحاكم الشجاع قصتهم، تعاطف مع الأمير كما يتعاطف مع أخيه. وحرّكته الفاجعة الكبيرة المشحونة بالنتائج الخطرة، فاستدعى على الفور احتياطاته العسكرية، وأخذ المعدات اللازمة للزحف وانطلق بكلّ سرعة.

يقال إن ملطية تبعد مسافة مسيرة ثلاثة أيام عن الرها، وقد قطع الكونت هذه المسافة بسرعة كبيرة. وكان على مشارف المدينة عندما سمع الدانشموند باقترابه فرفع الحصار، وانسحب مع أسيره بوهيموند الذي كان مقيداً بالسلاسل إلى الجزء الأبعد من المملكة لتجنّب المعركة.

ولدى معرفة الكونت أن الدانشموند كان قد تخلى عن الحصار حيث أرعبه قدومه طارده لمسافة ثلاثة أيام. غير أنه أدرك في النهاية أنه لا يمكن تحقيق أي شيء بهذه الطريقة، فعاد إلى ملطية حيث رحب به جبرائيل ترحيباً كبيراً وعامله بإجلال كبير. ثمّ سلّم المدينة إليه وفق الشروط ذاتها التي كان قد عرضها على بوهيموند. وعاد الكونت إلى بلاده بعدما تمّ إنجاز هذا كلّه».

أ - التقييم:

من قراءة نصوص الروايات الثلاث المذكورة تمكننا ملاحظة الاختلاف فيها، وذلك كما يلي:

أ - كتب ابن كثير أن الفرنجة كانوا في بداية المعركة ثلاثمائة ألف لم ينجُ منهم سوى ثلاثة آلاف من الجرحى، وأنّ أتابك دمشق سار إلى ملطية فملكها وأسر ملكها.

ب - ذكر ابن الأثير ان عدد جيش بوهيمند كان خمسة آلاف مقاتل، وأن عدد جيش الفرنجة الذي قدم لنجدته ثلاثمائة ألف مقاتل قتلوا جميعهم باستثناء ثلاثة آلاف من الجرحى. كما كتب أن ابن الدانشمند سار إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها.

ج - وليم الصوري نقل ان بوهيمند عبر الفرات مع حاشيته المألوفة فقط، وأن الدانشموند هاجمه على حين غرّة في جمع كبير من الجند فقتل بعض أصحاب بوهيمند الذي أسر، فيما هرب قسم من مرافقيه.

لم يذكر وليم عدد القوات التي رافقت الكونت عندما سار بسرعة لمؤازرة بوهيمند.

د - فيما أكد المؤرّخون المسلمون أنّ ابن الدانشمند استولى على ملطية، يذكر وليم الصوري أنّ الفرنجة هم الذين دخلوها بترحيب كبير من صاحبها الأرمني جبرائيل.

ملاحظة:

- سنكتفي بهذا القدر من معارك الصليبيين في هذا الجزء من الموسوعة نظراً لتخصيص جزء كامل لهذا الموضوع تحت عنوان «الصراع ضد الصليبيين».

لكننا سنعالج بعض المعارك التي نرى ضرورة لمعالجتها لفهم النصوص التي ستتبع في هذا الجزء.

١٦ - القتال الثاني بين بركيارق وأخيه محمد

بعد أن هُزم السلطان بركيارق أمام أخيه محمد، سار إلى خوزستان حيث وافاه الأميران زنكي وألبكي ابنا برسق والتحقا به. ثم سار إلى همذان حيث التحق به الأمير أياز على رأس خمسة آلاف فارس واستأمن

إليه الأمير سرخاب بن كيخسر وصاحب آوة فأصبح لدى بركيارق جيش من خمسين ألف مقاتل.[1]

أما عدد جيش محمد فكان خمسة عشر ألفاً.

التقى الجيشان في ثالث جمادى الآخرة السنة أربع وتسعين وأربعمائة واشتبكا في معركة كتب عنها ابن الأثير:[2]

«ووقع المصاف ثالث جمادى الآخرة وكان مع السلطان بركيارق خمسون ألفاً ومع أخيه السلطان محمد خمسة عشر ألفاً. فالتقوا فاقتتلوا يومهم أجمع، وكان النفر بعد النفر يستأمنون من عسكر محمد إلى بركيارق فيحسن إليهم. ومن العجب الدال على الظفر أن رجّالة بركيارق احتاجوا إلى تراس فوصل إليه يوم المصاف بكرة اثنا عشر حملاً سلاحاً من همذان، منها ثمانية أحمال تراس ففرقت فيهم. فلّما وصلت نزل السلطان بركيارق وصلى ركعتين شكراً لله تعالى. ولم يزل القتال بينهم إلى أخر النهار فانهزم السلطان محمد وعسكره، وأسر مؤيد الملك، أسره غلام لمجد الملك البلاساني وأحضر عند السلطان بركيارق».

قتل بركيارق مؤيد الملك ثمّ سار إلى الري حيث لحقه قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل ونور الدولة دبيس بن صدقة بن مزيد واجتمع إليه نحو مائة ألف فارس.

أما محمد، فلما انهزم سار إلى شقيقه سنجر في جرجان، وسار الاثنان منها إلى دامغان فخربها الجند الخراساني ففرّ أهلها إلى قلعة كردكوه.[3]

في هذه الأثناء فقدت الاقوات لدى بركيارق ففرّق جيشه وبقي في عدد قليل من الجند. ولّما عرف أخواه بتفرّق جنده سارا نحوه لمقاتلته، فهرب منهما إلى حلوان حيث لحق به الأمير إياز، وسارا إلى بغداد في خمسة آلاف فارس. كتب ابن خلدون واصفاً وضع بركيارق خلال هذه المرحلة:[4]

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٠٣.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣١.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٥.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٩ ، ص ٥٢ - ٥٣.

«وسار بركيارق واياز إلى بغداد فدخلها منتصف ذي القعدة من سنة أربع وتسعين، وطلب من الخليفة المال للنفقة فبعث إليه بعد المراجعة بخمسين ألف دينار. وعاث أصحاب بركيارق في أموال الناس وضجروا منه. ووفد عليه أبو محمد عبدالله بن منصور المعروف بابن المصلحيّة قاضي جَبلَة من سواحل الشام منهزماً من الافرنج بأموال جليلة المقدار فأخذها بركيارق منه. ثمّ بعث وزير بركيارق الأغرّ بالمحاسن إلى صدَقة بن مزيد صاحب الحِلّة في ألف ألف دينار، يزعم أنها تخلّفت عنده من ضمان البلاد، وتهدّده عليها فخرج عن طاعة بركيارق، وخطب لمحمد أخيه».

وذكر ابن الأثير أن «بركيارق أرسل إلى الخليفة يشكو الضائقة وقلّة المال ويطلب أن يعان بما يخرجه، فتقرر الأمر بعد المراجعات على خمسين ألف دينار حملها الخليفة إليه. ومدّ بركيارق وأصحابه أيديهم إلى أموال الناس فعم ضررهم وتمنى أهل البلاد زوالهم عنهم».(١)

أما الأمير محمد فقد سار إلى بغداد في عشرة آلاف فارس سوى الاتباع، فنزل في جوار المملكة فخاف أصحاب بركيارق واضطربوا وانتقلوا به، وكان مريضاً جداً، إلى الرملة، في الجانب الغربي من بغداد.(٢)

ثمّ أرسل الخليفة المستظهر بالله مرحّباً بالأمير محمد ومظهراً امتعاضه من سوء سيرة بركيارق.(٣)

ملاحظة:

- كما سبق القول كثرت الخلافات الداخلية في الجانب السلجوقي رغم تهديد الفرنجة المتواصل للشرق الإسلامي. هذه الخلافات كانت من أهم أسباب زوال السيطرة السلجوقية والتمهيد لسيطرة دولة أتابك آل زنكي.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٣.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٥.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٠٦.

١٧ - الحرب ضد الاسماعيليين الباطنية

في السنة الرابعة والتسعين وأربعمائة أمر السلطان بركيارق بقتل الاسماعيليين الباطنية حيثما وجدوا، فقتل منهم خلق كثير وأُبيحت ديارهم وأموالهم للعامة، ونودي فيهم ان كلّ من قدرتم عليه منهم فاقتلوه وخذوا ماله.(١)

ذكر ابن الأثير أسباب هذا القرار الذي اتخذه بركيارق، فكتب:(٢)

«لما اشتدّ أمر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم صار بينهم وبين أعدائهم ذحول وإحن.(٣) فلما قتلوا جماعة من الأمراء الأكابر، وكان أكثر من قتلوا من هو في طاعة محمد مخالف للسلطان بركيارق مثل شحنة أصبهان سرمز ورغش وكمش النظاميين وصهره وغيرهم، نسب أعداء بركيارق ذلك إليه واتهموه بالميل إليهم. فلما ظفر السلطان بركيارق وهزم أخاه السلطان محمداً وقتل مؤيّد الملك وزيره، انبسط جماعة منهم في العسكر واستغووا كثيراً منهم وأدخلوهم في مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة. وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل. فصار يخافهم من يخالفهم حتى أنهم لم يتجاسر أحد منهم لا أمير ولا متقدّم على الخروج من منزله حاسراً بل يلبس تحت ثيابه درعاً حتى أن الوزير الأعز أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه. واستأذن السلطان بركيارق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم وعرّفوه خوفهم ممن يقاتلهم، فأذن لهم في ذلك، وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم. وأعلموه ما يتهمه الناس به من الميل إلى مذهبهم حتى أن عسكر أخيه السلطان محمد يشنّعون بذلك، وكانوا في المصاف يكبرون عليهم ويقولون: يا باطنية. فاجتمعت هذه البواعث كلها، فأذن

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤١ - ٤٢.

(٣) إحن: حقد.

السلطان في قتلهم والفتك بهم وركب هو والعسكر معه وطلبوهم وأخذوا جماعة من خيامهم ولم يفلت منهم إلاّ من لم يُعرف».(١)

١٨ - حملة الأمير بزغش على الباطنية

في السنة أربع وتسعين وأربعمائة جمع الأمير بزغش، كبير أمراء السلطان سنجر،

(١) الباطنية هم الاسماعيليون الحشاشون. نقل ابن الأثير انهم كانوا يدعون قرامطة وان أول ما عرف من أحوالهم كان في أيام السلطان ملكشاه، عندما اجتمع منهم ١٢ رجلاً في ساوة دعوا مؤذناً كان مقيماً في أصبهان فلم يُجبهم إلى دعوتهم فقتلوه، وكان أول قتيل لهم.
ابن خلدون ذكر ان دعوتهم بدأت في البحرين، ثمّ ظهروا في المشرق أيام السلطان ملكشاه، وأنهم سموا قرامطة نسبة إلى قرمط منشىء دعوتهم، وباطنية كونهم يبطنون دعوتهم، واسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وملاحدة لان بدعتهم كلها إلحاد، وفداوية لأنهم يفادون بانفسهم.
وقتل الباطنية الوزير نظام الملك. وكان أول فتكة مهمة لهم.
وأبرز شيوخهم الحسن بن الصباح، وكان قد دخل مصر وتعلّم من الزنادقة بها، قبل ان ينتقل إلى أصبهان حيث كانت قوتهم الأساسية وحيث كانوا يقتلون من يخالفهم.
واستولى الباطنية على قلاع عديدة أشهرها قلعة ألموت التي كانت أول قلعة يستولي عليها الحسن بن الصباح والتي حاصرها نظام الملك حصاراً شديداً، فأرسل الحسن من قتل نظام الملك، فرجع العسكر عن القلعة.
ومن قلاعهم أيضاً قلعة أصبهان التي بناها ملكشاه، وقلاع طبس وقهستان وخورخوسف وزوزن وقاين وتون ووسنمكوه وخالنجان واستوناوند وأردهن وكردكوه والناظر والطنبور وخلادخان وغيرها من القلاع الحصينة التي كان لكلّ منها قصة وتاريخ.
وستأتي أخبار معاركهم تباعاً في هذا الجزء من الموسوعة.
ونورد هنا أحد أخبارهم. فقد كتب ابن كثير، في الجزء ١٢، ص ١٧٤ - ١٧٥، هذه الرواية عن تهديد ملكشاه لشيخ الجبل:
«قد بعث إليه السلطان ملكشاه يتوعده وينهاه عن ذلك، وبعث إليه بفتاوى العلماء. فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول قال لمن حوله من الشباب: إني أريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاه، فاشرأبّت وجوه الحاضرين. ثمّ قال لشاب منهم: أقتل نفسك، فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتاً. وقال لآخر منهم: ألق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطّع. ثمّ قال لرسول السلطان: هذا الجواب. فمنها امتنع السلطان من مراسلته».

جيشاً كبيراً ودعمه بالمال والسلاح، وسار إلى بلاد الاسماعيلية فهاجمهم ونهب مناطقهم وخرّبها وقتل منهم خلقاً كثيراً. ثمّ حاصر قلعة طبس وضيّق عليها، مستعملاً آلات الحصار، وخاصة المنجنيق الذي رمى الأسوار بصخوره فخرّب قسماً منها. فلما أوشك بزغش على احتلال القلعة أرسل إليه من بها الكثير من الرشاوى، واستنزلوه عما كان يريده منهم، فرحل عنهم وتركهم.[1]

عاد الاسماعيليون وعمّروا ما هدم من أسوار القلعة وشحنوها سلاحاً وذخائر وأقواتٍ وغير ذلك.

١٩ - معارك الفرنجة في بلاد الشام

عدّد ابن الأثير المناطق والمدن والقلاع التي احتلها الفرنجة السنة أربع وتسعين وأربعمائة في بلاد الشام، فكتب:[2]

«فيها سار كندفري[3] ملك الفرنج بالشام وهو صاحب البيت المقدس إلى مدينة عكا بساحل الشام، فحصرها فأصابه سهم فقتله. وكان قد عمّر مدينة يافا وسلّمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكري، فلما قتل كندفري سار أخوه بغدوين[4] إلى البيت المقدس في خمسمائة فارس وراجل فبلغ الملك دقاق صاحب دمشق خبره فنهض إليه في عسكره ومعه الأمير جناح الدولة في جموعه فقاتله فنصر على الفرنج. وفيها ملك الفرنج مدينة سروج من بلاد الجزيرة. وسبب ذلك أن الفرنج كانوا قد ملكوا مدينة الرها بمكاتبة من أهلها لأن أكثرهم أرمن، وليس بها من المسلمين إلاّ القليل. فلما كان الآن جمع سقمان بسروج جمعاً كثيراً من التركمان وزحف إليهم فلقوه وقاتلوه فهزموه في ربيع الأول. فلما تمّت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سروج فحصروها وتسلّموها وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٣.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) غودفروي.

(٤) بلدوين.

ولم يسلم إلاّ من مضى منهزماً. وفيها ملك الفرنج مدينة حيفا وهي بالقرب من عكة على ساحل البحر، ملكوها عنوة وملكوا أرسوف بالأمان وأخرجوا أهلها منها. وفيها في رجب ملكوا مدينة قيسارية بالسيف وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها».

٢٠ – القتال الثالث بين بركيارق وأخيه محمد

كان الأمير محمد قد دخل بغداد السنة أربع وتسعين وأربعمائة، ورحل بركيارق عنها إلى واسط مريضاً، فأقام محمد ببغداد حتى السابع عشر من المحرم من السنة خمس وتسعين واربعمائة للهجرة. ثمّ سار عنها فاتجه إلى همذان، فيما سار شقيقه سنجر إلى خراسان.[١]

وهكذا وصلت الأخبار إلى الخليفة عن أن بركيارق قصد بغداد وأنه سُمع منه في حق الخليفة ما يقبّح أفعاله. عندها استدعى الخليفة الأمير محمداً مجدداً وعزم على التحرّك بنفسه لقتال بركيارق. لكن الأمير قال له: «لا حاجة إلى حركة أمير المؤمنين، فاني أقوم بنفسي بقتال بركيارق».[٢]

سار بركيارق إلى واسط فأرسل جندها يطلبون الأمان منه ليحضروا لخدمته فأمّنهم، فحضر أكثرهم إليه وخدموه، واجتمعت العساكر عليه. ولما بلغه مسير أخيه محمد من بغداد سار وراءه إلى نهاوند فأدركه في روذراور.[٣]

وعندما التقى الجيشان كان عديدهما متساوياً، أي عشرة آلاف مقاتل لكلّ منهما وفق ابن خلدون،[٤] وأربعة آلاف فارس لكلّ منهما وفق ابن الأثير.[٥] جرى قتال

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٧.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٦.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٧.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٠٧.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جرء ٩، ص ٤٧.

سريع بينهما نقل خبره ابن الأثير الذي كتب:[١]

«فتصافوا أوّل يوم جميع النهار، ولم يجر بينهم قتال لشدّة البرد وعادوا في اليوم الثاني، ثمّ تواقفوا كذلك. ثمّ كان الرجل يخرج من أحد الصفين فيخرج إليه من يقاتله، فإذا تقاربا اعتنق كلّ واحد منهما صاحبه وسلم عليه ويعود عنه. ثمّ خرج الأمير يلدجي وغيره من عسكر محمد إلى الأمير أياز والوزير فاجتمعوا واتفقوا على الصلح لما قد عمّ الناس من الضرر والملل والوهن. فاستقرّت القاعدة أن يكون بركيارق السلطان ومحمد الملك ويضرب له ثلاث نوب، ويكون له من البلاد جنزة وأعمالها وأذربيجان وديار والجزيرة والموصل، وأن يمدّه السلطان بركيارق بالعساكر حتى يفتح ما يمتنع عليه منها. وحلف كلّ واحد منهما لصاحبه».

١٢ - حصار بركيارق أصبهان

ثمّ جرى قتال بين بركيارق ومحمد قرب الري، وكلّ منهما في عشرة آلاف فارس. فلما اصطف الجيشان حمل سرخاب بن كيخسرو الديلمي صاحب آوة من جند بركيارق على الأمير ينال بن انوشتكين، فجرى قتال عنيف هزم فيه هذا الأخير. وتبعه في الهزيمة كلّ جند محمد الذين تفرّقوا، واتجه معظمهم نحو طبرستان وبعضهم إلى قزوين. ونهبت خزائن محمد فمضى في عدد قليل من جنده إلى اصبهان.[٢] أما بركيارق، فقد تتبع أصحاب أخيه محمد وأخذ أموالهم.[٣]

لاحق بركيارق أخاه محمداً إلى أصبهان التي حاصرها وضيّق عليه من دون أن يتمكّن من فتحها.[٤] كتب ابن خلدون عن حصار اصبهان ما يلي:[٥]

(١) المرجع نفسه، ص ٤٧ - ٤٨.
(٢) قيل في سبعين فارساً.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٨.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٨.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٨.

«وجاء بركيارق في جمادى ومعه خمسة عشر ألف فارس ومائة ألف من الرجل والأتباع فحاصرها حتى جهدهم الحصار، وعُدمت الأقوات والعلوفة. فخرج محمد عن البلد في عيد الأضحى من سنته في مائة وخمسين فارساً، ومعه ينال، ونزل في الأمراء، وبعث بركيارق في أتباعه الأمير اياز. وكانت خيل محمد ضامرة من الجوع، فالتفت إلى اياز يذكّره العهود فرجع عنه بعد ان نهب منه خيلاً ومالاً، وأخذ علمه وجنده إلى بركيارق. ثمّ شدّ بركيارق في حصار أصبهان وزحف بالسلاليم والذبابات، وجمع الأيدي على الخندق فطمّه، وتعلّق الناس بالسور فاستمات أهل البلد ودفعوهم. وعلم بركيارق امتناعها فرحل عنها ثامن عشر ذي الحجة».

أما التفاصيل عن حصار أصبهان، فقد جاء بها ابن الأثير الذي كتب عن الموضوع نفسه:(١)

«لما انهزم السلطان محمد من الوقعة التي ذكرناها بالري مضى إلى أصبهان في سبعين فارساً والبلد في حكمه وفيه نائبه ومعه من الأمراء الأمير ينال وغيره من الأمراء. ودخل المدينة في ربيع الأول وأمر بتجديد ما تشعث من السور، وهذا السور هو الذي بناه علاء الدولة بن كاكويه سنة تسع وعشرين وأربعمائة عند خوفه من طغرلبك. وأمر محمد بتعميق الخندق حتى صعد الماء فيه. وسلم إلى كلّ أمير باباً، وكان معه في البلد ألف ومائة فارس وخمسمائة راجل. ونصب المجانيق.

ولما علم السلطان بركيارق بمسير أخيه محمد إلى أصبهان سار يتبعه فوصلها في جمادى الأولى، وعساكره كثيرة تزيد على خمسة عشر ألف فارس، ومعها مائة ألف من الحواشي، وأقام يحاصر البلد وضيّق عليه. وكان السلطان محمد يدور كلّ ليلة على سور البلد ثلاث دفعات، فلما زاد الأمر في الحصار أخرج الضعفاء والفقراء من البلد حتى خلت المحال وعدمت الأقوات وأكل الناس الخيل والجمال وغير ذلك. وقلّت الأموال فاضطر السلطان محمد إلى أن يستقرض من أعيان البلد فأخذ مالاً عظيماً.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٩ - ٥٠.

ثمّ عاود الجند الطلب فقسط على أهل البلد شيئاً آخر وأخذه منهم بالشدة والعنف. فلم تزل الأسعار تغلو حتى بلغ عشرة أمنان من الحنطة بدينار وأربعة أرطال لحماً بدينار، وكلّ مائة رطل تبناً بأربعة دنانير، ورخصت الأمتعة وهانت لعدم الطالب، وكانت الأسعار في عسكر بركيارق رخيصة. فبقي الحصار على البلد إلى عاشر ذي الحجة. فلما رأى السلطان محمد أنه لا قدرة له علىٰ الدفع عن البلد وكلّما جاء أمره يضعف، قوي عزمه على مفارقته وقصد جهة أخرى يجمع فيها العساكر ويعود بدفع الخصم عن الحصار. فسار عن البلد في مائة وخمسين فارساً ومعه الأمير ينال واستخلف بالبلد جماعة من الأمراء الكبار في باقي العسكر. فلما فارق العسكر والبلد لم يكن في دوابهم ما يدوم على السير لقلة العلف في الحصار فنزل على ستة فراسخ. فلما سمع بركيارق بمسيره سيّر وراءه الأمير أياز في عسكر كثير، وأمره بالجدّ في السير في طلبه، فقيل: إن محمداً سبقهم فلم يدركوه فرجعوا. وقيل: بل أدركوه، فأرسل إلى الأمير أياز يقول: أنت تعلم أن لي في رقبتك عهوداً وأيماناً ما نقضت ولم يكن مني إليك ما تبالغ في أذاي. فعاد عنه وأرسل له خيلاً وأخذ علمه والجنز وثلاثة أحمال دنانير وعاد إلى بركيارق، فدخل عليه وأعلام أخيه السلطان محمد منكوسة. فأنكر بركيارق ذلك وقال: إن قد أساء فلا ينبغي أن يعمل معه هذا فأخبره الخبر. فاستحسن ذلك منه. فلما فارق محمد أصبهان اجتمع من المفسدين والسوادية ومن يرد النهب ما يزيد على مائة ألف نفس، وزحفوا إلى البلد بالسلاليم والدبابات وطموا الخندق بالتبن والتصقوا بالسور وصعد الناس في السلاليم فقاتلهم أهل البلد قتال مَن يريد يحمي حريمه وماله، فعادوا خائبين. فحينئذ أشار الأمراء على بركيارق بالرحيل فرحل ثامن عشر ذي الحجة من السنة واستخلف على البلد القديم الذي يقال له شهرستان ترشك الصوابي في ألف فارس مع ابنه ملكشاه. وسار إلى همذان وكان هذا من أعجب ما سطر إن سلطاناً محصوراً قد تقطعت مواده وهو يخطب له في أكثر البلاد، ثم يخلص من الحصر الشديد وينجو من العساكر الكثيرة التي كلّها قد شرع إليه رمحه وفوق إليه سهمه».

التقييم:

- شغل القتال بين السلطان بركيارق وأخيه محمد الساحة العسكرية الإسلامية خلال هذه المرحلة من التاريخ. وكانت الحرب سجالاً فلم يتمكّن أي من السلطانين من حسمها لصالحه.

وما حيّر المراقبين أن السلطان بركيارق، الذي كان يخطب له في أكثر البلاد، رحل خاسراً عن مدينة أصبهان من دون التمكن من فتحها، رغم محاصرتها في جيش بلغ خمسة عشر ألف فارس ومائة ألف من الأتباع، ورغم نصب السلالم والمنجنيقات حول سورها، ورغم طمر الخندق المحيط بالمدينة بالتبن والتصاق المهاجمين بالسور وصعودهم السلالم.

٢٢ - معارك الملك سنجر في خراسان

كان الملك سنجر قد اختلف مع أخيه السلطان بركيارق وخاض صراعاً عسكرياً معه إلى جانب شقيقه الملك محمد. وكان سنجر قد سار إلى نيسابور حيث خطب لأخيه محمد بخراسان جميعها.

ولما مرض سنجر طمع صاحب سمرقند، وإسمه قدرخان جبريل بن عمر، بخراسان وجمع جيشاً كبيراً قيل أنه بلغ مائة ألف مقاتل من المسلمين وغير المسلمين وقصد بلاد سنجر، بعد أن أغراه أحد أمراء هذا الأخير واسمه «كندغدي» بسبب حسده للأمير بزغش على منزلته من سنجر.[١]

ولما تعافى سنجر من مرضه سار لقتال قدرخان إلى بلخ، بعد أن جمع جيشاً كبيراً. فلما تدانى العسكران أرسل سنجر يذكّر قدرخان بالعهود والمواثيق القديمة بينهما. لكن هذا الأخير لم يصغ إليه، فجرى بين الجيشين قتال عنيف هزم في نهايته جيش قدرخان الذي أُسر وأُحضر أمام الملك سنجر فاعتذر منه وقبّل الأرض بين يديه. فقال له سنجر: «ما جزاؤك إلا السيف»، ثمّ أمر فقتل.[٢]

وبعد قتل قدرخان أحضر السلطان سنجر محمد خان، أحد أحفاد السلطان ملكشاه،

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٧ - ٥٨.

(٢) المرجع نفسه.

وولاه سمرقند وسيّر معه العساكر الكثيرة إلى تلك البلاد فكثرت جموعه. لكن أحد أمراء سمرقند، ويدعى ساغوبك، عارضه وزاحمه في الملك، فجرت وقائع عديدة بينهما استنجد خلالها محمد خان بالملك سنجر الذي أنجده بجيش كبير تمكن بمساعدته من تثبيت حكمه.[١]

٢٣ – القتال على الري

كانت الخطبة بالري للسلطان بركيارق، فلمّا خرج الملك محمد من أصبهان كما ذُكر سابقاً، استأذنه القائد ينال بن أنوشتكين الحسامي في التوجّه إلى الري لإقامة الخطبة له فيها. أذن له محمد، فسار ينال وأخوه علي إليها، حيث أطاعه نواب بركيارق، فخطب لمحمد بعد أن استولى على المدينة وعسف أهلها وصادر أموالهم.[٢]

لما بلغ خبر استيلاء ينال على الري إلى السلطان بركيارق قرّر استعادتها، فأرسل جيشاً في ربيع الأول السنة ست وتسعين وأربعمائة بقيادة الأمير برسق. ولما بلغ جيش السلطان بركيارق الري لاقاه ينال بجيشه على مشارفها فجرى قتال عنيف هزم في نهايته ينال وأخوه علي الذي عاد إلى ولايته في قزوين. أما ينال فقد سلك بجيشه الجبال، فقتل من أصحابه عدد كبير وتشتت الباقون، فوصل بغداد في سبعمائة مقاتل حيث أكرمه الخليفة.[٣]

٢٤ – التهديد بالقوة قصد عدم استعمالها

أمعن ينال في ظلم الناس في بغداد وصادر أموالهم واستطال أصحابه على العامة، الأمر الذي دفع الخليفة إلى تكليف القائد سيف الدولة صدقة بكف عدوانه.

(١) المرجع نفسه.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠١١.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٦١.

وأعطى هذا التكليف نتيجته فانتقل ينال إلى أوانا حيث نهب وقطع الطريق وعسف بالناس. فعاد الخليفة وأرسل ألف فارس مع جماعة من أصحابه، فانتقل ينال إلى أذربيجان.(١)

طبّق الخليفة بنجاح استراتيجية التهديد بالقوّة بقصد إخافة المعتدي ومنعه من الاستمرار في اعتداءاته. وهذه الاستراتيجية ما زالت معتمدة حالياً في معالجة الثورات الداخلية والتحرّكات المطلبية، ويدعوها قادة الأجهزة المكلفة بالمعالجة: «استراتيجية إظهار القوّة كي لا نضطر إلى استعمالها». ففي المعالجات الداخلية تعمل القيادة العسكرية على الوصول إلى الأهداف والغايات من دون إيقاع خسائر، وذلك بعكس الحروب الخارجية ضد أعداء الوطن، حين يحاول القائد إيقاع أكبر قدر من الخسائر الممكنة بالوحدات العسكرية المعادية.

أجاد ابن الأثير في وصف الأحداث المذكورة، فكتب:(٢)

«قد ذكرنا وصول ينال بن أنوشتكين إلى بغداد قبل. فلما استقرّ ببغداد ظلم الناس بالبلاد جميعاً وصادرهم واستطال أصحابه على العامة بالضرب والقتل والتقسيط وصادر العمال، فأرسل إليه الخليفة قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني ينهاه عن ذلك ويقبّح عنده ما يرتكبه من الظلم والعدوان. وتردد أيضاً إلى أيلغازي، وكان ينال قد تزوّج هذه الأيام بأخته، وهي التي كانت زوجة تاج الدولة تتش، حتى توسط الأمر معه، فمضوا إليه وحلفوه على الطاعة وترك ظلم الرعية وكفّ أصحابه ومنعهم فحلف. ولم يفِ باليمين ونكث ودام على الظلم وسوء السيرة، فأرسل الخليفة إلى سيف الدولة صدقة وعرّفه ما يفعله ينال من نهب الأموال وسفك الدماء، وطلب منه أن يحضر بنفسه ليكفّ ينال. فسار من حلته في رمضان ووصل بغداد رابع شوال وضرب خيامه بالنجمي واجتمع هو وينال وأيلغازي ونواب ديوان الخليفة

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠١١ - ١٠١٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٦١ - ٦٢.

وتقررت القواعد على مال يأخذه ويرحل عن العراق. فطلب ينال المهلة، فعاد صدقة عاشر شوال إلى حلته وترك ولده دبيساً ببغداد ليمنعه من الظلم والتعدي عما استقرّ الأمر عليه. فبقي ينال إلى مستهل ذي القعدة وسار إلى أوانا فنهب وقطع الطريق وعَسَف الناس وبالغ في الفعل القبيح وأقطع القرى لأصحابه. فأرسل الخليفة إلى صدقة في ذلك، فأرسل ألف فارس وساروا إليه ومعهم جماعة من أصحاب الخليفة وايلغازي شحنة بغداد. فلما سمع ينال بقربهم منه عبر دجلة وسار إلى باجِسرى[1] وشعثها وقصد شهرأبان فمنعه فقاتلهم فقتل بينهم قتلى ورحل عنهم. وسار إلى أذربيجان قاصداً إلى السلطان محمد، وعاد دبيس بن صدقة وأيلغازي شحنة بغداد إلى مواضعهم».

٢٥ - الجند ينهبون القرى والمدن

في أثناء الخلاف ما بين السلطان بركيارق وأخيه الملك محمد، وفي السنة ست وتسعين وأربعمائة، وقع نزاع للسيطرة على بغداد بين قائدين:[2]

- القائد كمشتكين[3] القيصري، الذي أرسله السلطان بركيارق إلى بغداد فوصل في أول ربيع الأول إلى قرميسين وأرسل إلى مؤيدي بركيارق يعلمهم بقربه منهم. فخرجت إليه جماعة والتحقت به، فأسرع السير ووصل بغداد التي غادرها أتباع الملك محمد، ولحقت بهم سرية من عسكر كمشتكين من دون أن تظفر بهم.

- القائد أيلغازي المعيّن من قبل الملك محمد والذي استدعى أخاه سُقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ليساعده في مواجهة جيش السلطان بركيارق.

(١) باجسرى: قرية شرقي بغداد.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٦٤.
(٣) في ابن خلدون كمستكين.

سار سقمان بجيشه إلى تكريت فنهبها. أما سبب تمكّنه منها فيعود إلى اعتماده الخدعة لتطمين أهلها، فيما كان جاهزاً للسيطرة عليها. نقل ابن الأثير تفاصيل الخدعة التي اعتمدها سقمان في معركته للسيطرة على تكريت، فكتب:[١]

«أرسل سقمان جماعة من التركمان إلى تكريت معهم أحمال جبن وسمن وعسل، فباعوا ما معهم وأظهروا أن سقمان قد عاد من الانحدار،[٢] فاطمأنّ أهل البلد. ووثب التركمان تلك الليلة على الحراس فقتلوهم وفتحوا الأبواب وورد إليها سقمان ودخلها ونهبها».

التقييم:

أ - الخدعة التي استعملها سقمان قديمة في التاريخ العسكري، تذكّرنا بحرب الاغريق ضد طروادة حين أخفى هؤلاء عدداً من أقوى مقاتليهم داخل حصان خشبي ضخم، اعتبره القرطاجيون رمزاً لانتصارهم، فأدخلوه إلى مدينتهم. ولما انتصف الليل ونام جميع سكان طروادة بعد أن تعتعهم السكر خلال مهرجان النصر، خرج المقاتلون الاغريق من الحصان الخشبي فسيطروا على الأسوار وفتحوا الأبواب لجيشهم الذي دخل ودمّر المدينة وأحرقها.[٣]

لذلك عمد القادة العسكريون خلال عصور التاريخ العسكري إلى التنبّه لمثل هذه الخدع وعدم الثقة بنوايا عدوهم وبمبادراته تجاههم. فالقائد المتبصّر يدرس هذه المبادرات ويحلّلها بدقّة قبل الركون إليها. فالعدو يبقى عدواً مهما قدّم من تنازلات لخصمه.

ب - ومن المناطق التي نهبها جيش إيلغازي وسقمان منطقة دجيل، التي لم يبق فيها على قرية كبيرة ولا صغيرة، إذ نهبت الأموال وافتضت الأبكار ونهب العرب

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) الانحدار يعني هنا التوجّه إلى تكريت.

(٣) الياذة هوميروس.

والأكراد المنطقة واستولوا على الأموال بالضرب والاحراق.[١]

ومن المناطق التي نهبها جيش السلطان بركيارق أيضاً نذكر واسط التي سار إليها هذا الجيش ونهب سوادها.

لقد أوردنا في أجزاء هذه الموسوعة أمثلة عديدة عن نهب المدن وقتل سكانها واستعباد نسائها وأولادها بعد فتحها من قبل الجيوش الغازية. ففي هذه الحالات تصعب السيطرة على الجند الداخل إلى المدينة بعد معركة ذهب ضحيتها بعض من أفراده. زد على ذلك أنه، ومن أهم الحوافز التي كان يقدّمها القادة لجنودهم في تاريخ الحروب القديمة لدفعهم إلى بذل أقصى جهودهم في القتال، كانت الأسلاب والمصادرات التي يحصلون عليها بعد انتهاء المعركة. وهذه الغنائم كانت غالباً ما تعرقل مجرى الحملات العسكرية، إذ ينصرف المقاتلون إلى حمايتها بدل المشاركة في القتال.

وأبرز مثال على ذلك جاءنا من معركة بلاط الشهداء أو بواتييه. فخلال هذه المعركة فشل القائد العربي عبد الرحمن الغافقي في منع مقاتليه عن التوجّه إلى المعسكر الإسلامي لحماية الغنائم والأسلاب عندما اتجهت فرقة من الفرنجة إلى ذلك المعسكر وهدّدته. وهكذا خسر العرب في سهول بواتييه معركة السيطرة على وسط فرنسا أمام القائد الفرنجي شارل مارتيل.[٢]

٢٦ – القتال الرابع بين بركيارق وأخيه محمد

في السنة ست وتسعين وأربعمائة للهجرة نشب القتال مجدداً بين السلطان بركيارق وأخيه محمد من دون أن يحسم الوضع بينهما.[٣]

وفي التفاصيل أن أذربيجان كانت تتبع للملك محمد الذي استخلف عليها الأمير

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٦٤ – ٦٥.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن معركة بلاط الشهداء أنظر الجزء ٧ من هذه الموسوعة.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٨.

غزغلي في سرية من جيشه. فلما حوصر محمد باصبهان من قبل السلطان بركيارق، اتجه غزغلي لنصرته، فرفع جيش بركيارق الحصار عن المدينة.(١)

ثمّ خرج محمد من أصبهان إلى همذان، حيث التحق به ينال وعلي ابنا انو شتكين الحسامي فبلغ جيشه ستة آلاف فارس. كما التحق به جند الملك مودود بن اسماعيل صاحب بعض اذربيجان، فتعزز بذلك جيشه.(٢)

ولما بلغ السلطان بركيارق اجتماع أعدائه سار بجيشه من دون توقف حتى باب خُوَيّ في اذربيجان، حيث دار قتال عنيف بين الجيشين دام طيلة النهار.(٣)

نقل ابن خلدون وابن الأثير انه، في نهاية النهار، سار الأمير أياز من جيش بركيارق في خمسمائة فارس لم يكونوا قد شاركوا في القتال، وحمل بهم على مؤخرة جيش الملك محمد الذي كان قد أعيا أفراده القتال الدائر. وكانت نتيجة هذه الحملة المباغتة هزيمة جيش محمد الذي ولّى أفراده الأدبار. وقصد محمد أرجيش من بلاد ارمينيا التي تبعد أربعين فرسخاً عن مكان الوقعة. وسار قسم من جيشه منهزماً إلى ديار بكر، ومنها إلى جزيرة إبن عمر.(٤)

التقييم: أهمية الاحتياط في القتال:

- احتفظ السلطان بركيارق خلال هذه المعركة باحتياط من الفرسان استعمله في الوقت المناسب، أي عندما تعب جند عدوه في آخر نهار من القتال الشديد.

والملاحظ أن الاحتفاظ باحتياط في المعركة لم يكن قاعدة معتمدة خلال مرحلة الحروب التي سبق الكلام عنها، إذ كان القادة يزجّون في المعركة بكلّ قواتهم الجاهزة.

أما مبدأ الاحتفاظ باحتياط لاستعماله حيث وعندما تدعو الحاجة فقد أصبح

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠١٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٦٥ - ٦٦.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٨.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠١٣.

خلال العصور اللاحقة قاعدة تستعمل عامة في كلّ المعارك والحروب.

فالاحتياط الجاهز للتدخّل قد يغيّر مجرى المعركة ويحوّلها من الخسارة إلى الربح. وخير مثال على أهمية تدخّل الاحتياط في الوقت المناسب وتقرير مصير المعركة جاء من معركة واترلوا الشهيرة التي انتهى بها حكم الامبراطورالفرنسي نابوليون بونابرت في ١٨ حزيران ١٨١٥. فخلال هذه المعركة، وبدلاً من وصول جيش فرنسي بقيادة غروشي لتعزيز الجيش الفرنسي، وصل جيش بروسي بقيادة بلوخر حسم المعركة لصالح القائد البريطاني ويلينغتون والحلفاء الروس والبروسيين والنمساويين والإنكليز.

٢٧ – فتح الملك دقاق مدينة الرحبة

لما قتل كربوقا استولى أحد مماليك السلطان ألب ارسلان ويدعى «قايماز» على مدينة الرحبة.

وفي السنة ست وتسعين وأربعماية قرّر الملك دقاق صاحب دمشق فتح الرحبة، فسار مع أتابكه طغتكين إلى قرماز وحاصرا مدينته من دون أن يتمكّنا من فتحها. ثمّ رحل قايماز عن الرحبة وتوفي في صفر من السنة نفسها، فملك المدينة غلام تركي اسمه حسن قام بإبعاد عدد كبير من جندها عنها وخطب لنفسه.(١)

ونظراً إلى عدم ثقته بأهل الرحبة قام حسن بالقبض على بعضهم وقتل البعض الآخر من أعيان البلد وسجن آخرين وصادر أموالهم، مما جعلهم ينقمون عليه ويبدون استعداداً لمؤازرة الملك دقّاق في حربه ضده.

وبالفعل، عاد الملك دقاق وحاصر المدينة حصاراً شديداً، فاغتنم العامة من أهلها فرصة الظلام لتسليمها إليه من دون مقاومة.فاعتصم حسن في القلعة فأمّنه دقّاق فسلمه القلعة.(٢)

أحسن الملك دقاق إلى أهل الرحبة وجعل فيها من يحفظها، ثمّ رحل عنها إلى دمشق.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٦٧.

(٢) المرجع نفسه.

الدروس المستقاة: المناورة بالخطوط الداخلية:

- اضطر قائد مدينة الرحبة للحرب على جبهتين:

- جبهة داخلية تمثّلت بأهل المدينة بسبب عدم ثقته بهم واتخاذه تدابير تأديبية ضدهم، الأمر الذي جعلهم يسلّمون المدينة إلى خصمه.

- جبهة خارجية تحاصر المدينة بقيادة الملك دقاق صاحب دمشق.

هذا الخطأ ارتكبه صاحب الرحبة، كما سبق وارتكبه قادة آخرون عبر التاريخ العسكري. فالقائد المتبصّر يعلم أن الاستمرار في الدفاع عن مدينة سكانها معادون له هو أمير غير ممكن. والأمثلة عن المدن التي افتتحها المسلمون العرب، بعد اتفاق مع سكانها ورغم مقاومة حاميتها، كثيرة ومتنوّعة.

من جهة أخرى، تقضي الاستراتيجية العسكرية بمحاولة الحرب على أقل عدد ممكن من الجبهات في وقت واحد، وحصرها في جبهة واحدة متى أمكن ذلك. فالقادة الكبار الذين اضطروا للقتال على جبهات متعددة فشلوا وهزموا. وخير مثال على هذا المبدأ الاستراتيجي جاءنا من الحرب العالمية الثانية، حين حاربت الجيوش الالمانية على جبهات اوروبا الغربية وروسيا وشمال افريقيا في نفس الوقت، ما أدى إلى هزيمتها.

أما عندما يضطر القائد أو القيادة العامة إلى مواجهة أعداء متعددين وعلى جبهات مختلفة، فعليهم أن يقوموا بما يسمى بـ«المناورة بالخطوط الداخلية» والتي تقضي بـ:

- اختيار العدو الأقوى لمهاجمته أولاً على إحدى الجبهات.
- تثبيت باقي الأعداء على الجبهات الأخرى بأقل عدد ممكن من القوى.
- مهاجمة العدو الأقوى بأقصى ما يمكن من الحدّة وباستعمال القسم الأكبر من القوى العسكرية المتوافرة، وذلك بهدف وضع قواته خارج القتال.
- مهاجمة باقي الأعداء بالتتابع وبنفس الطريقة التي استعملت مع العدو الأول.

إن أبرز من استعمل استراتيجية «المناورة بالخطوط الداخلية» بنجاح هو القائد نابوليون بونابرت في حروبه ضد التحالفات الاوروبية التي كانت تقام ضده. كما استعمل العدو

الاسرائيلي هذه الاستراتيجية ضد الجيوش العربية خلال حرب ١٩٦٧.

٢٨ – ملك بلك[١] بن بهرام ابن أرتق مدينة عانة

كان بلك بن بهرام بن أرتق مالكاً لمدينة سروج. وفي السنة سبع وتسعين وأربعمائة للهجرة هاجمتها قوّة من الفرنجة واحتلتها وأخذتها منه، فسار بجيشه إلى مدينة عانة، وهي ملك لبني يعيش بن عيسى بن خلاط، فحاصرها وملكها وطرد بني يعيش منها.[٢]

سار بنو يعيش إلى سيف الدولة صدقة بن مزيد، ومعهم مشايخهم وقادتهم، واستنجدوا به وسألوه التوجّه معهم إلى عانة لتسلّمها. وبالفعل قصد سيف الدولة المدينة معهم، فلما علم التركمان وقائدهم بهرام بذلك رحلوا عنها.

ولما عاد سيف الدولة عن عانة قصدها بلك مجدداً على رأس جيش من ألفي رجل من التركمان فحاصرها وامتنع أهلها في داخلها. ثمّ اكتشف بلك مخاضة تصل إلى المدينة فخاضها ودخلها حيث جرى قتال عنيف مع أهلها انتهى باحتلالها من قبل التركمان الذين نهبوها وسبوا كلّ نسائها.[٣]

التقييم:

– خلال هذه المرحلة من السيطرة السلجوقية، وباستثناء الصراع ضد الصليبيين الذي شاركت فيه القوى الاسلامية في بلاد الشام ومصر، فإن القتال عامة كان يجري داخلياً بين القادة التركمان والعرب والاتابكة والمماليك للسيطرة على المدن والمناطق.

– كما يلاحظ أن الإدارة الإسلامية للمناطق المذكورة كانت لا مركزية، بمعنى أن الأمير أو القائد الذي يتمكّن عسكرياً من السيطرة على إحدى المدن أو الولايات يكون قد ملكها. لقد غابت القيادة

(١) في ابن خلدون: ملك – وهو ابن أخي إيلغازي بن أرتق.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٦٧.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٠.

العسكرية المركزية عن بلاد الشام خاصة التي كان عليها أن تنتظر بروز اسرة آل زنكي لتعود إلى التوحّد في الجهد العسكري المقاوم للصليبيين من جهة والمسيطر على المدن والمناطق الإسلامية في الشرق الأدنى من جهة ثانية.

فالأمير بلك بن بهرام، عندما هاجم الفرنجة مدينة سروج التي يملكها، سار بجيشه إلى مدينة عانة فاستولى عليها مستبدلاً سيطرة بني يعيش عليها. وعندما استحضر هؤلاء قوّة تفوق قوّته انسحب من عانة التي عاد إليها بعد انسحاب تلك القوة منها.

٤٩ – الصلح بين السلطان بركيارق وأخيه محمد

في السنة سبع وتسعين وأربعمائة توقفت الحروب بين السلطان بركيارق والملك محمد، وبعث الأول إلى الثاني الخلع والهدايا.[1]

وكان بركيارق مسيطراً والخطبة له في الري والجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين الشريفين، فيما سيطر الملك محمد وخطب له في اذربيجان وارمينيا واصبهان والعراق كلّها باستثناء تكريت. أما أعمال البطائح فخُطب ببعضها لبركيارق وببعضها لمحمد، كذلك البطرة. واما الملك سنجر فخطب له في خراسان من حدود جرجان إلى ما وراء النهر. هكذا كان العالم الإسلامي الشرقي مقسماً بين الأخوة الثلاثة.[2]

أما أسباب الصلح وظروفه، فقد فصّلها ابن الأثير الذي كتب:[3]

«وقع الصلح بين السلطانين بركيارق ومحمد ابني ملكشاه. وكان سببه أن الحروب تطاولت بينهما وعمّ الفساد فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخرّبة والقرى محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين. وكان الأمراء الأكابر

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٩.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٦٨.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٠ – ٧٢.

يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإدلالهم.

فلما رأى السلطان بركيارق المال عنده معدوماً والطمع من العسكر زائداً، أرسل القاضي أبا المظفر الجرجاني الحنفي وأبا الفرج أحمد بن الغفار الهمذاني المعروف بصاحب قراتكين إلى أخيه محمد في تقرير قواعد الصلح. فسارا إليه وهو بالقرب من مراغة، فذكرا له ما أرسلا فيه ورغّباه في الصلح وفضيلته وما شمل البلاد من الخراب وطمع عدوّ الإسلام في أطراف الأرض. فأجاب إلى ذلك وأرسل فيه رسلاً واستقرّ الأمر وحلف كلّ واحد منهما لصاحبه. وتقررت القاعدة أن السلطان بركيارق لا يعترض أخاه محمداً في الطبل وأن لا يذكر معه على سائر البلاد التي صارت له وأن لا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة من الوزيرين. ولا يعارض أحد من العسكر قصد أيهما شاء، وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذروذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة. فأجاب بركيارق إلى هذا، وزال الخلف والشغب. وأرسل السلطان محمد إلى أصحابه بأصبهان يأمرهم بالانصراف عن البلد وتسليمه إلى أصحاب أخيه. وسار السلطان بركيارق إلى أصبهان، فلما سلّمه إليه أصحاب أخيه دعاهم إلى أن يكونوا معه وفي خدمته فامتنعوا ورأوا لزوم خدمة صاحبهم فسماهم أهل العسكرين جميعاً أهل الوفاء. وتوجهوا من أصبهان ومعهم حريم السلطان محمد إليه. وأكرمهم بركيارق وحمل لأهل أخيه المال الكثير، ومن الدواب ثلاثمائة جمل ومائة وعشرين بغلاً تحمل الثقل، وسيّر معهم العساكر يخدمونهم».

الدروس المستقاة:

- من قراءة نص ابن الأثير يمكننا التأكيد على الحقائق الآتية:

أ - كان الصراع بين السلطان بركيارق وأخيه محمد، والذي شغل العالم الإسلامي الشرقي خلال حقبة طويلة من الزمن، صراعاً خاصاً ليست له أسباب وغايات تهدف إلى خدمة المجتمع الإسلامي أو تحسين وضع شعوبه. وهذا يؤكّد ما سبق وأوردناه في هذه الموسوعة من أن المصالح

الشخصية للقادة المسلمين كانت تتقدّم على مصالح الأمة في الصراع العسكري الذي كان يدور بين أقطابها.

ب - خلال هذا الصراع غابت متطلّبات الجهاد في سبيل الدين. فالحروب الداخلية ضمن العائلة السلجوقية كانت تدور رحاها فيما العدو الخارجي الفرنجي يهدّد العالم الإسلامي برمّته. وخلال هذه المرحلة تمكّن الفرنجة من السيطرة على القسم الساحلي من بلاد الشام وصولاً إلى احتلال انقدس.

لقد احتلّ الفرنجة انطاكية ومعرّة النعمان السنة ٤٩١هـ، وبيت المقدس السنة ٤٩٢هـ، والشام السنة ٤٩٤هـ، وجبيل وعكا السنة ٤٩٧هـ. وهذه الأحداث جميعها وقعت فيما كان بركيارق في حرب شبه دائمة مع أخيه محمد.

ج - وما أجّج الصراع بين الشقيقين، كما ذكر ابن كثير، أن «الأمراء والأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكّمهم وانبساطهم وادلالهم». وهذا يعني أن أمراء السلطان والملك كانوا يشجعونهما على الاختلاف والحرب بدل وضع كلّ الجهود في سبيل محاربة العدو المشترك الذي هو الفرنجة.

هذه الخلافات الداخلية كانت مؤشراً إلى قرب زوال السيطرة السلجوقية عن العالم الإسلامي الشرقي، تمشياً مع قاعدة صعود الأمم وهبوطها. فالسلاجقة الأتراك كانوا قد أصبحوا في خلاف دائم فيما بينهم، الأمر الذي أدى إلى استبدال سيطرتهم بسيطرة آل زنكي التي سنتكلّم عنها لاحقاً في هذا الجزء.

د - يلاحظ أيضاً أن الخليفة العباسي وافق على مختلف التدابير التي اتفق عليها الاخوان بركيارق ومحمد. فلم يكن له أي دور في المباحثات التي سبقت الاتفاق، إذ أن تأثيره في العالم الإسلامي الشرقي كان مقتصراً على الأمور الدينية ولم يتعداها إلى القضايا السياسية والعسكرية.

هـ - لكن الصلح لم يدُم طويلاً، إذ توفي السلطان بركيارق السنة ٤٩٨هـ وبويع بالسلطنة ابنه ملكشاه في بغداد. فلما وصل الخبر إلى الملك محمد سار إلى بغداد وخلع ابن أخيه ملكشاه وقتل الأمير إياز أتابكه، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه في السابق.

٣٠ – الاستنجاد بالفرنجة في الصراع الداخلي على السلطة

في السنة سبع وتسعين وأربعمائة للهجرة توفي الملك دقاق بن تتش بن ألب ارسلان صاحب دمشق وخطب أتابكه طغتكين لولد صغير له سنة واحدة من العمر، وأخذ البيعة له وأدار المملكة باسمه.(١)

ثمّ قطع طغتكين الخطبة له وخطب لبكتاش بن تتش عم الطفل الذي كان عمره ١٢ سنة. ثمّ أشار طغتكين على بكتاش بقصد مدينة الرحبة، فقصدها وحاصرها وملكها. ولما عاد إلى دمشق منعه طغتكين من دخولها وأعاد الخطبة لابن دقاق.

سار بكتاش إلى بعلبك وجمع الرجال واجتمع مع الأمير أيتكين الحلبي صاحب بصرى فقصدا حوران وعاثا في نواحيها فساداً.

ثمّ راسل بكتاش بلدوين ملك الفرنجة يستنجده في قتاله ضد طغتكين، فأجابه إلى ذلك. سار بكتاش وأيتكين إلى بلدوين واجتمعا به وقررا الخطة والقواعد للقتال ضد طغتكين في دمشق. وأقاما مدّة عند بلدوين، فلم يريا منه غير التحريض على الإفساد والتخريب في دمشق وأعمالها. لذلك يئسا من نصرته، فعادا من عنده وتوجها إلى الرحبة فملكاها مجدداً واستقام أمر طغتكين في دمشق(٢)

التقييم:

– إن الاستنجاد بالقادة الفرنجة في الصراع الداخلي كان شائعاً خلال هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي. كما أن القادة الفرنجة أيضاً دأبوا على طلب مساعدة الأمراء المسلمين في قتالهم ضد القادة الفرنجة الآخرين. هذه الحقيقة تعزّز ما جاء في الفقرة ٢٨ من أن الصراعات الداخلية للملوك والسلاطين السلاجقة طغت خلال هذه المرحلة على باقي أحداث العالم الإسلامي الشرقي.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٤.

٣١ – وفاة السلطان بركيارق

في السنة ثمان وتسعين واربعمائة للهجرة توفي السلطان بركيارق بن ملكشاه في أوائل ربيع الآخر لاثنتي عشرة سنة ونصف السنة من ملكه.[(١)] نقل ابن خلدون رواية عن وفاته، فكتب:[(٢)]

«ثمّ توفي السلطان بركيارق بن ملك شاه بنزدجرد[(٣)] في أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين لاثنتي عشرة سنة ونصف من ملكه. جاء إليها عليلاً من أصفهان، واشتدّ مرضه ببروجرد، فولّى عهده لابنه ملك شاه، وعمره نحو من خمس سنين. وخلع عليه، وجعل الأمير أياز كافله، وأوصى أهل الدولة بالطاعة والمساعدة. وبعثهم إلى بغداد فأدركهم خبر وفاته بالطريق. ورجع أياز حتى دفنه باصفهان، وجمع السُرادقات والخيام والجتر والشمسية لابنه ملك شاه. وكان بركيارق قد لقي في ملكه من الرخاء والشدّة والحرب والسلم ما لم يلقه أحد. فلما استقرّ واستقامت سعادته أدركته المنية. ولما توفي خطب لابنه ملك شاه ببغداد، وكان أبو الغازي قد سار من بغداد إليه، وهو باصفهان يستحثّه إلى بغداد. وجاء معه، فلما مات سار مع ابنه ملك شاه والأمير اياز إلى بغداد، وركب الوزير أبو القاسم عليّ بن جُهير فلقيهم به[(٤)] مالي. وحضر أبو الغازي والأمير طفايرك بالديوان، وطلبا الخطبة لملك شاه فخطب له، ولقب بألقاب جدّه ملك شاه».

وبوفاة السلطان بركيارق طويت صفحة مجيدة من صفحات التاريخ السلجوقي والخلافة العباسية خلال سيطرة السلاجقة الأتراك. فقد كانت هذه السيطرة ما تزال فعلية على المناطق الشرقية من العالم الإسلامي الشرقي رغم الحروب بين السلطان والملوك من اخوته ورغم الخطر الفرنجي الذي تجسّد باحتلال الصليبيين للساحل الشامي.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٧٩.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧١ – ٧٢.

(٣) الصحيح: بروجرد – وهي مدينة.

(٤) في ابن الأثير: «فلقيهم في ديالي وكانوا خمسة آلاف فارس».

ملحق رقم ١

سيرة السلطان بركيارق

ركن الدولة السلجوقي. جرت له خطوب طويلة وحروب هائلة. خطب له في بغداد ست مرات، وكانت تنقطع الخطبة له خلالها ثمّ تعاد. مات وله من العمر أربع وعشرون سنة وشهور عدّة.(١)

وكان بركيارق قد مرض باصبهان بالسل والبواسير، فسار منها في محفة طالباً بغداد. فلما وصل إلى بروجرد ضعف عن الحركة، فأقام فيها أربعين يوماً، فاشتدّ مرضه. فلما يئس من نفسه خلع على ولده ملكشاه وعمره حينئذ أربع سنين وثمانية أشهر.(٢)

توفي بركيارق في ثاني شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة للهجرة.

كتب ابن الأثير عن بركيارق ما يأتي:(٣)

«لما توفي بركيارق كان عمره خمساً وعشرين سنة ومدّة وقوع اسم السلطنة عليه اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر. وقاسى من الحروب واختلاف الأمور عليه ما لم يُقاسِه أحد، واختلفت به الأحوال بين رخاء وشدّة وملك وزواله وأشرف في عدّة نوب بعد إسلام النعمة على ذهاب المهجة. ولما قوي أمره في هذا الوقت وأطاعه المخالفون وانقادوا له أدركته منيّته. ولم يهزم في حروبه غير مرة واحدة، وكان امراؤه قد

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٧ - ٧٨.

طمعوا فيه للاختلاف الواقع حتى أنهم كانوا يطلبون نوابه ليقتلوهم فلا يمكنه الدفع عنهم. وكان متى خطب له ببغداد وقع الغلاء، ووقفت المعايش والمكاسب، وكان أهلها مع ذلك يحبونه ويختارون سلطانه. وقد ذكرنا من تقلّب الأحوال به ما وقفت عليه ومن أعجبها دخوله أصبهان هارباً من عمّه تتش فمكّنه عسكر أخيه محمود صاحبها من دخولها ليقبضوا عليه. فاتفق أن أخاه محموداً مات فاضطروا إلى أن يملّكوه، وهذا من أحسن الفرج بعد الشدة. وكان حليماً كريماً صبوراً عاقلاً كثير المداراة لا يبالغ في العقوبة، وكان عفوه أكثر من عقوبته».



الفصل الثاني

العمليات العسكرية في عهد السلطان محمد بن ملكشاه

سبق القول إنّ الدولة السلجوقية بلغت ذروة اتساعها في عهد السلطان ملكشاه، فامتدّت من فلسطين جنوباً إلى افغانستان شرقاً وآسيا الصغرى غرباً. ولما توفي ملكشاه تولى الملك ابنه بركيارق الذي شهد عهده مرحلة خلافات وحروب شبه دائمة بينه وبين أشقائه، لاسيما الملكين محمود وسنجر. وهذا الصراع على السلطة بين الملوك السلاجقة عمل على زعزعة أساس دولتهم وتفكّكها وعجزها عن الاضطلاع بمهمة مجابهة القوى الخارجية التي برزت خلال هذه المرحلة.

لقد سبق ولفتنا إلى أن مرحلة حكم بركيارق شهدت تقدّم الحروب الداخلية على الجهاد في سبيل نشر الدين، أو حتى في سبيل وقف مدّ الشعوب الطامعة بأملاك الخلافة العباسية. ومن هذه الشعوب من كانت تدين بالدين الإسلامي، كالغزّ والترك والفرس، ومنها من كانت تدين بديانات أخرى، سماوية كانت كالفرنجة، أو غير سماوية كالتتر والمغول.

من جهة أخرى، ومنذ عهد بركيارق، اعتقد السلاجقة بأن لا العرب ولا الفرس يُخلص في خدمتهم، فاعتمدوا على المماليك الترك الذين أخضعوا لنظام عسكري قاس وعاشوا في بلاط السلاطين والملوك والأمراء السلاجقة. أما عطاءات هؤلاء المماليك فكانت إقطاعات وقلاعاً ومدناً وولايات تمنح لهم مقابل خدماتهم العسكرية للسلطان أو الملك.

كذلك ركزنا خلال القسم الأول من هذا الجزء على أن اللامركزية أضحت قاعدة معتمدة في أرجاء الخلافة العباسية، التي لم تعد تتحكم بكامل ولاياتها التي استقلّ بها الولاة والمماليك. وهكذا أمست أراضي فارس والعراق والشام مقسّمة إلى إقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلطان الذين اتخذوا لأنفسهم الجيوش والفرق العسكرية.

وخاض هؤلاء القادة المحليين حروباً ومعارك بين بعضهم البعض رغم الخطر الفرنجي الذي داهمهم. كما أن بعضهم استنجد في حربه ضد أمير مسلم آخر بالملوك والأمراء الفرنجة أحياناً.

وهكذا بدأت الدولة السلجوقية تتفكك ويسيطر على أجزائها الاتابكة، إلى أن تمكّن آل زنكي من السيطرة على الشرق الإسلامي وخوض غمار الصراع ضد الصليبيين.

فبعد وفاة بركيارق، خُطب لملكشاه ابنه في بغداد، وعمره أربع سنين وثمانية أشهر، وجُعل الأمير إياز أتابكه. ولما وصل خبر الوفاة إلى الملك محمد، شقيق بركيارق، وكان يحاصر الموصل، صالح جكرمش صاحبها وسار إلى بغداد فوصلها، ونزل عند الجانب الغربي بأعلى بغداد حيث خطب له، كما خُطب لابن أخيه ملكشاه بن بركيارق بالجانب الشرقي منها. وهكذا بدأ الخلاف فوراً بين السلطان الجديد وعمّه محمد، خلافٌ سيتوسع في ما بعد، فيقوم الملك محمد باغتيال الأمير إياز أتابك السلطان ملكشاه ويسيطر على بغداد وعلى سلطنة السلاجقة.

بعد وفاة السلطان محمد ملك ابنه محمود فخالفه أخوه طغرل وجرت حرب بينهما، كما وقعت حرب أيضاً بين طغرل وعمه سنجر بن ملكشاه السنة ٥١٣ هجرية. وفي السنة ٥١٤ هجرية رفض الملك مسعود بن محمد إطاعة أخيه السلطان محمود، فجرت وقائع بينهما بعد أن خُطب لمسعود بالسلطنة في أذربيجان والموصل والجزيرة مدّة ثمانية عشر يوماً. كما خرج عن طاعة السلطان أيضاً القائد دبيس الذي نهب العراق وسار إلى بغداد وضرب سرادقة بإزاء دار الخلافة.[١]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٦٧ - ١٩٤.
وابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٠.

وتطول لائحة الصراعات الداخلية على السلطة بين أمراء آل سلجوق وملوكهم، الأمر الذي يجعلنا نؤكد أن زوال دولتهم كان قد أصبح وشيكاً وذلك إفساحاً في المجال لسيطرة دولة أخرى على مقدرات الخلافة العباسية. وهذا ما سنحاول تفصيله في القسم الثاني من هذا الجزء.

١ - حصار الموصل

كانت مدينة الموصل لشمس الدولة جكرمش الذي كان يعترف بسلطة السلطان بركيارق. فلما عقد الصلح بين بركيارق وأخيه محمد وسلّم هذا الأخير مدينة أصبهان لأخيه، أقام في تبريز من أعمال اذربيجان بانتظار وصول أصحابه الذين غادروا أصبهان. انتقل بعد ذلك إلى مراغة ثمّ إلى إربل قاصداً محاربة جكرمش لانتزاع الموصل منه، وذلك في صفر من السنة ثمان وتسعين وأربعمائة للهجرة.(١)

علم جكرمش بمسيرة محمد إليه، فقام بتحصين سور الموصل وترميم ما كان قد هدم منه. وأمر أهل السواد بدخول المدينة وأذن لأصحابه في نهب من لا يدخلها منهم.

نقل ابن الأثير صورة واضحة عن حصار المدينة والقتال حولها وامتناعها على السلطان محمد، وصولاً إلى عقد الصلح بين المتقاتلين، فكتب:(٢)

«وحصر محمد المدينة وأرسل إلى جكرمش يذكر له الصلح بينه وبين أخيه وأن في جملة ما استقرّ أن تكون الوصل وبلاد الجزيرة له. وعرض عليه الكتب من بركيارق إليه بذلك والأيمان على تسليمها إليه وقال له: «إن أطعت فأنا لا آخذها منك بل أُقرّها بيدك وتكون الخطبة لي بها». فقال جكومش: «إن كتب السلطان وردت إلي بعد الصلح تأمرني أن لا أسلم البلد إلى غيره». فلما رأى محمد امتناعه باكره القتال وزحف إليه بالنقابين والدبابات، وقاتل أهل البلد أشدّ قتال وقتلوا خلقاً كثيراً لمحبتهم لجكرمش

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٨ - ٧٩.

لحُسن سيرته فيهم. فأمر جكرمش ففتح في السور أبواب لطاف يخرج منها الرجالة يقاتلون فكانوا يكثرون القتل في العسكر. ثمّ زحف محمد مرة فنقب في السور أصحابه وأدركهم الليل فأصبحوا وقد عمّره أهل البلد وشحنوه بالمقاتلة. وكانت الأسعار عندهم رخيصة في الحصار، كانت الحنطة تساوي كلّ ثلاثين مكوكاً ديناراً والشعير خمسون مكوكاً بدينار. وكان بعض عسكر جكرمش قد اجتمعوا بتل يعفر فكان يغيرون على أطراف العسكر ويمنعون الميرة عنهم، فدام القتال عليهم إلى عاشر جُمادى الأولى. فوصل الخبر إلى جكرمش بوفاة السلطان بركيارق، فأحضر أهل البلد واستشارهم فيما يفعله بعد موت السلطان، فقالوا: «أموالنا وأرواحنا بين يديك وأنت أعرف بشأنك فاستشر الجند فهم أعرف بذلك». فاستشار أمراءه فقالوا: «لما كان السلطان حياً قد كنا على الامتناع ولم يتمكّن أحد من طروق بلدنا، وحيث توفي فليس للناس اليوم سلطان غير هذا والدخول تحت طاعته أولى». فأرسل إلى محمد يبذل الطاعة ويطلب وزيره سعد الملك ليدخل إليه، فحضر الوزير عنده وأخذ بيده وقال: «المصلحة أن تحضر الساعة عند السلطان فإنه لا يخالفك في جميع ما تلتمسه». وأخذ بيده وقام فسار معه جكرمش، فلما رآه أهل الموصل قد توجّه إلى السلطان جعلوا يبكون ويضجون ويحثون التراب على رؤوسهم. فلما دخل على السلطان محمد أقبل عليه وأكرمه وعانقه ولم يمكنه من الجلوس، وقال: «ارجع إلى رعيتك فإن قلوبهم إليك وهم متطلّعون إلى عودتك». فقبّل الأرض وعاد ومعه جماعة من خواص السلطان، وسأل السلطان من الغد أن يدخل البلد لتزيّن له، فامتنع من ذلك فعمل سماطاً بظاهر الموصل عظيماً وحمل إلى السلطان من الهدايا والتحف ولوزيره أشياء جليلة المقدار».

التقييم:

أ - استراتيجية الدفاع عن المدن:

- كانت المدن في الشرق الإسلامي محصّنة خلال مرحلة دراستنا، ويقطن قسم من سكانها داخل الأسوار، وقسم آخر خارجها، ويسمى هذا الخارج عامة السواد. والذين كانوا يقطنون خارج الأسوار هم عامة

من المزارعين الذين يفيدون من وجود الأراضي لزرعها ولرعاية ماشيتهم... وعند اقتراب خطر من المدينة يعمد صاحبها إلى خطوات عسكرية تمهيدية للمقاومة، هي:

* ترميم ما يجب ترميمه من السور.
* الايعاز إلى المزارعين بالدخول إلى المدينة، وذلك بقصد حمايتهم من الجيش الغازي الذي يعمد غالباً إلى مصادرة المواشي وإتلاف الزرع حول المدينة.
* إغلاق الأبواب ونشر المدافعين عن المدينة على الأسوار، وبحوذتهم أسلحتهم لاسيما الأقواس والسهام.
* تحضير المنجنيقات والعرّادات لاستعمالها في الرمي المدفعي على العدو الذي يحاصر المدينة.
* تحويل المياه إلى الخندق المحيط بالمدينة، في حال وجوده.

هذه التدابير تهدف إلى منع مقاتلي العدو عن الوصول إلى الأسوار بسهولة.

- هذه الاستراتيجية في الدفاع عن المدن لم تكن محصورة في الشرق الإسلامي، فقد عرفها الغرب الأوروبي أيضاً، لاسيما خلال القرون الوسطى واستعملها النبلاء والاقطاعيون الاوروبيون في حروبهم. ومن يَزُر اليوم البلدان الاوروبية يلاحظ القلاع والحصون التي ما زالت قائمة مع أسوارها والخنادق حولها والبوابات الخشبية المدعّمة بالعوارض الحديدية مع السلاسل الحديدية التي ترفعها عند تعرّض المدينة للحصار. وتنزلها في الأحوال العادية فتشكّل جسراً متحرّكاً لمرور القوى الصديقة من وإلى المدينة.

- تنفيذاً لهذه الاستراتيجية، وعندما علم جكرمش بمسير السلطان محمد إليه، قام بترميم ما كان قد تهدّم من السور، وأمر أهل السواد بدخول المدينة. لم يذكر المؤرّخون سبب عدم ترميم السور في أيام السلم تفادياً للمفاجآت التي قد تدهم المدينة، وربما يعود السبب إلى التكاليف الباهظة التي يتفاداها صاحب المدينة عادة.

- الملاحظ أيضاً أن السلطان بركيارق كان قد اتفق مع أخيه محمد على ملكية هذا الأخير للموصل. إلاّ أنه، وفق صاحب الموصل، أمر هذا الأخير بعدم تسليم المدينة إلى غيره. وذلك يعود إلى نفسية الخداع التي تميّز بها السلطان بركيارق.

ب - تعلّق الجند بقائدهم:

- بذل سكان الموصل أقصى جهدهم في القتال بسبب تعلّقهم بقائدهم جكرمش. وهنا لا بدّ من التركيز على أهمية ثقة الجند بقائدهم وتعلّقهم به واحترامهم له، الأمر الذي يحرّك في نفوسهم الحوافز للبذل والعطاء. لقد تميّز كبار القادة عبر التاريخ العسكري بثقة مقاتليهم بهم وتعلّقهم بشخصهم. ونذكر من القادة الذين تمتّعوا بهذه الصفات هنيبعل والاسكندر المقدوني ونابوليون بونابرت وخالد بن الوليد، وجميعهم اعتبروا من كبار القادة العسكريين في العالم القديم والوسيط والحديث.

- وكان كلّما نقب جند السلطان في السور، قام أهل المدينة بسد الثغرة خلال الليل وشحنوا مكانها بالمقاتلة.

علاوة على ذلك كان بعض جند الموصل يخرجون من المدينة ليلاً ويغيرون على جند السلطان فيقتلون منهم ويمنعون التموين عنهم.

كلّ هذه الانجازات العسكرية التي جعلت من معركة حصار الموصل إحدى أهم معارك الحصار خلال هذه المرحلة من التاريخ السلجوقي في العراق، تحققت بفضل تعلّق مقاتلي الموصل بقائدهم جكرمش.

- ولما سار هذا القائد إلى السلطان للتباحث معه في شأن إنهاء القتال بعد وصول خبر وفاة بركيارق إلى الموصل، راح أهلها يبكون ويضجون ويحثون التراب على رؤوسهم بسبب تعلّقهم بقائدهم. وهذا ما دفع السلطان محمد إلى إعادة جكرمش إلى قيادته والاعتراف به حاكماً على مدينة الموصل. ولم يدخل الجيش الغازي إلى المدينة احتراماً للمشاعر الإنسانية التي أظهرها أهلها من تعلّق بقائدهم المحبوب.

وهذا ما يدفعنا إلى التأكيد على المثل العسكري الذي ينص على أن «مكافأة القائد تكمن في عيون مرؤوسيه ونفوسهم».

٢ - الصلح بين الملك محمد وابن أخيه ملكشاه

لما وصل خبر وفاة السلطان بركيارق إلى أخيه محمد صالح جكرمش صاحب الموصل وسار إلى بغداد مع الأمراء والقادة والجند. فلما بلغ خبره إلى الأمير إياز أتابك

ملكشاه بن بركيارق خرج مع جيشه من المدينة ونصب خيامه خارجها، ثمّ جمع الأمراء والقادة واستشارهم في ما يفعله، فبذلوا الطاعة له وللسلطان ملكشاه وطلبوا منه مقاتلة السلطان محمد.(١)

ثمّ استشار الأمير إياز وزيره الصفي أبا المحاسن الذي قال له: «ليس الرأي ما أشار به هؤلاء... والصواب مصالحة السلطان محمد وطاعته وهو يقرّك على إقطاعك ويزيدك عليه مهما أردت».(٢)

تأرجح رأي الأمير إياز ما بين الصلح أو القتال، فمال إلى القتال وجمع سفنه في بغداد وخُطب له وللملكشاه في الجانب الشرقي من المدينة، فيما خطب في جانبها الغربي للسلطان محمد.(٣)

وخاف أهل بغداد امتداد الشر وبدء القتال بين الجيشين، فركب إياز في جنده وهو عازم على الحرب، وسار إلى أن أشرف على عسكر السلطان محمد فوجده كثيراً. ثمّ عاد إلى معسكره واستدعى الأمراء والقادة وطلب منهم حلف يمين الولاء مجدداً للملكشاه، فأجاب البعض وامتنع البعض الآخر بحجة أنهم سبق وحلفوا اليمين، ولا فائدة من إعادة اليمين مرة ثانية.(٤)

أمام قوّة جيش السلطان محمد وتمنّع قسم من الأمراء عن حلف اليمين مما أظهر ترددهم وعدم تصميمهم على القتال، قرّر الأمير إياز طلب الصلح من السلطان محمد.(٥)

نقل ابن الأثير نتيجة مفاوضات الصلح، فكتب:(٦)

«فلما كان من الغد حضر الأمير أياز عند السلطان محمد فلقيه وزير السلطان وكافة الناس. ووصل سيف الدولة صدقة ذلك

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧١ - ٧٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٠.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٠.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٣.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٠ - ١٨١.

(٦) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨١.

الوقت ودخلا جميعاً إلى السلطان فأكرمهما وأحسن إليهما. وقيل بل ركب السلطان ولقيهما ووقف أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. وأقام السلطان ببغداد إلى شعبان وسار إلى أصبهان».

الدروس المستقاة:

أ - تطبيق مبادىء الحرب:

طبّق الإمير إياز في عقده الصلح مع السلطان محمد المبدأ الأول من مبادىء الحرب الذي ينص على «نسبية الأهداف للوسائل». فهو، وبعد أن لمس تفوّق خصمه في العدد والعتاد، قرّر عدم مجابهته وعقد الصلح معه. فهذا القائد، من دون معرفته بمبادىء الحرب الحديثة، عمل على تطبيقها فنجح في تجنّب هزيمة كبرى.

وأمثلة القادة الذين ضربوا بعرض الحائط هذا المبدأ فخسروا معاركهم وحروبهم عديدة عبر التاريخ. أما القادة الذين لم يطبقوا هذا المبدأ ونجحوا في معركتهم، فانهم صنّفوا من القادة الكبار في التاريخ العسكري. فهم قد استعاضوا عن هذا المبدأ بميزات أخرى، أهمها عبقريتهم وتفوقهم ودرجة تدريب جندهم وتمرّسهم بالقتال وحوافزهم وحماسهم ونوعية أسلحتهم والخطط التي طبّقوها...

وفي صورة عامة يجهد القائد المتبصّر في تطبيق مبادىء الحرب الثلاثة في معركته، فان نجح نال مبتغاه، وأن فشل يكون قد قام بواجبه كاملاً من دون أن يتمكّن من بلوغ هدفه المنشود. أما المبادىء الثلاثة فهي:

١ - نسبية الأهداف للوسائل.

٢ - حرية العمل.

٣ - الحصيل الأقصى للوسائل.

فالقائد الناجح، وبعد أن يقارن ما بين وسائله ووسائل خصمه، يسعى إلى المحافظة في صورة دائمة على حرية عمله، فيفرض معركته بدلاً من أن يفرضها خصمه عليه في الزمان والمكان، ويكون في إمكانه زجّ كلّ قواته فيها قبل نهايتها. ثمّ يحاول الحصول على أقصى درجة ممكنة من الإنتاجية من مقاتليه وقادتهم، فيكون قد طبّق بنجاح هذه المبادىء التي هي المدخل إلى النصر.

ب - ولاء المرؤوسين:

لم يكن أمراء جيش إياز وقادته مصممين على القتال، رغم أنهم أشاروا عليه بالمبادرة

إلى المعركة، وهذا ما لفته إليه وزيره المخلص أبـو المحاسـن. فالـقـادة المتردّدون لا يمكـنـهـم كسب المعركة.

كما أن مرحلة التاريخ السلجوقي التي نتـكلّم عنـهـا في هذا الجزء من الموسـوعـة حفلت بأسماء القادة الذين كانوا يغيّرون تحالفاتهم بسرعـة، فينقلبون على قائـد رئيس عـنـد ظـهـور ضـعـف وسـائـلـه الـعـسـكـريـة للانضمام إلى قائد آخر ذي مستقبل واعد.

هذه الحقيقة دفعت الأمير إياز إلى عدم الـثـقـة بـآراء قـادته الـنـاصـحـة بالـقـتـال فوقّع الصلح.[1]

ج - أهـمـيـة الـثـقـة الـمـتـبـادلـة بـيـن القادة:

من جهة أخرى، لم يكن السلطان محمد يـثـق بـالأمير إيـاز بـسـبـب تاريخه الحافل في خدمـة الـسـلـطـان بركيارق وابنه السلطان ملكشاه. لذلك، وبعد أن دعا إياز إلى مأدبة كبرى على شرف السلطان محمد، قام هذا الأخير باغتياله.

كتب ابن خلدون عن ظروف مقتل الأمير إياز السنة ٤٩٨هـ:[2]

«ثمّ احـتـفـل أياز بعدها في عـمـل صـنيـع للسلطان في بيته، وهي دار كوهرائين، وأهدى إليه تحفاً من جملتها حبل البلخش الذي أخذه من تركة نظام الملك بن مؤيد الملك. واتفق أن اياز تقدّم لمواليه بلبس السلاح لـيـعـرضـهـم عـلـى الـسـلـطـان، وكـان عـنـدهـم مصفعان فألبسوه درعاً تحت ثيابه. وتناولوه بـالـنـخـس فـهـرب عـنـهـم، ودخـل في حـاشـيـة السلطان مذعوراً فلمسوه فإذا الدرع تحت ثيابه فارتابوا. ونهض السلطان إلى داره ثم دعا الأمراء بعد ذلك بأيام فاستشارهم في بعث يبعثهم إلى ديار بكر لأنّ ارسلان بن سليمان بن قُطُلمش قصدها. فاتفقوا على الإشارة بمسير اياز، وطلب هو أن يكون معه صَدَقة بن مَزيَد فأسعفه السلطان بذلك، واسـتـدعـاهـمـا لإنفاذ ذلك. وقد أرصد في بعض المخادع بطريقهم جماعة لقتل أياز، فلما مرّ بهم تعاورته سيوفهم، وقطع رأسه وهرب صَدَقة، وأغمي على الوزير. وهرب

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٠.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٤ - ٧٥.

عسكر أياز فنهبوا داره. وأرسل السلطان من دفعهم عنها».

٣ - القتال في منطقة ماردين

كان حصن آمد في ديار بكر للسلطان بركيارق الذي أقطعه لأحد أتباعه من التركمان. وكانت حول الحصن جماعات كثيرة من الأكراد درجوا على الإغارة عليه وإخافة سكانه.[١]

واتفق أن القائد كربوقا خرج من الموصل السنة ثمان وتسعين وأربعمائة للهجرة لحصار آمد في منطقة ماردين، فاستنجد صاحبه بسقمان بن أُرتق الذي اتجه بسرعة إلى ماردين ومعه جيش كبير. وكان عماد الدين زنكي بن آقسنقر[٢] حينئذ صبياً، فحضر مع كربوقا مع مجموعة مقاتلة كبيرة من جيش والده آقسنقر. فلما اشتدّ القتال وبدأت ملامح الفوز تظهر لمصلحة سقمان، قام كربوقا بالقاء نور الدين زنكي بين أرجل الخيل وقال لأصحاب والده:[٣]

«قاتلوا عن ابن صاحبكم»، فقاتلوا حينئذ قتالاً شديداً وصمدوا في المعركة مما أدى إلى هزيمة سقمان وأسر ابن أخيه ياقوتي بن أرتق الذي سجنه كربوقا في حصن ماردين.

وبعد إطلاق سراح ياقوتي من حبسه في ماردين قام بخدعة قتالية أدت إلى استيلائه على الحصن وتملّكه. هذه الخدعة نقل تفاصيلها ابن الأثير الذي كتب:[٤]

«بقي ياقوتي في حبسه مدة، فمضت زوجة أرتق إلى كربوقا وسألته إطلاقه فأطلقه فنزل عند ماردين وكانت قد أعجبته فأقام ليعمل في تملّكها والاستيلاء عليها. وكان من عند ماردين من الأكراد قد طمعوا في صاحبها وأغاروا على أعمال ماردين عدّة دفعات، فراسله ياقوتي يقول: «قد صار بيننا مودة وصداقة وأريد أن أعمر بلدك بأن أمنع عنه الأكراد وأغير على الأماكن وآخذ الأموال أنفقها في بلدك وأقيم

(١) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٧٥.

(٢) عماد الدين زنكي سيلعب دوراً بارزاً في الصراع ضد الصليبيين وفي وصول آل زنكي إلى الحكم.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٣.

(٤) المرجع نفسه.

في الربض». فأذن له في ذلك فجعل يغير من باب خلاط إلى بغداد فصار ينزل معه بعض أجناد القلعة طلباً للكسب وهو يكرمهم ولا يعترضهم فأمنوا إليه. فاتفق أن في بعض الأوقات نزل معه أكثرهم، فلما عادوا من الغارة أمر بقبضهم وتقييدهم وسبقهم إلى القلعة ونادى من بها من أهليهم إن فتحتم الباب وإلا ضربت أعناقهم، فامتنعوا فقتل إنساناً منهم فسلم القلعة من بها إليه، وبقي بها. ثمّ إنه جمع جمعاً وسار إلى نصيبين وأغار على بلد جزيرة ابن عمر وهي لجكرمش، فلما عاد أصحابه بالغنيمة أتاهم جكرمش. وكان ياقوتي قد أصابه مرض عجز معه عن لبس السلاح وركوب الخيل فحمل إلى فرسه فركبه وأصابه سهم فسقط منه فأتاه جكرمش وهو يجود بنفسه، فبكى عليه وقال له: «ما حملك على ما صنعت يا ياقوتي؟» فلم يجبه، فمات ومضت زوجة أرتق إلى ابنها سقمان وجمعت التركمان وطلبت بثأر ابن ابنها. وحصر سُقمان نصيبين وهي لجكرمش، فسيّر جكرمش إلى سقمان مالاً كثيراً سراً فأخذه ورضي وقال إنه قتل في الحرب ولا يعرف قاتله».

الدروس المستقلة:

من دراسة تفاصيل القتال في منطقة ماردين يمكننا استخلاص العبر التالية:

أ - الحرب خدعة:

قيل: «الحرب خدعة»، وقد تأكدت صوابية هذا القول في المعارك التي جرت في ماردين ونصيبين. ففي ماردين، ولمّا مالت كفة النصر إلى جانب سقمان، قام القائد كربوقا برمي الولد نور الدين زنكي تحت أرجل الخيل، وذلك لدفع أصحاب والده أقسنفر إلى القتال بعنف وجديّة لتخليصه. وهذا ما سمح له بربح المعركة.

ب - الغاية تبرّر الوسيلة:

أما ياقوتي بن أُرتق، فقد أظهر الخضوع والولاء لصاحب نصيبين، فيما كان يضمر الشرّ له ويخطط للاستيلاء على المدينة. وتنفيذاً لمخططه التآمري، راح يصطحب معه في غزواته بعض أجناد القلعة الذين وثقوا به واطمأنوا لقيادته. لكنه ضرب ثقتهم بعرض الحائط وقبض عليهم وقيّدهم وقتل أحدهم، الأمر الذي دفع أهل القلعة إلى فتح أبوابها

له، فسيطر عليها مردداً المثل الشائع: «الغاية تبرّر الوسيلة».

لقد طبّق ياقوتي مبادئ مكيافيل للوصول إلى الحكم من دون أن يطّلع عليها في كتابه «الأمير» الذي صدر في وقت متأخر جداً عن زمن الأحداث التي نعالجها في هذا الجزء من الموسوعة.

ويمكننا، في هذا الإطار، تصنيف عمل ياقوتي في خانة الخيانة بدلاً من خانة «الخدعة القتالية». فالخدعة في القتال تعني القيام بخداع العدو وليس خيانة الصديق أو القائد الذي تعمل تحت إمرته.

ج - الرشوة في الحرب:

الحدث الثالث الذي يلفت في حصار نصيبين يمكن تصنيفه ضمن خانة «الرشوة في الحرب». فسقمان، عمّ ياقوتي والمطالب بثأره، وبعد ان حاصر نصيبين، تراجع عنها بعدما سيّر إليه جكرمش الأموال الطائلة. هذا ما نقله ابن خلدون وابن الأثير في تاريخهما.(١)

والرشوة في الحرب كالخيانة في القتال، عمل مغاير للشرف العسكري وللقسم الذي يؤديه القادة عامة في خدمة بلادهم ومجتمعهم.

٤ - اعتداءات الباطنية

في السنة ثمان وتسعين وأربعمائة كثرت اعتداءات الاسماعيلية الباطنية في خراسان وماوراء النهر، فكتب ابن الأثير عنها:(٢)

«في هذه السنة سار جمع كثير من الإسماعيلية من طريثيث عن بعض أعمال بيهق، وشاعت الغارة في تلك النواحي وأكثروا القتل في أهلها والنهب لأموالهم والسبي لنسائهم ولم يقفوا على الهدنة المتقدّمة. وفي هذه السنة اشتدّ أمرهم وقويت شوكتهم ولم يكفّوا أيديهم عمن يريدون قتله لاشتغال السلاطين عنهم. فمن جملة فعلهم أن قفل الحاج تجمّع هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد فوصلوا

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٦.
ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٤.
(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه.

إلى جوار الري، فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاؤوا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً. وقتلوا هذه السنة أبا جعفر بن المشاط وهو من شيوخ الشافعية أخذ الفقه عن الخجندي، وكان يدرّس بالري ويعظ الناس، فلما نزل من كرسيه أتاه باطني فقتله».

التقييم: اعتداءات الباطنية على المسلمين:

- سجلت هذه الاعتداءات الباطنية على المسلمين في وقت كان الخطر الصليبي ما زال جاثماً على العالم الاسلامي الشرقي.

في العام الذي جرت فيه هذه الأحداث نقل ابن الأثير رواية عن معركة بين المسلمين والفرنجة في شمال بلاد الشام هزم خلالها المسلمون. كما جرى قتال عنيف بين الفرنجة والمسلمين في مصر قتل خلاله ألف ومائتان من كلا الجانبين. وفي الحالين لم يمدّ الباطنية يد العون إلى القوى الإسلامية في صراعها ضد أعدائها.

لذلك، نورد في هذا السياق رواية ابن الأثير عن المعركة والقتال المذكورين.

٥ – قتال الملك رضوان صاحب حلب للفرنجة

كتب ابن الأثير:[١]

«في هذه السنة[٢] في شعبان كانت وقعة بين طنكري الفرنجي صاحب أنطاكية وبين الملك رضوان صاحب حلب انهزم فيها رضوان. وسببها أن طنكري حصر حصن أرتاح وبها نائب الملك رضوان فضيّق الفرنج على المسلمين، فأرسل النائب بالحصن إلى رضوان يعرفه ما هو فيه من الحصر الذي أضعف نفسه ويطلب النجدة. فسار رضوان في عسكر كثير من الخيالة وسبعة آلاف من الرجالة، منهم ثلاثة آلاف من المتطوعة، فساروا حتى وصلوا إلى قنسرين وبينهم وبين الفرنج قليل. فلما رأى طنكري كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح فأراد أن يجيب فمنعه أصبهبذ صباوو، وكان

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٤ – ٨٥.

(٢) سنة ٤٩٨هـ.

قد قصده وسار معه بعد قتل أياز فامتنع من الصلح. واصطفوا للحرب فانهزمت الفرنج من غير قتال. ثمّ قالوا: «نعود ونحمل عليهم حملة واحدة فإن كانت لنا وإلا انهزمنا». فحملوا على المسلمين فلم يثبتوا وانهزموا وقتل منهم وأسر كثير. وأما الرجالة فإنهم كانوا قد دخلوا معسكر الفرنج لما انهزموا فاشتغلوا بالنهب فقتلهم الفرنج ولم ينج إلاّ الشريد فأخذ أسيراً وهرب من في أرتاح إلى حلب، وملكه الفرنج لعنهم الله تعالى. وهرب أصبهبذ صباوو إلى طفتكين أتابك بدمشق فصار معه ومن أصحابه».

٦ - القتال بين الفرنجة والمصريين

كتب ابن الأثير:(١)

«في ذي الحجة من هذه السنة(٢) كانت وقعة بين الفرنج والمسلمين كانوا فيها على السواء. وسببها أن الأفضل وزير صاحب مصر كان قد سيّر ولده شرف المعالي في السنة الخالية إلى الفرنج فقهرهم وأخذ الرملة منهم. ثمّ اختلف المصريون والعرب وادعى كلّ واحد منهما أن الفتح له فأتاهم سرية الفرنج فتقاعد كلّ فريق منهما بالآخر حتى كاد الفرنج يظهرون عليهم. فرحل عند ذلك شرف المعالي إلى أبيه بمصر فنفذ ولده الآخر وهو سناء الملك حسين في جماعة من الأمراء منهم جمار الملك النائب بعسقلان للمصريين. وأرسلوا إلى طفتكين أتابك بدمشق يطلبون منه عسكراً فأرسل إليهم أصبهبذ صباوو ومعه ألف وثلاثمائة فارس، وكان المصريون في خمسة آلاف. وقصدهم بغدوين الفرنجي صاحب القدس وعكة ويافا في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل فوقع المصاف بينهم بين عسقلان ويافا فلم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى. فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك أمير عسقلان. فلما رأى المسلمون أنهم قد تكافؤوا في النهاية قطعوا الحرب وعادوا إلى عسقلان وعاد صباوو إلى دمشق. وكان مع الفرنج

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٥.

(٢) سنة ٤٩٨هـ.

جماعة من المسلمين منهم بكتاش بن تتش، وكان طفتكين قد عدل في الملك إلى ولد أخيه دقاق وهو طفل وقد ذكرناه فدعاه ذلك إلى قصد الفرنج والكون معهم».

٧ – الدروس المستقاة من المعركتين ضد الفرنجة

أ – خلال المعركة الأولى، ولما رأى الفرنجة كثرة أعداد جيوش المسلمين، انهزموا من دون قتال، ليعودوا فيحملوا على المسلمين حملة واحدة لم يثبت خلالها المسلمون بل هزموا وقُتل وأُسر منهم كثيرون.

كما أنّ بعض الرجالة المسلمين، وبعد أن انهزم الفرنجة في بداية المعركة، انصرفوا إلى النهب، فلما عاد الفرنجة إلى الهجوم قتلوا قسماً منهم.

ب – أن انصراف الجند إلى النهب قبل وضع القوات المعادية خارج القتال هو أمر أدّى في كثير من المعارك إلى الهزيمة. فبعد انتهاء المعركة ينبغي أن ينتقل الجيش المنتصر إلى مرحلة استغلال النصر وملاحقة فلول العدو والقضاء عليها قبل انصراف عناصره إلى مصادرة ما تركه العدو من أموال وعتاد.

ولنا في خفايا التاريخ العسكري أمثلة عديدة تؤكّد هذه الحقيقة. فخلال معركة بلاط الشهداء، أو بواتييه في الأندلس، انصرف جند القائد العربي عبد الرحمن الغافقي إلى معسكر اسلابهم لحمايتها بدلاً من متابعة القتال إلى جانب هذا القائد الكبير. وهذا ما أدى إلى هزيمة الجيش العربي الإسلامي الجرّار في سهول بواتييه.

ج – نقل ابن الأثير أيضاً أنه «كان مع الفرنجة جماعة من المسلمين» في قتالهم ضد المصريين في عسقلان ويافا من أعمال فلسطين.

هذه الظاهرة المرفوضة تكرّرت مرات عدّة خلال الصراع ضد الصليبيين، إذ تحالف معهم أكثر من أمير وقائد عربي ضد إخوانه المسلمين. كما أن متابعة الاسماعيليين الباطنيين إعتداءاتهم على المسلمين خلال هذه المرحلة هو أمر مستغرب.

إنما كان في الجانب الفرنجي أيضاً قادة وأمراء تحالفوا مع المسلمين لمحاربة رفاقهم، وذلك تحقيقاً لمصالح شخصية بعيدة عن

مـفـهـوم الصـراع الـعـام الـذي خـاضـه الصليبيون في الشرق.

د - في الـقـتـال بين المصـريين والـفـرنجة سجل أيضاً اختلاف بين المصريين والعرب، أي بين سـكـان مصر الأفـريـقـيين والـقوات العربية القادمة من شبه الجزيرة العربية والتي فُتحت مصر على أيديهم. هذا الخلاف برز أمام عدو مشترك قصد مقاتلتهم «فتقاعد كلّ فريق منهما بالآخر، حتى كاد الفرنج يظهرون عليهم»[1] لولا تدخّل صاحب مصر الذي قلب الوضع رأساً على عقب وأنقذ المسلمين وأرسل ابنه سناء الملك حسين في خمسة آلاف مقاتل. كما استنجد صاحب مصر بطغتكين أتابك دمشق الذي أرسل جيشاً قوامه ألف وثلاثمائة فارس. ورغم هذه النجدات بقيت الحرب سجالاً بين الجانبين، فلم ينتصر أي منهما.

إن المعركة ضد عدو مصمم على القتال تفرض تماسكاً داخلياً ضمن الوحدات الصديقة. لذلك عمدت الجيوش المتحاربة إلى توحيد قيادتها خلال أي معركة تخوضها. أما تلك التي تعددت قياداتها في المعركة الواحدة فانها خسرت معركتها.

ولنا في التاريخ العسكري أمثلة عديدة عن هذة الحقيقة. ففي معركة «كان» السنة ٢١٦ق.م كان الجيش القرطاجي بقيادة القائد الشاب هنيبعل، فيما كلف الرومان القنصلين ڤارون وبول إميل بقيادة قواتهم مداورة. لذلك انتصر هنيبعل على جيش يفوق جيشه عدداً وعدّة، ونفّذ معركة افناء تام للرومان اعتبرت مثالاً لمعارك التطويق والسحق والافناء عبر التاريخ العسكري.[2]

أما المسلمون فقد وحّدوا قيادتهم على جبهة الشام خلال مرحلة الفتوحات الكبرى بقيادة القائد الكبير خالد بن الوليد فانتصروا في المعارك التي خاضوها على تلك الجبهة. وقيل أن القائد أبا عبيدة بن الجراح تسلّم كتاب الخليفة عمر بن الخطاب الذي يعينه

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٥.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن معركة كان راجع: ريحانا، سامي، عميد دكتور، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة،بيروت، ١٩٩٦، ص ١٢٥ - ١٢٧.

قائداً للجيوش الاسلامية على الجبهة الشامية بدلاً من خالد بن الوليد أثناء معركة اليرموك. لكن هذا القائد الكبير طوى الكتاب ولم ينشر محتواه حتى انتهت المعركة لصالح المسلمين، وذلك لعدم إرباكهم أثناء معركة خطط لها خالد بن الوليد وكان يقوم بإدارتها. وهذا التصرّف هو تصرّف حكيم لقائد ناجح ومصمم على الانتصار.

٨ - الرواية الصليبية للقتال مع المصريين

نقل وليم أسقف صور رواية القتال بين الفرنجة والمصريين فكتب:(١)

«أتى عدد من أعيان مملكة مصر، في العام نفسه، إلى خليفة مصر وقالوا له: «لقد نجحت هذه القبيلة من الحجاج، الذين غزوا مملكتك مؤخراً بالقوة، في مقاومة قادتك الذين أرسلتهم إليهم نظراً لاستخفافهم بالحياة. وكانوا ناجحين في هذا المشروع الجريء لأنهم اعتمدوا على الأعداد الضخمة للجيوش الأولى التي أتت إلى الشرق. لكن عاد الآن معظم هؤلاء الناس إلى بلادهم، وأما من بقي فمحروم من إمدادات الحج الجديدة. وقد أنقصت الحملات المتكررة أعدادهم كثيرة، حتى أن قوتهم باتت منهكة تماماً، لذلك يبدو لنا موائماً، إذا ما وافقت جلالتكم أن يجري إرسال قائد مختار من رجالك العظماء لتحرير الأرض التي يحتلها الآن هذا الشعب التعيس».

ولاقت هذه الكلمات القبول من الخليفة، وبدت معقولة في نظره، فأمر أن يحشد جيش قوي وإعداد أسطول ضخم. وعُين على كلّ جيش من الجيوش قائد خاص به وأرسلهم إلى سورية، وجلب وصولهم إلى عسقلان الذعر إلى المنطقة بأسرها.

وحالما وصلت أنباء هذا الغزو الملك زحف بسرعة إلى يافا مع كامل قوات المملكة. وعلاوة على ذلك، أصدر مرسوماً قانونياً أمر فيه جميع قوات جميع المدن بالاجتماع في يافا بدون تأخير. ووصل الذين تمّ استدعاؤهم بسرعة.

(١) وليم، رئيس أساقفة صور، تاريخ الحروب الصليبية، دار نوبليس، بيروت، ١٩٩٠، جزء ٣، ص ٥٢٠ - ٥٢٢.

أحصيت قواتنا بعد وصول هذه التعزيزات فوُجد أنها مؤلفة من خمسمائة فارس وألفين من الرجالة. ونقل أن قوّة العدو كانت مؤلفة من نحو خمسة عشر ألف مقاتل بالإضافة إلى المقاتلين الموجودين في الأسطول.(١)

وحالما زحف جيش بلاد الأعداء من عسقلان، أصدرت الأوامر للأسطول بالإبحار إلى يافا. وتقدّم جيش العدو إلى أسدود(٢) وانقسم هنالك إلى قسمين، كان على أحدهما التقدّم إلى الرملة ومن ثمّ يتحدى الملك للقتال، بينما يتقدّم الجيش الثاني إلى يافا، حيث كان عليه مهاجمة يافا بينما الملك مشتبكاً مع الجيش الأول، إنما بعد استدعاء القوات التي قدمت بالبحر لتقديم المساعدة لها. وهكذا دخلت الفرقة الأولى، ترافقها أصوات الأبواق وقرع الطبول، منطقة الرملة وهي معبأة للمعركة. وتمّ هذا التدبير وفق هدف محدد قصد منه استدراج الملك وقواته حتى يستطيع الجيش الأول الوصول بأمان إلى يافا عبر الطريق الساحلي. بيد أن هذه الخطط أخفقت لأنه، عندما اقترب الملك على رأس قواته، ذابت قلوب الكفرة، واستسلموا للرعب، ودعوا الفرقة الأخرى لمساعدتهم. غير أنهم لم يشعروا أنهم أقوياء بما فيه الكفاية للنجاة من سطوة الملك حتى عندما تمّ تعزيزهم بهذا الشكل.

وانقض الملك ورجاله على الفيالق المتحدة ضدهم، وهاجموها بعنف بالطريقة الأكثر شجاعة، وشجع بلدوين في الوقت نفسه رجاله بالقول والعمل، فضاعف بذلك قوتهم...

وسقط حاكم عسقلان في هذه المعركة، غير أن القائد العام للجيوش نجا بالفرار. ويقال إن أربعة آلاف مقاتل من العدو قتلوا في ذلك اليوم، ولم يكتشف سوى ستين رجلاً من شعبنا بين الموتى.

وهكذا، استولت قواتنا، بنعمة من الله، على معسكر العدو حيث وجدوا أعداداً

(١) يُلاحظ هنا أن وليم زاد في تقديره للقوات الإسلامية فيما انقص في تعداد قوات الفرنجة.

(٢) اسدود تبعد عشرة أميال إلى الشمال من عسقلان.

كبيرة من الجمال بالإضافة إلى الحمير والخيول. ولذلك عاد المسيحيون إلى يافا وهم ممتلئون بالفرح والإبتهاج ومحملون بأنفس المغانم، وجلبوا معهم العديد من الأسرى أيضاً. وأسر أحد النبلاء في ذلك اليوم وكان حاكماً لعكا فيما مضى، ويقال إن الملك تلقى فيما بعد فدية لهذا الأسير قدرها عشرون ألف قطعة ذهبية.

في هذه الأثناء كان أسطول العدو ما يزال راسياً في ميناء يافا. غير أنه، حالما وصلته أنباء الكارثة التي لحقت بالقوات البرية، انتهز رجاله فرصة وجود نسمة جنوبية مواتية وانسحبوا إلى ميناء صور. ثمّ هبت فيما بعد عاصفة مفاجئة فوق البحر عندما كانوا على وشك الإبحار في هذا الميناء إلى مصر، فتبعثر الأسطول، وقذفت خمس وعشرون سفينة، لم تستطع تحمّل عنف الأمواج، إلى شاطئنا. وأسر جنودنا أكثر من ألفين من البحارة والجدفين كما غرق العديد من جنود العدو».

ملاحظات على رواية وليم الصوري:

- ضاعف وليم الصوري من أعداد القوات الإسلامية وخفض من أعداد قوات الفرنجة.

- فصّل وليم تحركات الأسطول المصري فيما لم تذكر رواية ابن الأثير أي معلومات عن هذا الأسطول.

- أورد وليم خطة زعم أن القوات المصرية اعتمدتها في القتال وتقضي بالآتي:

* تسير إحدى الفرق إلى الرملة حيث تصطدم بقوات الفرنجة وتجمّدها وتمنعها عن التصدي للفرقة المصرية الأخرى.
* تتقدّم الفرقة المصرية الثانية إلى يافا فتهاجمها، فيما الفرنجة مشتبكون مع الفرقة الأولى.
* تستعمل الأبواق والطبول خلال المعركة المصرية، وذلك لدبّ الذعر في صفوف الفرنجة تمهيداً للانتصار عليهم.

- ثمّ وصف وليم وصول الملك بلدوين الذي دبّ الذعر في صفوف المصريين وهزمهم. لقد ضاعف وليم من قوات المسلمين بهدف إظهار الدور الكبير للملك في المعركة، وكأنه يردد مع عنترة بن شداد:

«ومُدَجَّج كَرِهَ الكُماةُ نِزَالَهُ
لا مُمْعِنٍ هرباً ولا مُستَسلِمِ
جادَتْ لَهُ كَفَي بعاجلِ طعنةٍ
بمثقفٍ صدقِ الكعوبِ مقوَّمِ»

– حتى نتيجة المعركة لم يجرِ توافق حولها بين المؤرخَين العربي والفرنجي. ففيما أكّد ابن الأثير أن القتال كان متكافئاً بين الفريقين، ذكر وليم أن الفرنجة انتصروا في المعركة فدخلوا معسكر المسلمين حيث وجدوا أعداداً كبيرة من حيوانات الحمل...

٩ – بدء ظهور زنكي البرسقي على المسرح العسكري والسياسي

في محرّم من السنة تسع وتسعين وأربعمائة للهجرة ثار أحد أحفاد ألب ارسلان واسمه منكبرس على السلطان محمد بن ملكشاه.[١] وسبب ذلك انه كان مقيماً في أصفهان، فانقطع عنه التمويل من السلطان، فخرج منها وسار إلى نهاوند وسيطر عليها وخطب لنفسه بها وكاتب أمراء بني برسق يدعوهم إلى طاعته ونصرته.[٢]

وكان زنكي البرسقي شقيق أمراء بني برسق مقيماً عند السلطان محمد الذي قبض عليه وكلّفه مكاتبة إخوته وتحذيرهم من طاعة منكبرس. فلما أتاهم كتاب أخيهم أرسلوا إلى منكبرس يبذلون له الطاعة والموافقة، فسار إليهم في خوزستان حيث اجتمعوا به وقبضوا عليه فتفرّق أصحابه عنه.[٣]

اصطحب أمراء بني برسق منكبرس إلى السلطان محمد الذي اعتقله، ثمّ أخرج زنكي من السجن وأعاده إلى مرتبته واستنزله وإخوته في اقطاعهم في الاهواز وهمذان، ثمّ عوضها منهم واقطعهم الدينور وأخرجهم من الأهواز وهمذان.[٤]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨١.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٧.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٨.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٧ – ٧٨.

وفي السنة إياها ظهر رجل في نهاوند أيضاً ادعى النبوة وسمى أربعة من أصحابه بأسماء الخلفاء الراشدين الأربعة، فاتبعه على ضلالته خلق كثير من الجهلة الرعاع وباعوا أملاكهم ودفعوا إليه أثمانها. وكان كريماً يعطي من قصده ما عنده، إلى أن قتل بتلك الناحية.(١) وهكذا كان أهل نهاوند يقولون: «ظهر عندنا في مدّة شهرين اثنان ادعى أحدهما النبوة والآخر المملكة، فلم يتم لواحد منهما أمره».(٢)

التقييم:

- كان أول ظهور لزنكي البرسقي خلال هذه الحادثة، وهو الذي تمكّن أحفاده في ما بعد من إقامة دولتهم على أطلال السلطنة السلجوقية، وقاموا بدور حماية الخلافة العباسية من جهة، والصراع ضد الغزاة الصليبيين من جهة ثانية.

وقد لعب إخوته دوراً مهماً في هذه الحادثة خدمة للسلطان محمد. وسيتابع بنو البرسقي لعب أدوار على الساحة السياسية والعسكرية الإسلامية خلال هذه المرحلة، مما سيمهّد لإقامة الدولة المشار إليها. وهذا ما سنفصله في الفقرات اللاحقة من هذا الجزء.

١٠ - الحرب بين قبيلتي عبادة وخفاجة

في السنة تسع وتسعين وأربعمائة للهجرة وقعت حرب بين قبيلتي خفاجة وعبادة لأسباب تذكّر بالعصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية. أما تفاصيل ذلك فقد نقلها ابن الأثير الذي كتب:(٣)

«وسببها أن رجلاً من عبادة أخذ منه جماعة خفاجة جملين فجاء إليهم وطالبهم بهما فلم يعطوه شيئاً، فأخذ منهم غارة أحد عشر بعيراً فلحقته خفاجة وقتلوا من أصحابه رجلاً وقطعوا يد آخر. وكان ذلك بالموقف من الحلة السيفية، ففرّق بينهم أهلها. فسمعت عبادة الخبر فتواعدت

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٨.

(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٨٩ - ٩٠.

وانحدرت إلى العراق للأخذ بثأرها وساروا مع جماعة من أمرائهم فبلغت عدتهم سبعمائة فارس. وكانت خفاجة دون هذه العدة، فراسلهم خفاجة يبذلون الدية ويصطلحون، فلم تجبهم إلى ذلك عبادة. فالتقوا واقتتلوا بالقرب من الكوفة ومع عبادة الإبل والغنم بين البيوت. فكمنت لهم خفاجة ثلاثمائة فارس وقاتلوهم مطاردة من غير جد في القتال فداموا كذلك ثلاثة أيام. ثمّ إنهم اشتدّ بينهم القتال واختلطوا حتى تركوا الرماح وتضاربوا بالسيوف. فبينما هم كذلك وقد أعيا الفريقان من القتال، إذ طلع كمين خفاجة وهم مستريحون فانهزمت عبادة وانتصرت عليهم خفاجة وقتل من وجوه عبادة اثنا عشر رجلاً ومن خفاجة جماعة، وغنمت خفاجة الأموال من الخيل والإبل والغنم والعبيد والإماء. وكان الأمير صدقة بن مزيد قد أعان خفاجة سراً. فلما وصل المنهزمون إليه هنأهم صدقة بالسلامة فقال له بعضهم: «ما زلت أقاتل وأضارب وأنا طامع في الظفر بهم حتى رأيت فرسك الشقراء تحت أحدهم فعلمت أنهم أجلبوا علينا بخيلك ورجلك، وأننا لا طاقة لنا بهم فنصروا علينا بمعونتك وفلونا بحدّك. فلم يجبه صدقة».

الدروس المستقاة:

- يلاحظ أن العادات والتقاليد الجاهلية كانت ما تزال مغروسة في نفوس القبائل العربية. من هذه التقاليد نذكر:[1]
- الإغارة ومصادر الإبل والمواشي.
- الأخذ بالثأر.
- مؤازرة القبيلة لأحد عناصرها عند الاعتداء عليه من قبل قبيلة أخرى.
- اعتماد عادة دفع دية القتيل في حال رضي أهله بذلك بدلاً من الأخذ بالثأر.
- مصادرة الأموال والخيل والإبل والغنم والإماء من قبل القبيلة المنتصرة.

ومما لا شك فيه أن المفاهيم القبلية رافقت العرب خلال تاريخهم الطويل منذ الجاهلية وصولاً إلى مرحلة الإسلام، رغم أن النبي ﷺ نهى عنها ودمج القبائل ببعضها وآخى

(١) راجع الجزء الأول من هذه الموسوعة للاستزادة من معرفة التقاليد والمفاهيم التي كانت سائدة لدى القبائل العربية في عصر الجاهلية.

في ما بينها، ورغم محاولات الخلفاء للحدّ من العادات الجاهلية، لاسيما الأخذ بالثأر والاستيلاء على مواشي القبائل الأخرى.

والمفاهيم الجاهلية القبلية هذه ساهمت أحياناً في الصراعات التي كانت تقوم بين مختلف فئات المجتمع الإسلامي، إن في الشرق أو حتى في المغرب والأندلس. وقد درج القادة العرب على إبقاء قيادة كلّ مجموعة عربية إسلامية تنتمي إلى إحدى القبائل في أيدي رؤساء وقادة هذه القبائل. لذلك لاحظنا، وسنلاحظ أيضاً، في الأجزاء المقبلة من هذه الموسوعة، إعتماد التقسيم القبلي غالباً في معارك العرب المسلمين. وخير مثال على خوض المعارك بتقسيمات قبلية نلاحظه في معركة القادسية، إذ كان لكلّ من القبائل التالية قطاع مستقل حاربوا داخله بقيادة رؤسائهم:[1]

- قيس عيلان، قضاعة، طيء، عبد قيس وبكر بن وائل (في الميمنة).
- بعض أفخاذ بكر بن وائل، الرباب، تميم، كنانة واسد (في القلب).
- بجيلة، نخع، كندة، الازد، همذان، وخثعم (في الميسرة).

١١ – ملك سيف الدولة صدقة البصرة

كان إسماعيل بن ارسلانجق قد تمكّن من البصرة ونواحيها واحتلّها وأقام فيها مدّة عشر سنين نافذ الأمر، وزادته قوّة الخلافات بين السلاطين السلاجقة وانشغالهم بحروبهم الخاصة.

وفي جمادى الاولى من السنة تسع وتسعين وأربعمائة للهجرة، ولما استقرّ الأمر للسلطان محمد، قرّر استعادة البصرة من اسماعيل. وأسند المهمّة إلى سيف الدولة صدقة الذي انحدر من الحلة إلى البصرة بعد أن أظهر أنه يريد الرحبة. وهكذا لم يشعر إسماعيل إلاّ وقد بات جيش سيف الدولة في جوار المدينة.

لذلك سارع إسماعيل إلى توزيع أصحابه في القلاع التي كان قد بناها في مطارا ونهر

(١) لمزيد من تفاصيل قتال القبائل في معركة القادسية انظر الجزء الرابع من هذه الموسوعة، الفصل الثامن.

معقل غيرهما، واعتقل وجوه العباسيين والعلويين وقاضي البصرة ومدرّسها وأعيان أهلها.

حاصر سيف الدولة البصرة وجرى قتال عنيف بين جيشه وحاميتها. وطال الحصار، فأشار بعض أصحاب سيف الدولة عليه بالتراجع عن المدينة لصعوبة أخذها عنوة. لكنه رفض ذلك وقال لهم: «إن رحلنا عنها كانت كسرة. فإن تعذّر علي فتح البصرة لم يطعني أحد واستعجزني الناس».(١)

ثمّ خرج إسماعيل من المدينة لقتال سيف الدولة صدقة فجرى قتال عنيف بينهما استغلّه بعض أصحاب سيف الدولة للدخول إلى البصرة وقتل عدد كبير من أنصار اسماعيل. ونهبت المدينة وغنم جيش صدقة ما فيها، ولم يسلم منها إلاّ المحلّة المجاورة لقبر طلحة والمربد لأن العباسيين دخلوا المدرسة النظامية ودافعوا عنها وحموا المربد.(٢)

أما إسماعيل، فقد امتنع في قلعة المدينة.

ثمّ قام أحد قادة جيش سيف الدولة بالانحدار في سفن كثيرة إلى قلعة مطارا التي دخلها عنوة وقتل عدداً كبيراً من رجال حاميتها، واصطحب عدداً آخر منهم إلى سيف الدولة الذي أمّنهم وأطلقهم. فلما علم إسماعيل بإطلاقهم، أرسل إلى سيف الدولة يطلب الأمان لنفسه وأهله وأمواله، فأجابه إلى ذلك، ومنحه مهلة أيام سبعة للخروج من القلعة جمع خلالها إسماعيل كلّ ما يمكنه حمله مما يعزّ عليه واصطحبه معه. أما ما لم يقدر على حمله فقد أجرى الماء عليه وأتلفه.(٣)

وهكذا تمكّن سيف الدولة صدقة من السيطرة على مدينة البصرة وأعادها إلى حكم السلطان محمد السلجوقي.

الدروس مستقاة:

أ - بسبب الحروب الخاصة بين السلاطين السلاجقة تمكّن بعض الولاة، ومنهم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩١.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.

إسماعيل المذكور، من الاستقلال بولاياتهم ومدنهم. فالاستقرار الداخلي في الدولة هو الذي يمكّنها من الانصراف لضبط أمن أطرافها والسيطرة على مختلف مناطقها وسكانها.

ب - لجأ سيف الدين صدقة بن مزيد إلى خدعة استراتيجية عند توجّه جيشه لحصار البصرة بإظهاره أنه يريد الرحبة وليس الهدف المحدد له. لذلك لم يشعر إسماعيل إلاّ وجيش سيف الدولة قد أصبح بجوار البصرة. فإخفاء النوايا عن العدو هو من قواعد الفن العسكري المعتمدة لتحقيق النصر.

لذلك، تسعى الجيوش الحديثة إلى معرفة نوايا العدو ومخططاته قبل تنفيذها. ومن هنا يأتي دور الاستخبارات العسكرية الاستراتيجية التي تجنّد عملاء لها داخل صفوف العدو. كما أنّ ما يسمى بـ«الطابور الخامس»، والذي يعمل عادة خلال العمليات العسكرية داخل الخطوط العدوّة، يكلّف بنقل كلّ المعلومات التي تتوافر لديه إلى القيادة الصديقة التي تقوم بجمع هذه المعلومات وتحليلها ومقارنتها مع معلومات عملاء آخرين ومقاطعتها واستخلاص الحقيقة منها عن العدو. وهذه الحقيقة التي تتعلّق بأسرار العدو ومخططاته تكون مفيدة جداً في تحضير الخطط العسكرية المناسبة من قبل القيادة الصديقة.[1]

ج - أما إسماعيل صاحب البصرة فقد كان حضّر معركته في زمن السلم تمهيداً لخوضها في زمن الحرب، وذلك من خلال بناء القلاع وتحصينها وشحنها بالمقاتلين. كما أنه اعتقل وجوه العباسيين والعلويين وقاضي البصرة وأعيان أهلها. ولهذا التدبير هدفان.

- الأول، منع هؤلاء عن التجسس والعمل لمصلحة خصمه الذي يؤيدونه، كون اسماعيل كان قد استولى على المدينة بالخدعة، لذلك فهو يُعتبر خارجاً على الشريعة التي ينصرها الذين اعتقلهم.

(١) للمزيد من التفاصيل عن عمل المخابرات يمكن مراجعة موسوعة «عالم المخابرات»، من إنتاج دار نوبليس، سنة ٢٠٠٥.

- الثاني، الضغط على سيف الدولة من خلال التهديد بقتل المعتقلين والذين هم من أنصار السلطان السلجوقي، ودفعه للتراجع عن حصار المدينة.

إلاّ أن إسماعيل لم يأخذ في الاعتبار المبدأ القائل: «إن الحرب صراع إرادات». فالذي يثبت إلى النهاية ينجح وينتصر. وهذا ما فعله سيف الدولة الذي أصرّ على متابعة الحصار رغم نصيحة اخصائه برفعه بسبب منعة أسوار المدينة.

د - أظهر سيف الدولة بُعد نظر وتخطيطاً متقناً عندما أمّن عناصر حامية البصرة الذين أُسروا وأُحضروا إليه. وهذا ما دفع بالقائد إسماعيل للكف عن متابعة المقاومة وتسليم قلعة المدينة إلى سيف الدولة. فالمعاملة الحسنة للأسرى تدفع الذين ما زالوا يقاومون إلى عدم اعتماد مبدأ «القتال حتى النفس الأخير». وهذا ما يسهّل مهمّة الجيش المهاجم.

هـ - إلاّ أن ما يحيّر المراقب العسكري لهذه المعركة هو خروج إسماعيل من المدينة المحصّنة جيداً لقتال جيش صدقة، فيما كان في إمكانه متابعة المقاومة من داخلها نظراً لتوافر الزاد والمياه فيها. وهذا ما سمح لبعض القوات المهاجمة بالدخول إلى البصرة وتسلّمها.

لقد سجّلت حالات عديدة كهذه الحال. ويعود السبب، ربما، إلى ثقة القائد المحاصر بقوّة جنده واعتقاده بإمكان انتصاره على خصمه خارج الأسوار. لكنّ هذا الاعتقاد يكون خاطئاً أحياناً.

١٢ - عدم اتفاق القادة المسلمين على محاربة الفرنجة

في شهر رمضان من السنة تسع وتسعين وأربعمائة قرّر الملك رضوان بن تتش التوجّه إلى قتال الفرنجة فاجتمع معه الأمراء:(١)

- إيلغازي بن أُرتق صاحب بغداد.
- الاصبهبذ صباوو.
- ألبي بن ارسلان تاش صاحب سنجار، وهو صهر القائد جكرمش صاحب الموصل.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٢.

إلاّ أن هؤلاء القادة رأوا وجوب مهاجمة الموصل وتملّكها والاستقواء بعسكرها وأموالها على محاربة الفرنجة. لذلك ساروا إلى نصيبين في عشرة آلاف فارس وحاصروها.(١)

أما جكرمش، فلما علم بحصار نصيبين، توجّه إليها وخيّم على بابها واستعمل المخادعة على جبهتين.

أ - كاتب أعيان عسكر رضوان حتى أفسد نياتهم عليه.

ب - أرسل إلى الملك رضوان يطلب الدخول في طاعته شرط محاربة القائد إيلغازي.

وأكد جكرمش أنه سيمدّه بالرجال والأموال والسلاح في قتاله ضد إيلغازي.(٢)

أكمل ابن الأثير رواية احداث القتال الذي تواجه فيه القادة المسلمون بدلاً من التوجّه إلى قتال الفرنجة، فكتب:(٣)

«فاتفق هذا ورضوان قد تغيّرت نيته مع أيلغازي فازداد تغيراً وعزم على قبضه. فاستدعاه يوماً وقال له: «هذه بلاد ممتنعة وربما استولى الفرنج على حلب، والمصلحة مصالحة جكرمش واستصحابه معنا، فإنه يسير بعساكرِ كثيرة ظاهرة التجمل ونعود إلى قتال الفرنج، فإن ذلك مما يعود باجتماع شمل المسلمين». فقال له أيلغازي: «إنك جئت بحكمك، وأنت الآن بحكمي لا أمكنك من المسير بدون أخذ هذه البلاد، فإن أقمت وإلا بدأت بقتالك». وكان أيلغازي قد قويت نفسه بكثرة من اجتمع عنده من التركمان، وكان الملك رضوان قد واعد قوماً من أصحابه ليقبضوا عليه. فلما جرى ما ذكرناه أمرهم رضوان فقبضوا عليه وقيدوه. فلما سمع التركمان الحال أظهروا الخلاف والامتعاض ففارقوا رضوان والتجؤوا إلى سور المدينة، وأصعد أيلغازي إلى قلعتها وخرج من بنصيبين من العسكر فأعانوه. فلما رأى التركمان ذلك تفرّقوا ونهبوا ما قدروا عليه من المواشي وغيرها ورحل رضوان من وقته وسار إلى حلب. وكان جكرمش قد رحل من

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨١.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٩ - ٨٠.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٢ - ٩٣.

الموصل قاصداً الحرب. فلما بلغ تل يعفر أتاه المبشرون بانصراف رضوان على اختلاف وافتراق، فرحل عند ذلك إلى سنجار ووصلت إليه رسل رضوان تستدعي منه النجدة ويعتذ عليه ما فعل بأيلغازي. فأجابه مغالطة ولم يف له بما وعده ونازل سنجار ليشفي غيظه من صهره ألبي بن أرسلان تاش بما اعتمده من معاداته ومظاهرة أعدائه. وكان ألبي على شدّة من المرض بالسهم الذي أصابه على نصيبين، فلما نزل جكرمش عليها أمر ألبي أصحابه أن يحملوه إليه في محفّة فحضر عنده وأخذ يعتذر مما كان منه، وقال: «جئت مذنباً فافعل بي ما تراه». فرقّ له وأعاده إلى بلده، فلما عاد قضى نحبه. فلما مات عصى على جكرمش من كان بسنجار وتمسّكوا بالبلد فقاتله بقية رمضان وشوال ولم يظفر منهم بشيء. فجاء تميرك أخو أرسلان تاش عم ألبي فأصلح حاله مع جكرمش وبذل له الخدمة فعاد إلى الموصل».

الدروس المستقاة:

- يمكننا استخلاص دروس مفيدة من هذا النص الذي أوردنا، ومنها:

أ - رغم أن الخطر الخارجي يجمع عادة القوى الداخلية ويوحدها في وجه الطامع الخارجي، ورغم القاعدة التي تنص على أن «في الاتحاد قوّة»، فإن الخطر الفرنجي الذي هدّد القوى الإسلامية الشرقية لم يوحّد القادة الذين وردت اسماؤهم في النص، بل اختلفوا في ما بينهم، فلم يتمكّنوا من تهديد المصالح الفرنجية.

- هذا المثال يؤكّد ما سبق وأوردناه من أن الخلافات الداخلية بين القادة المسلمين ساهمت في تحقيق أهداف الحملات الصليبية على الشرق. لكن بعض القادة المسلمين تمكّنوا لاحقاً من جمع الجهود وتوحيدها، فاستطاعوا مقارعة الصليبيين والانتصار عليهم في معارك عدّة، وصولاً إلى إخراجهم نهائياً من الشرق. ومن هؤلاء القادة نذكر على سبيل المثال:

- نور الدين زنكي.
- صلاح الدين الأيوبي.
- الظاهر بيبرس المملوكي.

ب - بالإضافة إلى ذلك، يحار القارئ من سرعة تبدّل الاحلاف بين القادة. فالملك رضوان وإيلغازي كانا يحاربان جكرمش

ومعهما صهره تاش. ثمّ اتفق رضوان وجكرمش على محاربة إيلغازي. ثمّ فارق التركمان جيش رضوان والتجأوا إلى معسكر جكرمش داخل المدينة. ثمّ رحل رضوان وهو على خلاف مع جكرمش الذي قصد صهره تاش وقاتله، ثمّ عفا عنه. وبعد وفاة تاش عصى من كان بسنجار على جكرمش.

ويتساءل المراقب: كيف يمكن لمن هذه أحوالهم محاربة عدوّهم المشترك والانتصار عليه؟!

١٣ - ملك طغتكين مدينة بصرى

في السنة سبع وتسعين وأربعمائة للهجرة خرج بكتاش بن تتش واتصل بالفرنجة، ومعه آيتكين الحلبي صاحب بصرى. وسار القائدان إلى الرحبة، لكنهما لم يتمكّنا منها فعادا إلى بصرى. ولما ضعفت أحوال القائدين في بصرى، سار طغتكين صاحب دمشق إليها بجيش كبير، فحاصرها وشدّد الحصار عليها.

راسل أصحاب آيتكين طغتكين وقبلوا بتسليم المدينة له، إنما بعد أجل تمّ الاتفاق بينهم عليه، فأجابهم إلى ذلك ورحل عنهم إلى دمشق. وفي السنة تسع وتسعين وأربعمائة للهجرة انقضى الأجل، فقصد طغتكين بصرى وتسلّمها من أصحاب آيتكين وأحسن إلى من بها ووفى لهم بما وعدهم، فمالت النفوس إليه.(١)

التقييم:

- من النادر أن يحصل في حروب حصار المدن ما حصل في مدينة بصرى، إذ قد سبق وعالجنا أمثلة عديدة من هذا النوع من القتال الذي كان ينتهي بأحد حلول ثلاثة:
- اما أن يتمكّن الجيش المحاصر من فتح المدينة عنوة فيستبيحها لجنده.
- أو يعجز عن فتح المدينة فيتراجع عنها مهزوماً، وربما ليعود إليها مرّة أخرى.
- أو يقبل المدافعون عن المدينة بتسليمها صلحاً للقائد الغازي الذي يدخل المدينة من دون نهبها ومصادرتها.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٣.

أما في حال محاصرة طغتكين لمدينة بصرى فقد تمّ الاتفاق بينه وبين أهلها على تسليمها له صلحاً بعد مدّة محددة من الزمن. وهذا ما حصل فعلاً إذ التزم الفريقان بشروط الاتفاق. فالعقد هو شرعة المتعاقدين.

١٤ – نهب قبيلة ربيعة لمدينة البصرة

كان الأمير صدقة بن مزيد قد استولى على مدينة البصرة[1] وسلّم قيادتها لأحد مماليك جده دبيس بن مزيد واسمه «التونتاش»، وجعل معه مائة وعشرين فارساً لحفظها. وفي السنة تسع وتسعين وأربعمائة للهجرة اجتمعت قبيلة ربيعة ومن انضمّ إليها من العرب وقصدوا البصرة في جيش كبير فحاصروها وجرى قتال شديد مع حاميتها التي دافعت عنها بقيادة التونتاش.

لم تستطع الحامية منع ربيعة عن تسلّق أسوار المدينة، فانهزمت وأسر التونتاش. ودخل المقاتلون القبليون البصرة فأعملوا السيف في سكانها في أواخر ذي القعدة وأحرقوا الأسواق والدور، ونهبوا ما قدروا عليه مدّة اثنين وثلاثين يوماً، وفق ابن الأثير، فتشرّد أهل البصرة في السواد.[2]

أرسل الأمير صدقة جيشاً إلى البصرة فوصلها بعد أن فارقتها ربيعة. ثمّ ان السلطان محمد السلجوقي أرسل أميراً إلى البصرة فتسلّمها من صدقة، وعاد أهلها إليها وأعادوا عمارتها.

ملاحظة:

– هذه الحادثة تظهر أن العقلية القبلية كانت ما تزال متفشية لدى بعض القبائل العربية التي بقيت تمارس أعمال الغزو والنهب خلال هذه المرحلة من مراحل التاريخ العربي.

(١) راجع تفاصيل استيلاء صدقة على البصرة في الفقرة ١١ من هذا القسم.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٥.

١٥ – القتال بين قبيلتي عبادة وخفاجة

في السنة خمسمائة للهجرة نشبت حروب كثيرة بين قبيلتي عبّادة وخفاجة، فقهرت عبادة خفاجة وأخذت بثأرها لهزيمتها في السنة الماضية.[١]

وتفاصيل الأحداث أن سيف الدولة صدقة أرسل جيشاً بقيادة ابنه بدران إلى أطراف بلاده مما يلي البطيحة ليحميها من قبيلة خفاجة التي مارس مقاتلوها الأذية على أهل تلك النواحي.

استدعى بدران عبادة وطلب منهم الانضمام إلى جيشه لمقاتلة قبيلة خفاجة والأخذ بثأرهم منها.

وبالفعل سار مقاتلو عبادة إلى بني كليب الذين ينتمون إلى خفاجة وهاجموهم في غفلة حيث جرى قتال عنيف بينهما قبل أن يصل جيش الأمير بدران الذي انضمّ إلى عبادة في القتال الذي انهزمت خلاله خفاجة وقتل العديد من رجالها ونهبت أموالهم. ثمّ نزحت خفاجة إلى البصرة وأقامت عبادة في بلادها.[٢]

١٦ – الحرب للسيطرة عن الموصل

كان القائد جاولي سقاوو قد استولى على البلاد التي بين خوزستان وفارس وأقام فيها أعواماً وعمّر قلاعها وحصّنها، لكنه أساء السيرة في أهلها واضطهدهم، من قطع الأيدي إلى جدع الأنوف وسمل الأعين. فلما تمكن السلطان محمد من السلطنة، أرسل جيشاً بقيادة مودود بن التونكين لاستعادة ما استولى عليه جاولي الذي تحصّن، وحاصره مودود مدّة ثمانية أشهر من دون أن يتمكّن منه.[٣]

أرسل جاولي إلى السلطان: «انني لا أنزل إلى مودود، فإن أرسلت غيره

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٠١ – ١٠٢.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٨.

نزلت».[1] أرسل السلطان أميراً آخر فسلّمه جاولي ما كان قد استولى عليه، وقصد السلطان الذي كلّفه بمحاربة الفرنجة واقطعه الموصل وديار بكر والجزيرة.[2]

ولما كانت الموصل من أعمال القائد جكرمش، فقد أصبح الصدام بينه وبين جاولي قريباً. وهكذا سار جاولي من بغداد في ربيع الأول من السنة خمسمائة للهجرة إلى الموصل، وجعل طريقه على البوازيج التي حاصرها وملكها، ثمّ سار إلى إربل.

أما جكرمش، فلما بلغه مسير جاولي إلى بلاده، كتب إلى ولاته يأمرهم بجمع الجنود. ثمّ بادر بالعبور إلى شرقي دجلة وسار في جند الموصل بعدما عززه أبو الهيجاء صاحب إربل بالعساكر، فبلغ عدد جيشه الفي فارس، فيما بلغ جيش جاولي ألف فارس فقط.[3]

وقع القتال في قرية باكلبا من أعمال الموصل. فبعد أن اصطفّ الجيشان للمواجهة، حمل جاولي من القلب على قلب جيش جكرمش فانهزم من فيه وبقي جكرمش وحده كونه لا يستطيع الهرب بسبب فالج كان به. وقد قاتل للدفاع عنه عدد من الجنود قتلوا جميعهم، فوقع أسيراً في يد جاولي الذي أمر بحفظه وحراسته.[4]

لمّا بلغ خبر هزيمة جكرمش إلى حامية الموصل، بايع أهل الموصل ابنه زنكي بن جكرمش وعمره إحدى عشرة سنة، وخطبوا له. وعيّن القائد غزغلي[5] قائداً لقلعة المدينة ففرّق الأموال والخيول على الجند وطلب مساعدة سيف الدولة صدقة وقلج ارسلان[6] والبرسقي شحنة[7] بغداد.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٠٢.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٢.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٧٩.
(٥) غاز غلي كان مملوكاً لجكرقش.
(٦) في ابن خلدون: قليج وهو ملك سلطنة الروم.
(٧) شحنة أي قائد أو والي.

حاصر جاولي الموصل بعد أن كثر جيشه واعتمد طريقة غير إنسانية في الضغط على حاميتها. فعندما رأى أن سور الموصل قد شيّد مجدداً وعزّز وبنيت عليه الأبراج وحُفر خندق حوله، أمر بأن يحمل جكرمش كلّ يوم على بغل وينادى على أصحابه بالموصل ليسلموا المدينة ويخلصوا قائدهم مما هو فيه. وكان يسجنه في جبٍ ويوكل به من يحفظه لئلا يسرق، لكنه أخرج في أحد الأيام ميتاً، فلم يعد بإمكان جاولي استغلال وضعه للضغط على المحاصرين داخل مدينة الموصل.(١)

أ - ملك قلج ارسلان الموصل:

كان الأمير غزغلي قائد حامية الموصل قد استنجد في دفاعه عن المدينة بكلّ من صدقة وقلج ارسلان والبرسقي. لبى الدعوة قلج ارسلان صاحب سلطنة الروم فسار إلى نصيبين حيث كثر جمعه. فلما سمع جاولي باقترابه تراجع عن حصار مدينة الموصل، حيث أتاه كتاب الملك رضوان يستدعيه إلى الشام بسبب عجز حاميتها عن ردّ جموع الفرنجة الذين كانوا يهاجمونها بقصد احتلالها، فسار إلى الرحبة واستولى عليها.(٢)

أرسل أهل الموصل وجندها يستدعون قلج ارسلان الذي سار معهم بجيشه إلى الموصل فملكها في الخامس والعشرين من رجب وأسقط الخطبة للسلطان محمد السلجوقي وخطب لنفسه بعد الخليفة وتسلّم القلعة من الأمير غزغلي. وكان في جيش قلج ارسلان القائدان التركمانيان إبراهيم بن ينال صاحب آمد ومحمد بن جبق صاحب حصن زياد.(٣)

ب - فتح جاولي للموصل ومقتل قلج ارسلان:

لمّا حاصر جاولي الرحبة طلب مساعدة الملك رضوان، بعدما وعده بمساعدته في قتال

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٠٣.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٣.

(٣) حصن زياد بالقرب من الرها.

ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٠.

الفرنجة بعد الانتهاء من معركته. فحضر رضوان في جيش كبير وحاصر المدينة وشدّدا الحصار عليها إلى أن فتحت باستعمال خدعة كتب عنها ابن الأثير ما يلي:(١)

«واتفق جماعة كانوا بأحد الأبراج وأرسلوا إلى جاولي واستحلفوه على حفظهم وحراستهم. وأمروه أن يقصد البرج الذي هم فيه عند انتصاف الليل ففعل ذلك. فرفع من في البرج أصحابه إليهم في الحبال فضربوا بوقاتهم وطبولهم فخذل من في البلد ودخله أصحاب جاولي في اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان ونهبوه إلى الظهر. ثمّ أمر برفع النهب ونزل إليه محمد الشيباني صاحب البلد وأطاعه وصار معه».

أما المعركة بين جيش قلج ارسلان وجيش جاولي والتي انتصر فيها هذا الأخير، فقد فصّلها ابن الأثير، وصولاً إلى فتح الموصل وتسلّمها من قبل جاولي باسم السلطان محمد السلجوقي، فكتب:(٢)

«ثمّ إن قلج أرسلان، لما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جاولي سقاوو ليحاربه، وجعل ابنه ملكشاه في دار الإمارة وعمره إحدى عشرة سنة ومعه أمير ايدبر وجماعة من العسكر. وكانت عدّة عسكره أربعة آلاف فارس بالعدة الكاملة والخيل الجيدة. وسمع العسكر بقوة جاولي فاختلفوا، وكان أول من خالف عليه إبراهيم بن ينال صاحب آمد فانه فارق خيامه وأثقاله وعاد من الخابور إلى بلده، وكذلك غيره. وعمل قلج أرسلان على المطاولة لما بلغه من قوّة جاولي وكثرة جموعه. وأرسل إلى بلاده يطلب عساكره لأنها كانت ملك الروم نجدة له عن قتال الفرنج كما ذكرناه، فلما وصل إلى الخابور بلغت عدّته خمسة آلاف. وكان مع جاولي أربعة آلاف من جملتهم الملك رضوان وجماعة من عسكره، إلاّ أن شجعانه أكثر. واغتنم جاولي قلّة عسكر قلج أرسلان فقاتله قبل وصول عساكره إليه فالتقوا في العشرين من ذي القعدة، فحمل قلج

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٠٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٦ – ١٠٧.

أرسلان على القوم بنفسه حتى خالطهم فضرب يد صاحب العلم فأبانها. ووصل إلى جاولي بنفسه فضربه بالسيف فقطع الكزاغند ولم يصل إلى بدنه. وحمل أصحاب جاولي على أصحابه فهزموهم واستباحوا نقلهم وسوادهم. فلما رأى قلج أرسلون انهزام عسكره علم أنه إن أسر فعل به فعل من لم يترك للصلح موضعاً لا سيما وقد نازع السلطان في بلاده واسم السلطنة. فألقى نفسه في الخابور وحمى نفسه من أصحاب جاولي بالنشاب فانحدر به الفرس إلى ماء عميق فغرق وظهر بعد أيام فدفن بالشمسانية وهي من قرى الخابور. وسار جاولي إلى الموصل، ولما وصل إليها فتح أهلها له بابها ولم يتمكّن من بها من أصحاب قلج أرسلان من منعهم ونزل بظاهر البلد. وأخذ كلّ واحد من أصحاب جكرمش الذي حضر الوقعة مع قلج أرسلان إلى جهة. فلما ملك جاولي الموصل أعاد خطبة السلطان محمد وصادر جماعة من بها من أصحاب جكرمش. وسار إلى جزيرة ابن عمر وبها حبشي بن جكرمش ومعه أمير من غلمان أبيه اسمه غزغلي فحصره مدّة ثمّ إنهم صالحوه وحملوا إليه ستة آلاف دينار وغيرها من الدواب والثياب. ورحل عنهم إلى الموصل وأرسل ملكشاه بن قلج أرسلان إلى السلطان محمد».

ج - الدروس المستقاة:

١ - الملاحظ من مجرى الحرب للسيطرة على الموصل تغيّر ولاء القادة. فجاولي، الذي خرج على السلطان محمد، عاد واعترف به فثبته على إقطاعات الموصل وديار بكر والجزيرة، وكلّفه بالسيطرة على الموصل، التي كان القائد جكرمش قد استولى عليها. ففي مرحلة سلطنة محمد السلجوقي، كما في مرحلة سلطنة بركيارق، لم تكن الخلافة أيضاً تسيطر على كلّ أرجاء العالم الإسلامي الشرقي.

عاد جاولي واتفق مع الملك رضوان الذي ساعده في فتح الموصل. ثمّ اختلف معه فتحالف كلّ منهما مع أمير صليبي ضدّ غريمه المسلم. وهذا ما سنتكلّم عنه لاحقاً.

٢ - رغم أن عديد جيش جكرمش كان يفوق بضعفين عدد جيش جاولي، فإن اقدام هذا الأخير على قيادة فرقة قلب جيشه في

هجوم عام، أدى إلى زحزحة قلب جيش الخصم، وبالتالي هزيمته.

فاقدام القائد وإعطاؤه المثل الصالح لجنده من أهم عوامل نجاح مناورته. فالقادة الذين كانوا يسيرون دائماً في طليعة جيوشهم عند مبادرتها بالقتال، كانوا ينجحون في قتالهم، وصنّفهم التاريخ العسكري من كبار القادة العالميين أمثال هنيبعل والاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر وخالد بن الوليد وتيمورلنك...

٣ - استعمل جاولي طريقة غير إنسانية في الضغط على حامية الموصل، وذلك من خلال استغلال وضع خصمه الأسير والتشهير به وحمله على بغل وعرضه أمام الحامية، وذلك بهدف دفعها للخروج من المدينة لفك أسر قائدها، مما سيعرّضها لهجوم جيشه الذي يحاصر الموصل.

لقد سبق وسجّلنا حالات عديدة قام خلالها القادة باستغلال وضع أسراهم، فعذبوهم أو سملوا أعينهم، أو حتى قتلوهم بعد تأمينهم لهم. فخلال هذه المرحلة من الزمن لم تكن هناك اتفاقات دولية تحمي الأسير. فمعاهدة جنيف، وعمل لجان الهلال الأحمر والصليب الأحمر، واهتمام المنظّمات الدولية بأسرى الحرب، قد جاءت لاحقاً. أما في زمن الحروب التي نتكلّم عنها في هذا الجزء من الموسوعة، فكان وضع الأسير مرتبطاً بمزاجية آسره وإنسانيته.

فجكرمش الذي عامله جاولي بهذه الطريقة المذلّة كان من كبار القادة المسلمين الذين أعطوا العالم الإسلامي يومذاك العديد من الإنجازات على الصعد العسكرية والإدارية والسياسية. وها هو يحتجز في جب فيه شوك وأغصان، ويوكل أحد المقاتلين بحراسته كي لا يسرق، وفق ما نقل ابن الأثير.

حالياً تستند الدول والجيوش إلى معاهدة جنيف والقوانين الدولية التي ترعى شؤون أسرى الحرب. ورغم ذلك ما زالت تسجل حالات عديدة من التجاوزات في هذا الميدان. وآخرها ما نقل عن تعذيب السجناء العراقيين في سجن أبو غريب على أيدي القوات الأميركية، والتي فضحتها الصحافة. وقد جرت في الولايات المتحدة محاكمات للجنود الذين قاموا بأعمال التعذيب المذكورة، وبينهم إحدى المجندات.

٤ - اعتمد بعض القادة المسلمين خلال هذه المرحلة افضلية محاربة بعضهم البعض بدلاً من مقاتلة الفرنجة الذين كانوا يهددون مدينة دمشق. فقلج ارسلان حاصر الموصل وتسلّمها. وجاولي حاصر الرحبة واحتلّها، بعد أن طلب مساعدة الملك رضوان الذي حضر مع جيشه وحاصرا المدينة فسقطت. ووعد جاولي الملك رضوان بمساعدته لاحقاً في محاربة الفرنجة، لكن هذا الوعد بقي من دون تنفيذ. فقد نقل ابن خلدون أن جاولي أطلق الكونت الفرنجي بردويل صاحب الرها وسروج[1] الذي كان أسيراً في الموصل.[2]

أما الملك رضوان، فانه كتب إلى طنكري الفرنجي صاحب انطاكية يحذّره من جاولي بعد أن اختلف معه. كتب ابن الأثير:[3]

«وفي هذه السنة[4] في صفر كان المصاف بين جاولي سقاوو وبين طنكري الفرنجي صاحب أنطاكية. وسبب ذلك أن الملك رضوان كتب إلى طنكري صاحب أنطاكية يعرّفه ما عليه جاولي من الغدر والمكر والخداع، ويحذّره منه ويعلمه أنه على قصد حلب وأنه إن ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام، وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه. فأجابه طنكري إلى منعه وبرز من أنطاكية فأرسل إليه رضوان ستمائة فارس. فلما سمع جاولي الخبر أرسل إلى القمص صاحب الرها يستدعيه إلى مساعدته وأطلق له ما بقي عليه من مال المفاداة، فسار إلى جاولي فلحق به وهو على منبج».

هذا النص يظهر، بما لا يقبل الشك، أن التحالفات بين القادة لم تكن دائماً في الجانب الصحيح.

٥ - اغتنم جاولي قلّة عدد عسكر قلج ارسلان فقاتله قبل وصول النجدات إليه فانتصر عليه. وقد طبّق جاولي المبدأ الثاني من مبادىء الحرب، الذي ينص على وجوب تأمين «حرية العمل» خلال المعركة. فهو الذي فرض زمان المعركة وذلك قبل

(١) سروج بلدة قريبة من حرّان في ديار مضر.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٤.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) سنة ٥٠٢ هـ.

اكتمال عديد جيش خصمه. فحرية العمل تكون مؤمنة عندما يكون في إمكان القائد زج كلّ وحداته في المعركة قبل انتهائها.

والمثال العالمي على أن عدم تأمين حرية العمل قد يؤدي إلى خسارة المعركة جاءنا من معركة واترلو، التي خسرها نابوليون بونابرت لأن احتياطه الاستراتيجي بقيادة الجنرال غروشي لم يصل إلى المعركة في الوقت المناسب.

٦ - بعد حصار جاولي والملك رضوان الرحبة وتشديد الحصار عليها من دون التمكّن من فتحها، اتفق جاولي مع جماعة كانوا مسؤولين عن الدفاع عن أحد الأبراج، على تسليمه البرج ليلاً. فأقدم هؤلاء على خيانة قيادتهم ورفعوا أصحاب جاولي بالحبال إلى البرج فملكوه. وهذا ما أدى إلى سقوط المدينة في يد جيش جاولي.

سبق وأوردنا في هذه الموسوعة روايات عن حالات أخرى جرى خلالها تسليم المدن المحاصرة بخيانة القيّمين على أحد أبراج أسوارها. هذه الخيانة قد تحصل في أي معركة، لذلك تعمد القيادة العسكرية عادة إلى مراقبة رجالها وقادتهم مراقبة دقيقة كي تكشف نواياهم في حال قرروا الخروج عن طاعتها، فتُحبط محاولتهم قبل تنفيذها. أما الجهاز المكلّف بهذه المهمّة فهو جهاز المخابرات العسكرية الذي يجنّد عملاء له من بين أفراد مختلف الوحدات العاملة ضمن إطار مسؤوليته.

وحالياً يكلّف جهاز المخابرات العسكرية ضابطاً في كلّ قطعة من قطع الجيش بهذه المهمّة، يسمى ضابط أمن القطعة، الذي يجنّد مخبرين له في كلّ فصيلة من فصائلها، ويرفع هؤلاء تقارير دورية إلى ضابط الأمن الذي يدرسها ويعالجها ويرفعها بدوره إلى جهاز المخابرات العامة.

علاوة على ذلك، يشكل جهاز المخابرات شبكة مخبرين أخرى ترتبط به مباشرة وتنقل إليه أخبار ما يحدث في القطعة التي تفيد هكذا من خدمات شبكتين متوازيتين أو أكثر، فيصعب على الذين يريدون الخروج عن الطاعة تنفيذ مخططاتهم.

١٧ – حملة السلطان محمد على الباطنية

كان السلطان ملكشاه قد بنى قلعة بالقرب من أصبهان على رأس جبل ودعاها «قلعة شاهدز». نقل ابن كثير سبب بناء هذه القلعة من قبل والد السلطان محمد، فكتب:[١]

«وكان سبب بنائه لها أنه كان مرّة في بعض صيوده، فهرب منه كلب، فتبعه إلى رأس الجبل فوجده. وكان معه رجل من رسل الروم، فقال الرومي: «لو كان هذا الجبل ببلادنا لاتخذنا عليه قلعة»، فحدا[٢] هذا الكلام السلطان إلى أن ابتنى في رأسه قلعة انفق عليها ألف ألف دينار، ومائتي ألف دينار. ثمّ استحوذ عليها رجل من الباطنية يقال له أحمد بن عبدالله بن عطاء».[٣]

ووصف ابن الأثير وضع القلعة وصاحبها عندما قرّر السلطان محمد مهاجمتها، فكتب:[٤]

«وكان ابن عطاش جاهلاً لا يعرف شيئاً. وقيل لابن الصبّاح صاحب قلعة ألموت:[٥] «لماذا تعظّم ابن عطاش مع جهله؟» قال: «لمكان أبيه لأنه كان أستاذي».

وصار لابن عطاش عدد كثير، وبأس شديد واستفحل أمره في القلعة، فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وسلب الأموال، فقتلوا خلقاً كثيراً لا يمكن احصاؤهم، وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفّوا عنها الأذى. فتعذّر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم، وتمشى لهم الأمر بالخُلف الواقع بين السلطانين بركيارق ومحمد...».

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٢.

(٢) حدا: حمل.

(٣) في ابن الأثير: بن عطاش، وهو الصحيح.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٠٧.

(٥) هو حسن الصباح، شيخ الجبل وزعيم الباطنية.

فلما انتهى السلطان محمد من الحروب الداخلية، قرّر السنة خمسمائة للهجرة شن حملة قوية على الباطنية على أن يبدأ بقلعة أصبهان كونها متحكّمة بسرير ملكه.(١)

وهكذا، خرج السلطان محمد بنفسه في السادس من شعبان في جيش كبير وصعد جبلاً يواجه القلعة من غربها. واستدعى الأمراء من أصبهان، فجاءته حشود كثيرة من الجند فأحاطوا بالقلعة وحاصروها من كلّ الجهات، فبلغت دائرة الحصار أربعة فراسخ.(٢)

ورتّب السلطان الأمراء للقتال، فكان يقاتل كلّ يوم أميرٌ، فضاق الأمر بهم وتعذّرت عليهم الأقوات.

وهنا اقترح الباطنيون أن يرسل إليهم السلطان من يناظرهم في الفقه، وذلك بقصد تطويل مدّة مقاومة الحصار، فبعث إليهم من ناظرهم من دون نتيجة.

ثمّ شدّد السلطان الحصار فأذعنوا وقبلوا بتسليم القلعة، على أن يعطوا عوضاً عنها قلعة أخرى يحتمون فيها نظراً لما للناس عليهم من ثارات. ووضع الباطنية شروطاً أخرى للخروج من القلعة صلحاً، وهي:(٣)

- إن قال عنهم أحد شيئاً يسلمه إليهم.
- يرد إليهم من يلجأ إليه منهم.
- يحمل إليهم من الزاد ما يكفيهم يوماً بيوم.

وقصد الباطنيون من هذه الشروط المطاولة انتظاراً لحادث ما.

ثمّ انهم كلفوا من أصحابهم من يقتل أميراً كان يبالغ في قتالهم، فوثبوا عليه وجرحوه، فقرر السلطان الانتهاء من الأمر وشدّد الحصار على القلعة، فرضي الباطنيون بالخروج منها بشروط هي:(٤)

- يخرج قسم منهم فيرسل السلطان معهم من يحميهم إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر في أرجان.(٥)

(١) كان الناس يتشاءمون من هذه القلعة ويقولون: كان دليلها كلباً والمشير بها كافراً، والمتحصّن بها زنديقاً.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٢.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٠٨ - ١٠٩.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) هي إحدى قلاعهم.

بعد ذلك يخرج قسم آخر من القلعة فيواكبهم جند السلطان إلى قلعة طبس.

يقيم القسم الباقي منهم في أحد أقسام القلعة في انتظار ورود أخبار عن رفاقهم الذين خرجوا، فيخرجون بدورهم من القلعة، فيرسل السلطان معهم من يوصلهم إلى ابن الصبّاح في قلعة ألموت.

قبل السلطان بشروطهم ونفّذها. لكن الذين بقَوا في القلعة رفضوا تسليمها، فقرّر السلطان أخذها عنوة.

كتب ابن الأثير عن المعركة النهائية للسيطرة على القلعة:[1]

«ثمّ إن الذين ساروا إلى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن[2] الذي بقي بيده. ورأى السلطان منه الغدر والعود عن الذي قرّره، فأمر بالزحف إليه فزحف الناس عامة ثاني ذي القعدة. وكان قد قلّ عنده من يمنع ويقاتل فظهر منهم صبر عظيم وشجاعة زائدة. وكان قد استأمن إلى السلطان إنسان من أعيانهم فقال لهم: «إني أدلّكم على عورة لهم»، فأتى بهم إلى جانب لذلك السن لهم لا يرام فقال لهم: «اصعدوا من ههنا». فقيل: «إنهم قد ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال»، فقال: «إن الذي ترون أسلحة وكزا غندات قد جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم». وكان جميع من بقي ثمانين رجلاً فزحف الناس من هناك فصعدوا منه وملكوا الموضع، وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من دخل فخرجوا معهم. وأما ابن عطاش فإنه أخذ أسيراً فترك أسبوعاً، ثمّ إنه أمر به فشهّر في جميع البلد وسلخ جلده فتجلّد حتى مات وحشي جلده تبناً. وقتل ولده وحمل رأساهما إلى بغداد، وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت، وكان معها جواهر نفيسة لم يوجد مثلها، فهلكت أيضاً وضاعت. وكانت مدّة البلوى بابن عطاش اثنتي عشرة سنة».

الدروس المستقاة:

أ - كان الإسماعيليون الباطنية يسيطرون خلال المرحلة هذه من التاريخ على سلسلة

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٠٩.

(٢) السن أي الجانب من القلعة.

قلاع واقعة على التلال المرتفعة في منطقة أصبهان. وقد مارس هؤلاء الاغتيالات السياسية في العالم الإسلامي، لذلك هابهم الأمراء والقادة. وأفاد الباطنية من الخلافات الداخلية داخل الأسرة السلجوقية بين السلطانين بركيارق ومحمد لفرض قانونهم على المنطقة التي وجدوا فيها، فجمعوا الضرائب من السكان الذين خافوهم ونفذوا رغباتهم. وكان زعيم الحشاشين(١) خلال هذه المرحلة هو شيخ الجبل الشهير حسن الصباح الذي كان يتمركز في قلعة «الموت» التي كانت من أمنع قلاع الباطنية.

ب - طبّق السلطان محمد استراتيجية ناجحة في محاصرة القلعة الحصينة قضت بـ:

* محاصرتها من كلّ الجهات في شكل يمنع الخروج منها، كما يمنع وصول التموين والامدادات إليها. وهكذا طبّق المبدأ الثاني من مبادئ الحرب أي «حرية العمل». فقد تحكّم السلطان بمجرى المعركة، فحافظ على حرية عمله، فيما فقد المحاصرون هذه الحرية. فالوحدة العسكرية الكبرى، عندما تحاصر، ينبغي عليها اعتماد إحدى طريقتين لفك الحصار عنها، وإلاّ أُجبرت على الاستسلام:

- الطريقة الأولى تقضي بقيام الوحدة المحاصرة بهجوم كاسح في اتجاه معيّن، فتدمّر القوى المحاصرة في هذا الاتجاه وتخرج من الحصار مبتعدة عن منطقته.
- الطريقة الثانية تقضي بأن تقوم وحدة صديقة أخرى بفك الطوق، وذلك من خلال قيامها بهجوم عام على إحدى الوحدات التي تنفذ الحصار.

أما في حال لم تتمكّن القيادة العسكرية الصديقة من تنفيذ إحدى المناورتين المذكورتين، فان مصير الوحدة المحاصرة يكون، اما التدمير التام والكامل، أو الاستسلام.

ومن الأمثلة التاريخية عن التطويق والتدمير والاستسلام، نذكر معركة ستالينغراد حين حوصرت قوّة المانية بقيادة

(١) الباطنية سموا أيضاً بالحشاشين لأنهم كانوا يستعملون حشيشة الكيف في السيطرة على أفكار تابعيهم.

الجنرال باوليس بلغ عديدها مليون جندي. وقد باءت بالفشل كلّ المحاولات الالمانية لفك الطوق الذي أقامه الروس في ستالينغراد والذي راحت الوحدات الروسية تنفذ عملية تضييقه. ففيما كانت طائرات التموين الالمانية في بداية العملية تحطّ داخل الطوق ناقلة إلى الوحدات المطوّقة الذخيرة والطعام والمياه، راحت في ما بعد ترمي هذه الطرود التموينية من الطائرة. وأخيراً لم يعد في الإمكان إيصال أي تموين لجيوش الجنرال باوليس الذي استسلم للروس رغم تسميته ماريشالاً من قبل هتلر لدفعه إلى متابعة المقاومة، كونه لم يسبق أن استسلم أي ماريشال الماني قبل ذلك التاريخ إلى أي من أعداء الرايخ الثالث.

ج – حاول الباطنيون تأخير قرار الحسم العسكري، فاعتمدوا الخداع وطالبوا بأن يناظرهم أحد بالفقه. ولما لم يعطِ ذلك نتيجة، وضعوا شروطاً لتسليم القلعة قَبِلَ بها السلطان. لكنهم، ورغم قبوله، حاولوا اغتيال أحد أمرائه، فقرر حَسم المعركة. غير أنه عاد وقبل بخروج بعضهم وتوجههم إلى قلعتين للباطنية، على أن يتم تسليم القلعة بعد التأكّد من وصول هؤلاء إلى مقصدهم. لكنه، ورغم وصولهم، عاد الباطنية ورفضوا الاستسلام.

ونتساءل: لماذا كان هذا التردّد من قبل السلطان؟

ربّما لحقن دماء المسلمين؟ أو لمتانة أسوار القلعة وافتقار جيش السلطان إلى معدات الحصار؟ أو لخوفه من انتقام الحشاشين الذين عُرفوا بغدرهم وباغتيالاتهم لأعدائهم؟ أو ربما لكلّ الأسباب المذكورة؟

إنما، ومهما قيل عن ذلك، فإن السلطان نجح في خرق مخابراتي للمحاصرين، إذ قام أحدهم بإرشاده إلى مكان الخلل في النظام الدفاعي، فاستغلّه ودخل القلعة.

لذلك على القوى المحاصرة التأكّد من عدم وجود ثغرات في جهازها الدفاعي كي لا تتعرّض للمفاجآت. كما عليها تنفيذ دوريات دائمة تجوب الأسوار للتأكد من حسن أداء القيمين عليها.

د – نفذ الباطنية داخل القلعة عملية تمويه كبرى، إذ وضعوا أسلحة ومعدات قتالية وهمية في الجانب غير المدافع عنه من القلعة. هذه العملية تدعى في التكتية الحديثة عملية

«إظهار». فمن عمليات الدفاع السلبي التي ينفذها الجند لخداع العدو تسجل أعمال التمويه التي هي على نوعين:

١ - تمويه الأشخاص والمعدات والأسلحة كي لا يتمكّن العدو من رصدها وتدميرها.

٢ - إظهار أشخاص ومعدات وأسلحة وهمية لهدفين، الأول لإيهام العدو بوجود قوات كبيرة مقابلة له مما يؤثّر في معنوياته؛ والثاني تحويل اهتمامه من المحور الأساسي للعمليات العسكري إلى المحور الوهمي، بحيث يضع جهده الرئيسي في الهجوم في مكان خاطىء فيفشل في مناورته.

لكن هذا الإظهار يفشل في حال تمكن العدو من تجنيد عملاء له داخل الخطوط الصديقة، فيقوم هؤلاء بإفشاء السر الكبير، مما يجنّب العدو الوقوع في الفخ المنصوب له. وفي هذه الحال ينقلب الاظهار فيصبح لمصلحة القوات العدوة، كما حصل في حصار قلعة الباطنية.

ومن الأمثلة عن عمليات الإظهار الكبرى في التاريخ العسكري، نذكر المناورات والعروض التي كان ينفذها الماريشال رومل في صحراء ليبيا لخداع البريطانيين في شأن عدد قواته وآلياته الجاهزة للقتال. وقد أعطت هذه المناورات نتيجة جيّدة خلال مدة طويلة من الزمن.

ومن الأعمال العسكرية التي تدخل في إطار إظهار القوى نذكر القصف المدفعي والجوي والبحري وتنفيذ عمليات هجومية وهمية على المحور الثانوي. كذلك تركيز دبابات ومدافع خشبية تكون مموّهة في شكل سيء، مما يسمح للعدو باكتشافها والاعتقاد بأنها حقيقية ومموّهة وفق ما تفرضه الأنظمة القتالية للجيوش. وهكذا يعتقد العدو بأن الجهد الرئيسي للقوات الصديقة هو في المنطقة التي تتمركز فيها هذه الأسلحة، فيما يكون هذا الاعتقاد خاطئاً، الأمر الذي يسمح للقوات الصديقة بالمناورة بحرية أكبر في المنطقة التي يعتقد العدو أنها شبه خالية من وجود هذه القوات.

١٨ - الحرب بين السلطان محمد وصدقة بن مزيد

كان الأمير سيف الدولة صدقة بن مزيد الاسدي أمير العرب قد عظم شأنه واتسع

جاهه واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم. وكان قد أيّد السلطان محمد في صراعه ضد أخيه السلطان بركيارق، فأقطعه محمد مدينة واسط وأذن له بالاستيلاء على البصرة.(١)

أما سبب الجفاء ما بين السلطان محمد وصدقة، فقد أورده ابن كثير الذي رأى أن السلطان كان قد سخط على أبي دلف سرخاب بن كيخسرو صاحب ساوة وآبة، فهرب منه وقصد صدقة الذي أجاره ورفض تسليمه لنواب السلطان.(٢)

وظهرت من صدقة أمور أخرى أنكرها السلطان الذي قصده في جيش كبير لقتاله. استشار صدقة أصحابه في الطريقة التي يجب اتباعها، فأشار عليه سعيد بن حميد قائد جيشه بالمجابهة، فجمع الجند وفرّق فيهم الأموال فاجتمع إليه عشرون ألف فارس وثلاثون ألف راجل.(٣)

ورفض صدقة الاجتماع بالسلطان الذي وصل إلى بغداد في العشرين من ربيع الآخر السنة إحدى وخمسمائة للهجرة مع جيش لا يتجاوز الالفي فارس، فأرسل يستدعي الأمراء ويأمرهم بالالتحاق به فالتحق به كلّ من:(٤)

- قرواش بن شرف الدولة.
- كرماوي بن خراسان التركماني.
- فضل بن ربيعة بن حازم بن الجراح الطائي الذي هرب من جيش صدقة مع قبيلته والتحق بالسلطان محمد. لكنه عاد وترك جيش السلطان وفرّ إلى الصحراء.

ووقعت بين الجيشين وقائع نوجزها في ما يلي:(٥)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٣.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٥.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٥.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨١.
- وابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٥.
- وابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٥ - ١١٩.

أ - أرسل السلطان الأمير محمد بن بوقا إلى واسط فاستولى عليها. ثمّ سار إلى قوسان،[1] وهي من أعمال صدقة، فنهبها وأقام فيها أياماً عدّة، فأرسل صدقة سرية بقيادة ثابت بن سلطان استولت على قوسان. فقصد ابن بوقا دجلة وتمركز مع جنده في موضع مرتفع على نهر سالم بمعدّل خمسين ذراعاً، فجرى قتال بالأقواس والسهام بين العسكرين جرح ثابت خلاله وانهزم أصحابه، فتبعهم جند ابن بوقا الأتراك إلى مدينة واسط فنهبوها.

ب - حصل قتال بين مفرزة من كلّ من الجيشين فيما كانت رسل الخليفة يحاولون وقف القتال. وحصل هذا القتال من دون أوامر من السلطان أو من صدقة. وذكر ابن الأثير[2] أن «سبب الوقعة ان عسكر السلطان، لما رأوا رسل الخليفة، اعتقدوا وقوع الصلح فقرروا أن ينهبوا شيئاً قبل الصلح».

وقامت مفرزة من جند صدقة بملاقاتهم وقتالهم، فكانت الهزيمة على جند صدقة الذين غرق قسم منهم في أحد الأنهار وأسر عدد آخر منهم، وغالبيتهم من الأتراك.

كتب ابن الأثير عن نتيجة هذه المعركة:[3]

«وطمع العرب بهذه الهزيمة وظهر منهم الفخر والتيه والطمع وأظهروا أنهم باعوا كلّ أسير بدينار... وظهر من الأتراك اضطراب عظيم».

ج - بعد فشل وساطة الخليفة سار السلطان بجيشه وعبر دجلة فالتقى الجيشان وبينهما نهر، وكانت الريح في وجوه جند صدقة وفي ظهور عسكر السلطان.

ثمّ أن جند السلطان راحوا يرمون بالأقواس والسهام، فكان يخرج من كلّ رشقة عشرة آلاف سهم لم يقع سهم منها إلاّ في فرس أو فارس.

(١) قوسان: كورة كبيرة فيها مدن وقرىً بين النعمانية وواسط. وفيها نهر الزاب الأعلى حيث جرت المعركة التي هزم فيها آخر خليفة أموي مروان بن محمد.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٦.

(٣) المرجع نفسه.

وكان أصحاب صدقة كلّما حملوا منعهم النهر عن الوصول إلى رماة السهام، ومن تمكّن من العبور منهم قتل. كما تقاعست قبيلتا عبادة وخفاجة من جند صدقة عن القتال، فراح ينادي القبائل قائلاً:[1]

«- يا آل خزيمة، يا آل ناشرة، يا آل عوف».

وحمل صدقة حملة قوية فضربه أحد الأتراك بالسيف فأصابه في وجهه. فجعل يقول: أنا ملك العرب، أنا صدقة. ثمّ أصابه سهم في ظهره، وأدركه أحد الفرسان فجذبه عن فرسه وقتله وحمل رأسه إلى السلطان. وهكذا انتهى القتال بوفاة قائد أحد الجيشين كما كان يحصل عامة.

أ - نتائج القتال:

- قتل من أصحاب صدقة حوالى ثلاثة آلاف فارس فيهم جماعة من أهل بيته. وقتل من بني شيبان خمسة وتسعون رجلاً. وأُسر دبيس بن صدقة وسرخاب بن كيخسرو الديلمي الذي كان سبب القتال.

وعاد السلطان إلى بغداد من دون أن يدخل إلى الحلّة وأرسل إلى البطيحة أماناً لزوجة صدقة وأطلق ابنها دبيساً وأكرمه.

ب - الدروس المستقاة:

١ - لم يقدّر الأمير صدقة الوضع تقديراً واقعياً، فاعتقد أنّ في إمكانه مجابهة السلطان السلجوقي الذي كان مسيطراً على مقاليد الخلافة العباسية والذي يمكنه جمع جيوش كبيرة واستدعاء أمراء الولايات لمعاونته. وهكذا لم يطبّق صدقة المبدأ الأول من مبادىء الحرب «نسبية الأهداف للوسائل» فاعتقد أن جيشه ووسائله تمكنه من تحقيق هدفه بالانتصار على السلطان السلجوقي فأخطأ وخسر المعركة.

٢ - اختار القائد محمد بن بوقا، الذي كلّفه السلطان بالمجابهة، موقعاً مشرفاً من الأرض تمكّن من خلاله من إيقاع خسائر كبيرة في جند خصمه ثابت بن سلطان، وذلك باستعمال الأقواس والسهام والرمي

(١) المرجع نفسه.

من مكان بعيد من دون ان يحصل التحام بين الجيشين.

لقد طبّق هذا القائد قواعد عسكرية خطت في كتب الاستراتيجية العسكرية في زمن متأخّر عن زمنه ومنها:

- اختيار المكان.
- حرية العمل.
- الخصيل الأقصى للوسائل.

فهو اختار مكاناً مرتفعاً يفصله عن خصمه مجرى مائي، فلم يتمكّن جيش العدو من اقتحام مركزه رغم تفوّقه العددي. ومن تجاسر على اجتياز النهر والمرتفع قتل. بعد ذلك حافظ على حرية عمله إذ استعمل طريقة الرمي البعيد المدى، فيما كان خصمه مكبّل اليدين، فلم يتمكّن من الرد عليه. كما أحسن ابن بوقا باستخدام وسائله (الأقواس والسهام)، فحصل منها على أفضل النتائج. وهكذا حسم المعركة لصالحه.

٣ - فيما كان رسل الخليفة يحاولون وقف الحرب، جرى قتال بين مجموعتين من الجيشين المتقابلين من دون تلقيهما أوامر من قيادتيهما، الأمر الذي أجّج القتال وأدى إلى فشل وساطة الخليفة. وهذا الأمر يحصل غالباً في العمليات العسكرية لأسباب أهمها:

- عدم سيطرة القيادة على وحداتها سيطرة كاملة.
- عدم تأمين الاتصال بين القيادة والوحدات المقاتلة، مما يجعل هذه الوحدات حرّة التصرّف.
- وجود بعض القادة العملاء في صفوف الجيش، والذين يعملون لمصلحة خارجية.

فالقيادة الناجحة هي التي تكون مسيطرة سيطرة تامة على عمليات وحداتها، ومتصلة بها في شكل دائم وآمن، وواثقة من ولاء ضباطها وأفرادها. وهذا يجنّبها الوقوع، خلال العمليات الحربية، في أخطاء قد تكون باهظة الثمن في العديد والعتاد.

٤ - ربح السلطان المعركة الأخيرة ضد صدقة لأسباب أهمها:

- أحسن اختيار مكان معركته، إذ وضع جنده وراء مجرى مائي وجعل الريح في ظهورهم وفي وجوه أعدائهم.
- حافظ على حريةعمله، إذ أنّ غالبية جنده كانت من رماة السهام الذين بلغ عددهم

عشرة آلاف تابعوا القتال من وراء مجرى الماء، فحماهم الحاجز الطبيعي من هجمات أخصامهم.

- طبّق السلطان أيضاً مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل»، وذلك من خلال استعمال رماة السهام أفضل استعمال، في حين فقد صدقة حرية عمله ولم يتمكّن من استعمال جنده أفضل استعمال رغم كثرتهم، إذ حال النهر بينهم وبين أهدافهم.

لقد أظهرت المعارك التي خاضها القادة العرب والتي عالجناها في هذه الموسوعة أن حسن تطبيق مبادىء الحرب وقواعدها هو الطريق الصحيحة إلى النصر.

١٩ - مقتل الباطنية في حصن شيزر

في السنة اثنتين وخمسمائة للهجرة ثار جماعة من الباطنية في حصن شيزر على حين غفلة من أهله.

وفي التفاصيل ان حصن شيزر كان لأمراء بني منقذ، وخلال فصح النصارى، نزل هؤلاء منه إلى المدينة لمشاهدة عيد النصارى، وكانوا قد أحسنوا إلى هؤلاء. ولما علم الباطنية بذلك ساروا على غفلة من أهل الحصن في مائة رجل فملكوه وأخرجوا من كان فيه وأغلقوا بابه وصعدوا إلى القلعة فملكوها.

بادرت نساء المدينة إلى الأسوار فأصعدت مقاتلي بني منقد بالحبال إليها فسيطروا عليها وكبّروا. ثمّ جرى قتال عنيف داخل المدينة بين بني منقذ والباطنية انتصر خلالها بنو منقذ وانهزم الباطنية فأخذتهم السيوف من كلّ جانب، فلم ينجُ منهم أحد.(١) كما قتل من كان على مثل رأيهم، وعاد حصن شيزر إلى أصحابه الشرعيين.

- الدروس المستقاة:

أ - لقد غادر كلّ مقاتلي بني منقذ الحصن فسيطر عليه الباطنية. وكان عليهم ابقاء مجموعة منهم لحماية الحصن. فالفراغ العسكري يدعو العدو إلى ملئه سريعاً.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣٣.

لذلك، وعندما ينظم الجيش جبهة ما، يحدّد فيها جهداً رئيسياً توضع فيه الأسلحة الثقيلة وتعزز القوى؛ وجهداً ثانوياً يأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية. إنما، لا يمكن ترك قسم من الجبهة بلا حماية أو، على الأقل، مراقبة، وذلك لتجنّب المفاجآت غير السارة.

ب - عامل أمراء بني منقذ النصارى معاملة حسنة وغادروا حصنهم لمشاهدة الاحتفالات بالعيد، لأن المسلمين اعتبروا النصارى أهل كتاب وأدخلوهم في ذمّتهم وعاملوهم بالحسنى، باستثناء التدابير التي فرضها عليهم بعض الخلفاء.

ج - كان للنساء دور فاعل خلال المعركة ضد الباطنية. لقد سبق وسجلنا في موسوعتنا هذه حالات عدة تدخلت فيها النساء المسلمات في مجرى المعركة، وخاصة من خلال انتشارهنّ خلف صفوف المقاتلين لمنع ازواجهنّ عن التراجع والانهزام.

فعلى سبيل المثال شاركت أسماء بنت يزيد الانصارية، التي لقبت بـ«أم سُلَمة»، في الجهاد في سبيل الله، وخاصة في غزوة الخندق، بإكرام النبي ﷺ بالطعام، وبالخروج معه إلى الحديبية، وفي غزوة خيبر. وبعد وفاته ﷺ شاركت المسلمين في معركة اليرموك، وقيل أنها قتلت تسعة من الروم بعمود فسطاطها.(١)

ونسيبة بنت كعب الانصارية (أم عُمارة) كانت تخرج إلى القتال، فتسقي الجرحى وتقاتل. وأبلت يوم أُحد بلاءً حسناً إذ جُرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة رمح وضربة سيف، وكانت ممن ثبت مع رسول الله ﷺ حين تراجع الناس. وقد شوهدت في ذلك اليوم تقاتل أشد قتال. وحضرت حرب اليمامة فقاتلت قتال الأبطال، وقُطعت يدها وجرحت، فانصرفت إلى المدينة تداوي جراحها.(٢)

أما هند زوجة أبي سفيان ووالدة معاوية فكانت تقود النساء وتجمعهنّ خلف رجالهن

(١) موسوعة «حياة النبي محمد ﷺ»، دار نوبليس، ٢٠٠٥، كتاب «نساء عظيمات حول الرسول ﷺ»، ص ١٢.
(٢) المرجع نفسه.

لتحفيزهم على القتال. وكانت النسوة تنشدن الأناشيد الحماسية، نذكر الذي كانت تنشده هند بنت عُتبة أم معاوية بن أبي سفيان».[1]

«نَحنُ بَناتُ طارق
نَمشي عَلَى النَمارِق
إن تُقبِلُوا نُعانِق
ونَفرشُ النَمارق
أو تُدبروا نُفارق
فِراق غير وامِق»

كما كانت النسوة تهاجمن الرجال الذين يفرّون من القتال لإجبارهم على العودة إلى ساحة المعركة.

وتطول لائحة النساء المقاتلات إذا رغبنا في ذلك. لكنّ هدفنا ليس التعداد، إنما أخذ العبرة. فحالياً تتطوّع النساء في الجيوش أسوة بالرجال وتنفذن المهام عينها، وقد توصّلت بعضهنّ إلى رتبة جنرال.

٢٠ – استيلاء المصريين على عسقلان

كانت مدينة عسقلان تابعة للعلويين المصريين، فاستعمل الخليفة عليها والياً اسمه «شمس الخلافة». فقام بمراسلة بلدوين ملك الفرنجة في الشام ووقّع معه اتفاق هدنة وأهدى إليه الهدايا، وذلك لحماية نفسه من صاحب مصر.[2]

عندما بلغت الأخبار الخليفة الفاطمي في السنة أربع وخمسمائة للهجرة، أمر وزيره الأفضل أمير الجيوش بتجهيز جيش كبير سيّره إلى عسقلان بقيادة أحد قادته الكبار. وأظهر الأفضل ان هذا الجيش متوجّه لمقاتلة الفرنجة بعد ان أعطى قائده أوامر سريّة بالقبض على شمس الخلافة.[3]

سار الجيش فبلغ عسقلان، فامتنع شمس الخلافة في داخلها وجاهر بالعصيان وأخرج من كان عنده من جند مصر خوفاً منهم. وبعد أن حاصر الجيش عسقلان خاف

(١) انظر سيرة هند بنت عُتبة في الملحق رقم ٤.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤٥.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٠.

الأفضل ان يسلّم شمس الخلافة المدينة إلى الفرنجة، فقرّر مهادنته وأرسل إليه وطيّب نفسه وأقرّه على عمله. لكن شمس الخلافة خاف من أهل عسقلان، فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً له، ولم يزل كذلك حتى آخر السنة أربع وخمسمائة للهجرة حين ثار عليه قوم من أعيانه فجرحوه. انهزم إلى داره فتبعوه إليها وقتلوه ونهبوا كلّ ما فيها، كما نهبوا بعض دور غيره من أرباب الأموال.

أرسل الثوار بالبشارة إلى مصر فعيّن الخليفة والياً جديداً على عسقلان حيث استقامت الأمور لمصلحته.

الدروس المستقاة:

أ - هكذا نرى أن العامل الفرنجي دخل خلال هذه المرحلة في المعادلات الداخلية الاسلامية في الشرق. لقد استقوى والي عسقلان بملك القدس الصليبي في صراعه ضد الخلافة الفاطمية في مصر. أما قائد الجيوش المصرية فقد خاف من تسليم عسقلان إلى الفرنجة من قبل واليها العاصي، لذلك هادنه واسترضاه وأقرّه على ولايته.

ب - شن الخليفة الفاطمي وقائد جيوشه الأفضل حرباً استباقية على الوالي العاصي، وذلك بهدف إبداله قبل أن يسلّم المدينة إلى العدو الفرنجي. والحرب الاستباقية تشنّها الدولة على دولة أخرى مستبقة الخطر الذي قد تشكّله هذه الأخيرة عليها مستقبلاً.

هذه العقيدة الاستراتيجية اعتمدتها الولايات المتحدة في العالم في عهد الرئيس جورج بوش الابن، وخاصة في العراق. كما قررت القيادة الأميركية استخدامها كلّما تهدّدت مصالح الدولة الأميركية في أي جزء من العالم، وهذه سياسة مشكوك في دقّتها لأن تقدير الأخطار العسكرية والتهديدات العالمية هو أمر نسبي.

٢١ - الصراع ضد الفرنجة

في السنة اثنتين وخمسمائة للهجرة وقعت معركة بين طغتكين أتابك صاحب دمشق، والفرنجة.[١] وكان طغتكين قد سار إلى طبرية التي قصدها أيضاً ابن أخت بلدوين ملك القدس في اربعمائة فارس

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٦.

وألفي راجل، فيما بلغ جند طغتكين ألفي فارس. فلما اشتدّ القتال انهزم المسلمون، فترجّل طغتكين ونادى بالمسلمين وشجعهم على الثبات، فعادوا للقتال وهزموا الفرنجة الذين أسر قائدهم وحمل إلى طغتكين الذي عرض عليه الاسلام مقابل إطلاق سراحه. امتنع الفرنجي عن اعتناق الإسلام وبذل في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار وإطلاق خمسمائة أسير، فلم يقبل طغتكين الذي قتله بيده.(١)

وفي ذلك العام استنجد صاحب حصن عرقة(٢) بالأمير طغتكين كونه عجز عن المحافظة على الحصن في وجه التهديد الفرنجي له. أرسل له طغتكين أحد قادته في ثلاثمائة رجل فتسلّم الحصن. وأراد طغتكين زيارة الحصن للاطلاع عليه وتعزيز دفاعاته، فنزل الغيث والثلج مدّة شهرين مما منعه عن ذلك. ولما صفا الجو سار في أربعة آلاف فارس ففتح حصوناً عدّة للفرنجة، منها حصن الأكمة.(٣)

ولما سمع السرداني الفرنجي بخبر طغتكين، وكان يحاصر طرابلس رفع الحصار عنها وقصد عرقة فحاصرها، فطلب من بها الأمان فأمّنهم واستولى على الحصن من دون قتال. أما طغتكين فانهزم إلى حمص مع جيشه الذي ترك أثقاله ورحاله ودوابه في ساحة المعركة.

نقل ابن الأثير أن ملك القدس أرسل إلى طغتكين بعد هزيمته رسالة جاء فيها:(٤)

«لا تظن انني أنقض الهدنة للذي تمّ عليك من الهزيمة. فالملوك ينالهم أكثر مما نالك، ثمّ تعود أمورهم إلى الانتظام».

وفي السنة ثلاث وخمسمائة للهجرة استولى الفرنجة على المدن الشمالية للساحل السوري، أي طرابلس وبيروت وجبيل وبانياس.(٥)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣٠.
(٢) بلدة شرقي طرابلس، وهي آخر أعمال دمشق.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣١.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٧.

وتفاصيل ذلك أن طرابلس كان قد استولى عليها المصريون وطردوا منها ابن عمّار. ففي السنة المذكورة وصل أسطول فرنجي كبير إلى ساحلها بقيادة الكونت ريمون دي سان جيل، ومراكبه مشحونة بالرجال والسلاح والعتاد. وقد انضمت إلى الأسطول قوات فرنجية قادمة من انطاكية والقدس، فحاصر الجميع المدينة وألصقوا أبراجهم بسورها.

لم يستطع أسطول مصري الوصول إلى المدينة لمساعدتها بسبب الأمواج والرياح البحرية، فشدّد الفرنجة الحصار عليها مستعملين الأبراج النقالة والأكباش والسلالم. وهكذا ملكوها عنوة ونهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأولاد.(١)

ثمّ أن تانكرد الفرنجي صاحب انطاكية سار إلى بانياس وحاصرها وافتتحها بعد أن أمّن أهلها. ثمّ نزل إلى مدينة جبيل، وفيها فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس، فحاصرها وقاتل حاميتها قبل ان يؤمّنها ويستولي عليها صلحاً. أما ابن عمار، فقصد دمشق فأنزله طغتكين صاحبها عنده وأقطعه أعمال الزيداني.(٢)

وفي السنة أربع وخمسمائة للهجرة استولى الفرنجة على مدينة صيدا.(٣) نقل ابن الأثير تفاصيل المعركة التي انتهت بسقوط المدينة، فكتب:(٤)

«وصل في البحر إلى الشام ستون مركباً للفرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم ليحج للبيت المقدس وليغزو بزعمه المسلمين. فاجتمع بهم بغدوين ملك

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤٤ - ١٤٥.
- انظر ملحق رقم ٥: الرواية الصليبية عن احتلال طرابلس.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٧.
- انظر ملحق رقم ٦: الرواية الصليبية لاحتلال جبيل.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٧ء ، ص ١٤٥.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣٩.
- انظر ملحق رقم ٧: الرواية الصليبية لاحتلال صيدا.

القدس، وتقررت القاعدة بينهم أن يقصدوا بلاد الإسلام. فرحلوا من القدس ونزلوا مدينة صيدا ثالث ربيع الآخر من هذه السنة وضايقوها براً وبحراً. وكان الأسطول المصري مقيماً على صور، فلم يقدر على إنجاد صيدا، فعمل الفرنج برجاً من الخشب وأحكموه وجعلوا عليها ما يمنع النار عنه والحجارة وزحفوا به. فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت. فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج وطلبوا من ملكهم الأمان، فأمّنهم على أنفسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم. ومن أراد المقام به عندهم أمنوه، ومن أراد المسير عنهم لم يمنعوه، وحلف لهم على ذلك. فخرج الموالي وجماعة كثيرة من أعيان أهل البلد في العشرين من جُمادى الأولى إلى دمشق وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان وكانت مدّة الحصار سبعة وأربعين يوماً. ورحل بغدوين عنها إلى القدس ثمّ عاد إلى صيدا بعد مدّة يسيرة فقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار فأفقرهم واستغرق أموالهم».

وفي السنة نفسها جمع صاحب انطاكية جنده من الفرنجة وسار نحو حصن الاثارب[1] فحاصره ومنع عنه التموين. فضاق الأمر على من به من المسلمين، فنقبوا من القلعة ممراً للخروج منه إلى خيمة القائد الفرنجي لاغتياله. لكنه عرف بالأمر بسبب خيانة أحد أبناء الحصن،[2] فجدّ في قتالهم حتى ملك الحصن عنوة، وقتل من أهله الفي رجل وأسر الباقين.[3]

بعد هذه الانتصارات الفرنجية، راح أصحاب البلدان الاسلامية في الشام يسارعون إلى الهدنة، فصالح الفرنجة الملك رضوان صاحب حلب على إثنين وثلاثين ألف دينار، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار. كذلك ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وعلي الكردي صاحب حماه على الفي دينار.

---

(١) هو حصن بالقرب من مدينة حلب، وبينهما ثلاثة فراسخ.

(٢) الذي خان أهل الحصن هو صبي أرمني.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٠.

وعندما بلغ التهديد الفرنجي هذا الحدّ اجتمع في بغداد جمع كبير من الفقهاء وغيرهم، وقصدوا جامع السلطان ودار الخلافة واستنجدوا بالخليفة الذي أمر السلطان بالاهتمام بموضوع الجهاد ضد الفرنجة. فسيّر ولده الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل، على أن يلحق بهم الأمراء لقتال الفرنجة.(١)

الدروس المستقاة:

أ - في معركة طبرية، ورغم أن المسلمين كانوا في ألفي فارس مقابل اربعمائة فارس وألفي راجل معادين، ولما اشتدّ القتال، انهزم المسلمون في البداية. لكن تدخّل قائدهم الأمير طغتكين الذي ترجّل وناداهم وشجعهم على الثبات، جعلهم يعودون إلى القتال بحماس فيهزمون الفرنجة ويأسرون قائدهم.

هذه الحادثة تؤكّد، مرّة أخرى، على أهمية دور القائد في القتال. فهو الذي يلهم جنوده ويقودهم إلى النصر. لذلك يعتبر تعلّق الجند بقائدهم وثقتهم به من أهم العوامل التي تساهم في النصر.

ب - عرض طغتكين على أسيره اعتناق الإسلام لإطلاق سراحه، لكن الفرنجي بذل في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار فلم يقبل الأمير المسلم لأنه اعتبر أنّ الرسالة السماوية أهم من المغريات الأرضية، فأصرّ على طلبه. ولما أبى أسيره ذلك قتله بيده.

وهنا لا بدّ من الإشادة بالدعوة لاعتناق الدين الإسلامي وعدم التصرّف بدافع شخصي ومادي، الأمر الذي يساهم في اعلاء شأن القائد وازدياد إعجاب جنده به. إلاّ أننا، في المقابل، ندين القائد طغتكين بسبب قتل أسيره. فالأسير لا يقتل، إنما تقبل فديته، خاصة أنه يدين بدين سماوي يعترف به الإسلام.

ج - أراد طغتكين زيارة حصن عرقة الذي افتتحته قوة تابعة له، لكن الأحوال المناخية منعته عن ذلك وأجّلت الزيارة مدّة

(١) ابن خلدون. مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٧.
- وابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٨.

شهرين. ولطالما ساهمت هذه الأحوال خلال قرون التاريخ العسكري في تغيير مجرى معارك عديدة، خاصة في المناطق الباردة والثلجية.

وفي هذا الإطار نذكر حادثتين:

- الأولى، جرت في روسيا، عندما أدى الثلج والصقيع إلى فشل حملة نابوليون بونابرت عليها فتراجع جيشه منهزماً. وقيل أن الجنرال «شتاء» هو الذي هزم الجنرال نابوليون.

- الثانية، عندما اضطر الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية إلى التقيّد بتاريخ معين لتنفيذ إنزال النورماندي، وذلك بسبب أحوال المحيط الأطلسي المناخية التي فرضت هذا التاريخ.

فالتطّورات المناخية تؤخذ في الاعتبار عند قيام القيادات الكبرى بدراستها التمهيدية لأي حملة عسكرية هجومية.

أما في المرحلة التي جرت أحداث الحملة التي نتكلّم عنها في هذا الجزء، فان الشتاء والثلوج كانت تحول دوماً دون القيام بنشاطات قتالية. كما أن القتال عامة كان يتابع نهاراً فقط ويتوقف ليلاً، ثمّ يستأنف في صبيحة اليوم التالي. أما العمليات العسكرية التي كانت تجري ليلاً فإنها كانت تشكّل مفاجآت استراتيجية يفيد منها من يقوم بالمبادرة إلى القتال الليلي.

د - الملاحظ أيضاً أنه، ورغم التهديد الفرنجي للعالم الإسلامي، فان القادة المسلمين كانوا يقاتلون كلّ بمفرده مدافعاً عن قلعته أو حصنه أو مدينته، وقلّما اجتمع هؤلاء ووحدوا جهدهم ضد العدو المشترك. فابن عمّار طرده المصريون من طرابلس واستولوا عليها رغم صعوبة محافظتهم عليها بسبب طول خطوط مواصلاتها مع مصر. لذلك، عندما توجّه ريمون دي سان جيل لاحتلالها بأسطول فرنجي كبير، انضمّت إليه قوات فرنجية قادمة من انطاكية والقدس، فتمكّن من احتلال طرابلس، فيما لم يستطع الأسطول المصري من الوصول إلى المدينة ونجدتها قبل انتهاء المعركة.

لقد أحسن الفرنجة تطبيق مبادىء الحرب الثلاثة:

- نسبية الأهداف للوسائل.
- حرية العمل.
- الحصيل الأقصى للوسائل.

فهم، جمعوا جيوشهم من مملكة القدس وانطاكية والأسطول الفرنجي الذي كان يقوده دي سان جيل، ووحّدوا القيادة، ووجهوا جهودهم المجتمعة لحصار طرابلس واحتلالها.

في المقابل لم يتمكّن المصريون من تعزيز حامية طرابلس، إذ حالت الأحوال الجوية دون وصول الأسطول إليها ففقدوا حرية عملهم ولم يفيدوا من مبدأ الحصيل الأقصى للوسائل، إذ لم تتدخل كلّ وحداتهم في معركة طرابلس. فالقائد الذي يطبّق مبادىء الحرب يفوز غالباً في معركته.

هـ - أن عدم اجتماع كلمة المسلمين على التصدي للغزو الفرنجي سمح للفرنجة بالاستيلاء على بانياس وبيروت وجبيل وصيدا، وعلى حصن الاثارب. بعد ذلك سارع القادة المسلمون إلى مصالحة الفرنجة لقاء أموال دفعوها، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب وصالحهم صاحب صور وابن منقذ صاحب شيزر وعلي الكردي صاحب حماه.

وهذا ما دفع بالسلطان السلجوقي إلى إرسال حملة كبيرة بقيادة ولده مسعود لقتال الفرنجة. وأعطت هذه الحملة نتائج جيدة نظراً لاجتماع كلمة الأمراء المسلمين وتوحّدهم تحت قيادة واحدة، الأمر الذي أمّن لهم النصر.

٢٢ - حملة الأمير مودود على الفرنجة

في السنة خمس وخمسمائة للهجرة اجتمعت الحملة التي أمر بها السلطان السلجوقي ضد الفرنجة بقيادة ابنه الملك مسعود، وفيها:[١]

- الأمير مودود صاحب الموصل.
- الأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر.
- الأميران إيلبكي وزنكي إبنا برسق، ولهما همذان وما جاورها.
- الأمير أحمديل صاحب مراغة.
- الأمير أبو الهيجا صاحب إربل.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٩.

- الأمير إياز بن إيلغازي صاحب ماردين.

وسار الجيش بكامله إلى سنجار، ففتح حصوناً عدّة للفرنجة، وحاصر مدينة الرها مدّة، ثمّ رحل عنها بعد أن أرسلت نجدات فرنجية إليها، دخلت الرها مع الميرة والذخائر.(١)

ثمّ عبرت القوات الفرنجية الفرات وقصدت أعمال حلب للانتقام من الملك رضوان، فأفسد جندها ما فيها من الزرع وقتلوا وسبوا خلقاً كثيراً.

أما الجيوش الإسلامية، فقد حاصرت قلعة تل باشر مدّة خمسة وأربعين يوماً من دون التمكّن من فتحها. فقصدت حلب التي أغلق صاحبها الملك رضوان أبوابها ولم يسمع لهم بالدخول إليها. فرحل هؤلاء إلى معرّة النعمان حيث اجتمع بهم صاحب دمشق الأمير طغتكين وأطلع على أوضاعهم. ثمّ خاف أن تؤخذ منه دمشق، فهادن الفرنجة سراً.(٢)

بعد ذلك تفرّقت الجيوش الإسلامية من دون أن تتمكّن من تحقيق أهدافها والسيطرة على مناطق الفرنجة.(٣)

وفي السنة ست وخمسمائة للهجرة سار الأمير مودود إلى الرها فنزلها ورعى سرحه زرعها، فقصده جوسلين صاحب تل باشر فيما كانت الدواب منتشرة في المرعى، فاستولى الفرنجة على قسم منها وقتلوا رعاتها. فلما تأهّب مودود لقتالهم، رحلوا عن المنطقة.

وفي السنة سبع وخمسمائة للهجرة، اجتمعت الجيوش الإسلامية من الموصل وسنجار ودمشق، بعد أن تابع ملك الفرنجة بلدوين غاراته على خراج دمشق ونهبه. وهذا ما دعا صاحبها طغتكين للاستنجاد بالأمير مودود صاحب الموصل حيث اجتمعت القوات الاسلامية في الاقحوانة.(٤)

التقى الجيشان في طبرية من أعمال فلسطين، فجرى قتال عنيف انهزم في نتيجته

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٤.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٨.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٩٢.

الفرنجة وكثر القتل فيهم، وغنم المسلمون أموالهم وأسلحتهم.(١)

ثمّ عزّز الفرنجة جموعهم بجند من طرابلس وانطاكية، فقويت نفوسهم وعادوا للقتال، فأحاط بهم المسلمون من كلّ جانب. صعد الفرنجة إلى غرب طبرية حيث أقاموا مدة ستة وعشرين يوما، فيما المسلمون مقابلهم يرمونهم بالسهام فيصيبون من يقترب منهم. ومنع المسلمون الاقوات عن الفرنجة بهدف إخراجهم من مراكزهم لمقاتلتهم، لكنهم لم يفعلوا. فسار المسلمون إلى بيسان ونهبوا بلاد الفرنجة بين عكا والقدس وأخربوها وقتلوا من ظفروا به من الفرنجة.(٢)

لكن العمليات الإسلامية ضد الفرنجة تراجعت بسبب مقتل الأمير مودود الذي اغتاله باطني فيما كان يصلّي في جامع دمشق.

نقل ابن كثير أن ملك الفرنجة كتب إلى طغتكين بعد مقتل الأمير مودود كتاباً جاء فيه:(٣)

«أن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها».

وفي السنة ثمان وخمسمائة للهجرة عين السلطان محمد الأمير آقسنقر البرسقي(٤) والياً على الموصل وأعمالها بعد مقتل أميرها مودود. وسيّر معه ابنه الملك مسعود في جيش كبير لقتال الفرنجة، وكتب إلى كلّ الأمراء يأمرهم بطاعته.

وصل الأمير البرسقي إلى الموصل ومعه ابنه عماد الدين زنكي، فملك الموصل التي ملكها بعده ابناؤه فأقاموا السلالة الزنكية.

نقل وليم الصوري خبراً عن

(١) ابن خلدن، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٨٨ - ٨٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٩.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٩٢.
(٤) أقسنقر هو الجد الأعلى لسلالة آل زنكي. ومنه تحدّرت هذه الاسرة التي سيطرت على مقدرات الخلافة العباسية بعد ان تراجع التأثير السلجوقي ووضعت في أولى مهماتها الصراع ضد الفرنجة بهدف إخراجهم من الشرق.

الاستراتيجية التي استعملها القائد مودود وكانت ناجحة، فكتب:[1]

«اكتشف الفرس انهم كانوا بحاجة إلى الاستراتيجية أكثر من القوة في هذا الأمر. وهكذا أرسلوا الفين من الفرسان وأمروا الفاً وخمسمائة منهم أن ينصبوا كميناً. وكان على الخمسمائة الباقين ان تتابع سيرها مسافة أبعد وبطريقة غير مبالية بحيث يندفع الملك ورجاله لمطاردتهم.

ووقع كلّ شيء تماماً حسب الترتيب، فقد لاحظ الملك الفرسان الخمسمائة الممتطين جيادهم يتقدّمون بطريقة مهملة وغير آبهة وكأنهم متوجّهون إلى مسافة أبعد. فاستدعى رجاله باندفاع وزحف نحوهم. وتظاهر الفرسان انهم يلوذون بالفرار، وطاردهم الملك باندفاع وسقط في الكمين المنصوب له. وانطلق الكفرة من مخابئهم وأصبحوا قوّة كبيرة. كما عاد الفرسان الخمسمائة أيضاً وانضموا إليهم. وانقضّت القوات المتحدة بهجوم عنيف على المسيحيين».

ونجح الجيش الإسلامي في هزيمة الفرنجة بعد المفاجأة التكتية التي نفذّها ففرت قواتهم من المعركة بعد ان قتل عدد كبير من أفرادها.

- **الدروس المستقاة:**

أ - أخيراً قرّر السلطان السلجوقي التصدي للفرنجة فاجتمعت كلمة المسلمين على محاربتهم وانضوى الأمراء تحت قيادة الملك مسعود والأمير مودود صاحب الموصل. لذلك بدأت الانتصارات الإسلامية على الفرنجة تتتالى. ففي الاتحاد قوة، كما ما جاء في المثل الشعبي. إنما، في الاستراتيجية العسكرية، طبّق المسلمون خلال هذه الحملة القواعد التالية:

* توحيد القيادة.
* جمع أكبر عدد ممكن من القوى بحيث تأمّن لديهم التفوق العددي.
* أخذ المسلمون المبادرة لما انتقلوا من مرحلة الدفاع عن حصونهم ومدنهم إلى مرحلة

---

(١) وليم الصوري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٤٧ - ٥٤٨.
انظر ملحق رقم ٨: الرواية الصليبية لمعارك الأمير مودود.

الهجوم. والمعروف أن الهجوم هو أفضل وسائل الدفاع عن النفس.

ب - لم تتمكّن الجيوش الإسلامية من فتح الرها وتل باشر وذلك لأسباب أهمها:

* منعة أسوارهما.
* قلّة معدات الحصار لديها، كالبرج المتحرّك والكبش والمنجنيقات والعرادات.
* وصول نجدات فرنجية إليها في شكل أصبح المسلمون يحاربون على جبهتين: جبهة الحصار الأساسي وجبهة القوى الفرنجية المتقدّمة نحو مواقع الحصار.
* عدم إصرار أمراء الحملة على فتح الرها أو تل باشر كون مهمتهم تتعدى ذلك وتتعلّق بالصراع العام بين الفرنجة والسلطنة السلجوقية.

ج - تفرّقت الجيوش الإسلامية من دون أن تتمكّن من تحقيق أهدافها بسبب بدء الوهن في صفوفها. فالملك رضوان صاحب حلب، ورغم أن الفرنجة أفسدوا زرع منطقته، فانه أغلق أبواب مدينته في وجه هذه الجيوش. أما الأمير طغتكين صاحب دمشق فانه خاف أن تؤخذ منه مدينته، فهادن الفرنجة سراً.

لقد أضاع المسلمون وحدتهم وتصميمهم على القتال وعاد بعض أمرائهم إلى التفرّد في التصرّف، ففقدوا بذلك حرية العمل ووحدة القيادة والحصيل الأقصى للوسائل.

د - اعتمد الفرنجة في قتالهم أسلوب الإغارة، فأغارت سراياهم على منطقة تل باشر واستولت على قسم من دواب الأمير مودود المنتشرة في المراعي وقتلت رعاتها. فلما تأهّب مودود لقتالهم، رحلوا عن المنطقة. وتابع ملك الفرنجة بلدوين غاراته على خراج دمشق ونهبه.

وأسلوب الاغارات كان معروفاً خلال المرحلة الزمنية التي نتكلّم عنها، وقد سبق وأعطى نتائج ممتازة. والقبائل العربية لها خبرة طويلة في هذا النوع من القتال الذي يؤمّن المبادرة والمفاجأة للقائم به.

هـ - نجح الفرنجة في بعض إغاراتهم، لكنهم فشلوا عندما عادت الجيوش الإسلامية واجتمعت متوحّدة بقيادة الأمير مودود، فانتصرت في معركة طبرية.

إلاّ أن الفرنجة، ولما لمسوا قوة الجيوش الاسلامية، تمركزوا في مكان مرتفع يحميهم

من هجمات المسلمين. ورغم محاولات هؤلاء لدفعهم إلى الخروج لقتالهم، فإنهم لم يفعلوا. وبذلك يكونون قد أحسنوا التقيّد بمبدأي نسبية الأهداف للوسائل وحرية العمل.

و - تراجعت العمليات الإسلامية ضد الفرنجة، أخيراً، بسبب اغتيال قائد الجيوش الاسلامية الأمير مودود. لكن هذا الاغتيال لم يأتِ على يد أحد الفرنجة كما يتبادر إلى ذهن من يسمع النبأ وكما يفرض المنطق، إنما على يد باطني فيما كان الأمير يصلي في جامع دمشق.

هذا الحادث يؤكد ما سبق وأوردناه عن ضرورة اكتشاف عملاء العدو داخل الصفوف الصديقة لمنعهم عن إيقاع الضرر بها. وهذا ما يفسّر صراع أجهزة مخابرات الجيوش لتحقيق هدفين:

- **الهدف الأول:** حماية الوحدات العسكرية الصديقة من عملاء العدو واكتشافهم ومنعهم من تحقيق أهدافهم المرسومة.

- **الهدف الثاني:** زرع عملاء داخل صفوف القوات العسكرية المعادية للحصول على معلومات عنها أو لتنفيذ عمليات ضدها، كعملية الاغتيال التي تعرّض لها الأمير مودود والتي أوقفت العمليات الاسلامية ضد الفرنجة، ولو في صورة مؤقتة.

وحادث اغتيال الأمير مودود اتُهم بتدبيره الملك رضوان صاحب دمشق. كتب وليم الصوري عن ذلك:[١]

«لأن موت النبيل مودود، الذي اغتيل في دمشق، ألصقت تهمته به، وبات من المعتقد أنه كان عارفاً تمام المعرفة بالأمر وانه تمّ بالتدبير والاتفاق معه».

كما عاد وليم الصوري ونقل قلق صاحب دمشق من إرسال حملة جديدة بقيادة أقسنقر البرسقي لقتال الفرنجة في منطقة الشام، فكتب:[٢]

(١) وليم الصوري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٥٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٥٤.

«وقلق طغتكين[١] ملك دمشق قلقاً شديداً إزاء هذه الحملة؛ وخشي كثيراً من أن تكون قد انطلقت لتثير المتاعب له ولمملكته أكثر من إثارتها ضد المسيحيين.

وهكذا، عندما علم طغتكين أن الأتراك كانوا قد وصلوا وكان مدركاً تماماً لأهدافهم، فقد أرس رسلاً بهدايا نفيسة إلى الملك وإلى أمير انطاكية، وتوسل إليهما أن يمنحاه هدنة مؤقتة. وعرض تقديم الرهائن ووعد مقسماً أنه سيحافظ طوال زمن الهدنة على حلفه بإخلاص مع المسيحيين في كلّ من المملكة والإمارة».

أما ملك الفرنجة فقد تعجّب من هذا الحادث فكتب إلى طغتكين بذلك.[٢]

فبالفعل إن ما يحيّر المراقب هو الاقدام على اغتيال أبرز قائد مقاتل مسلم في وقت ما زال الخطر الفرنجي جاثماً بقوّة على ربوع بلاد الشام، وذلك بخنجر انتحاري مسلم كان رؤساؤه يدعون إلى تطبيق مبادىء الدين الحنيف ويقاتلون في سبيل ذلك.

٢٣ – حملة أقسنقر البرسقي إلى بلاد الشام

في السنة ثمان وخمسمائة للهجرة، ولما بلغ السلطان خبر مقتل الأمير مودود، عيّن على الموصل وأعمالها الأمير آقسنقر البرسقي،[٣] وسيّره في جيش كبير مع ولده الملك مسعود، وكلفه الصراع ضد الفرنجة. وكان في عداد الحملة عماد الدين الزنكي وتميرك صاحب سنجار.[٤]

(١) كان طغتكين قد عُيّن أتابكاً للملك دقاق، وعندما توفي هذا الأخير أصبح الحاكم الفعلي لدمشق رغم انه استمرّ بشكل اسمي «أتابكا» لابن دقاق.

(٢) أوردنا الكتاب في مكان سابق.

(٣) هو أقسنقر البرسقي صاحب حلب، قتلته الباطنية في مقصورة جامع حلب يوم الجمعة. وهو الجد لعائلة البرسقي التي منها نزل آل زنكي. عن ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٣. كتب وليم الصوري عن هذه الحملة، عنواناً جاء فيه: «زلزال ضخم يضرب منطقة انطاكية، البرسقي، الحاكم التركي القوي جداً ينهب تلك المنطقة».

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٩٥.

سار البرسقي إلى جزيرة ابن عمر فتسلّمها من نائب مودود فيها. ثمّ انتقل إلى ماردين حيث جرى قتال مع صاحبها إيلغازي انتصر خلاله البرسقي، فأذعن له إيلغازي، وسيّر ابنه أياز معه. سار البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس فحاصرها وقاتل أهلها الذين صبروا على القتال. ودام الحصار مدّة شهرين قتل خلاله خمسون فارساً من أعيان الفرنجة. لكن جيش المسلمين شكا ضيق الأقوات، فرحل إلى سميساط بعد أن خرب بلاد الرها وسروج وسميساط.(١)

أ - طاعة صاحب مرعش للبرسقي:

في هذه الحقبة توفي صاحب مرعش الفرنجي واستولت زوجته على المملكة وحصّنتها ضد الفرنجة وأحسنت إلى الجند. ثمّ استدعت آقسنقر الذي كان يحاصر الرها معترفة بقيادته، فسيّر إليها الأمير سنقر دزدار صاحب الخابور الذي انضمّ إليها بجيشه.

هاجمت مرعش سرية من الفرنجة عددها مائة فارس، فجرى قتال عنيف ظفر فيه المسلمون بالفرنجة وقتلوا أكثرهم.(٢)

ب - القتال بين البرسقي وايلغازي:

كان البرسقي قد ألقى القبض على إياز ابن إيلغازي وسجنه بسبب خلاف بينهما. استنجد والده بسقمان صاحب حصن كيفا، فجمعا جيشاً كبيراً من التركمان وقصدا البرسقي حيث جرى قتال عنيف هزم خلاله هذا الأخير.

بعد ذلك، عقد تحالف بين إيلغازي وطغتكين صاحب دمشق، فقرّر الاثنان مخالفة السلطان السلجوقي والالتجاء إلى الفرنجة والاحتماء بهم، فراسلا صاحب انطاكية واجتمعا معه على بحيرة قدس(٣) حيث جددوا العهود.(٤)

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٠ - ٩١.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٥٣ - ١٥٤.
(٣) قرب حمص.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ض ١٩٥.

كلف السلطان الأمير قرخان[١] صاحب حمص بمعالجة الوضع، فقصد إيلغازي بعد أن تفرّق عنه أصحابه في الرستن وهاجمه وأسره مع مجموعة من مقاتليه. ثمّ ان قرخان صالح إيلغازي وأطلق سراحه مقابل وضع ابنه إياز رهينة لديه، فسار إيلغازي إلى حلب وجمع التركمان وعاد إلى حمص وحاصر قرخان في داخلها. وبقي الحصار قائماً حتى وصل جيش سلطاني ورفعه عن المدينة.[٢]

ج - قتال البرسقي ضد التحالف الإسلامي الفرنجي:

لما بلغ السلطان محمد عصيان إيلغازي وطغتكين جهّز جيشاً كبيراً بقيادة الأمير برسق بن برسق صاحب همذان وفيه جند الموصل والجزيرة، وأمرهم بالتوجّه أولاً لقتال المسلمين العاصين. فإذا فرغوا منهم قصدوا بلاد الفرنجة وقاتلوهم.[٣]

عبر الجيش الفرات وسار إلى حلب وأرسل إلى واليها لؤلؤ الخادم يأمره بتسليم المدينة، بعد ان عرض عليه كتاب السلطان بتكليفه بالقيادة. لم يقبل لؤلؤ واستنجد بطغتكين وإيلغازي اللذين سارا إليه في الفي فارس ودخلا حلب وامتنعا فيها مظهرين العصيان.[٤]

لم يتمكّن جيش السلطان من فتح حلب فسار إلى حماه، التي كانت تتبع لطغتكين وفيها ثقله العسكري، فحاصرها وشدّد الحصار عليها وافتتحها عنوة ونهبها طيلة أيام ثلاثة. ثمّ سلّم قيادتها للأمير قرخان صاحب حمص.

عند هذا الحد استنجد طغتكين وإيلغازي بالفرنجة، فأنجدهم كلّ من:[٥]

- روجيل صاحب انطاكية،
- بولدوين صاحب القدس وطرابلس،
- وغيرهما من أمراء الفرنجة.

(١) في ابن خلدون: قرجان.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٠.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٥٨.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩١.

ونظراً لضخامة جيش المسلمين قرر المتحالفون انتظار الشتاء للتحرّك، واجتمعوا في قلعة أفامية. فلما انصرم الشتاء والمسلمون مقيمون، وهنت عزائم الفرنجة وعادوا إلى بلادهم. وعاد إيلغازي إلى ماردين وطغتكين إلى دمشق.

ولما انتصف أيلول قصد جيش المسلمين كفرطاب الفرنجية وحاصرها حصاراً شديداً.(١)

نقل ابن كثير خبر نهاية الحصار، فكتب:(٢)

فلما اشتدّ الحصار على الفرنج ورأوا الهلاك، قتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم. ودخل المسلمون البلد عنوة وقهروا وأسروا صاحبها وقتلوا من بقي فيه من الفرنج».

د - خدعة فرنجية:

وسارت العساكر الإسلامية بعد ذلك إلى حلب، وتقدّمتهم دوابهم وأحمالهم على جاري عادتهم، وكانت فرق الجيش تتبعهم وهي آمنة نظراً لانتصاراتهم المتكرّرة.

إلاّ أن روجيل صاحب انطاكية، لمّا بلغه خبر حصر كفرطاب، سار في خمسمائة فارس والفي راجل، فوصل إلى معسكر المسلمين فجأة فوجده خالياً من المقاتلين الذين لم يكونوا قد وصلوا إليه، فنهبه وقتل من فيه.(٣)

ولما راحت فرق الجيش الإسلامي تصل تباعاً، راح الفرنجة يستفردونها فيقضون على كلّ مجموعة عند وصولها.

نقل ابن خلدون نتيجة هذا القتال، فكتب:(٤)

«وسارت العساكر من المعرّة إلى حلب، وقدموا أثقالهم وخيامهم فصادفهم بردويل صاحب انطاكية في خمسمائة فارس وألفي راجل صريخاً لأهل كفرطاب. وصادف مخيم العسكر ففتك فيهم، وفعل الأفاعيل، وهم متلاحقون. وجاء الأمير برسق، وعاين

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٩٥.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه،.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٢.

مصارعهم، وأشار عليه اخوته بالنجاء بنفسه فنجا بنفسه. وأتبعهم الافرنج، ورجعوا عنهم على فرسخ وعاثوا في المسلمين في كلّ ناحية. وقتل اياز بن أبي الغازي قتله الموكلون به. وجاء أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين مالم يحتسبوه، ويئسوا من النصرة ورجعت العساكر منهزمة إلى بلادها. وتوفي برسق زنكي سنة عشر بعدها».

كما نقل ابن الأثير عن الموضوع نفسه ما يلي:(١)

«وكان روجيل صاحب أنطاكية، لما بلغه حصر كفرطاب سار في خمسمائة فارس وألفي راجل للمنع فوصل إلى المكان الذي ضربت فيه خيام المسلمين على غير علم بها. فرآها خالية من الرجال المقاتلة لأنهم لم يصلوا إليها فنهب جميع ما هناك. وقتل كثيراً من السوقية وغلمان العسكر. ووصلت العساكر متفرّقة فكان الفرنج يقتلون كلّ من وصل إليهم. ووصل الأمير برسق في نحو مائة فارس فرأى الخال فصعد تلاً هناك ومعه أخوه زنكي وأحاط بهم السوقية والغلمان واحتموا بهم ومنعوا الأمير برسق من النزول. فأشار عليه أخوه ومن معه بالنزول والنجاة بنفسه فقال: «لا أفعل بل أقتل في سبيل الله وأكون فداء المسلمين». فغلبوه على رأيه فنجا هو ومن معه، فتبعهم الفرنج نحو فرسخ ثمّ عادوا وتمموا الغنيمة والقتل وأحرقوا كثيراً من الناس، وتفرّق العسكر وأخذ كلّ واحد جهة. ولما سمع الموكلون بالأسرى المأخوذين من كفر طاب ذلك قتلوهم، وكذلك فعل الموكل بأياز ابن أيلغازي قتله أيضاً. وخاف أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين التي بالشام فإنهم كانوا يرجون النصر من جهة هذا العسكر فأتاهم ما لم يكن في الحساب وعادت العساكر عنهم إلى بلادها. وأما برسق وأخوه زنكي فإنهما توفيا في سنة عشر وخمسمائة وكان برسق خيّراً ديّناً وقد ندم على الهزيمة وهو يتجهز للعود إلى الغزاة فأتاه أجله».(٢)

هـ - الدروس المستقاة:

أ - في هذه الحقبة بدأت تظهر على الساحة السياسية والعسكرية في الشرق

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٥٩.

(٢) انظر ملحق رقم ٩: الرواية الصليبية لحملة البرسقي على بلاد الشام.

الإسلامي أسرة جديدة سيلعب أمراؤها وملوكها لاحقاً أدواراً مهمة في الصراع ضد الوجود الفرنجي في الشرق. هذه الأسرة هي أسرة البرسقي، أو آل زنكي، التي منها تحدّر عماد الدين ونور الدين زنكي. فخلال هذه الحملة الكبرى برز منها اسمان هما آقسنقر وبرسق، ورافق الحملة عماد الدين زنكي.

ب - مرة أخرى نرى أنه، ورغم الصراع العام الوطني ضد الوجود الأجنبي في الوطن الإسلامي الشرقي، ورغم أن الحملة العامة كانت موجهة ضد الفرنجة، فقد رافقتها صراعات داخلية بين القادة والأمراء المسلمين. فالبرسقي قاتل إيلغازي الذي استنجد بسقمان صاحب حصن كيفا. ثمّ جرى تحالف بين إيلغازي وطغتكين صاحب دمشق والفرنجة للتصدي للحملة الإسلامية بقيادة البرسقي.

وهذا ما دفع السلطان لإرسال جيش جديد بقيادة برسق صاحب همذان، وكلفه بمقاتلة العاصين من المسلمين قبل التوجّه لقتال الفرنجة.

وهذا أمر طبيعي.

فعند إرسال حملات عسكرية لغزو الخارج ينبغي أن يكون الوضع العسكري الداخلي مضبوطاً، والجبهة الداخلية موحّدة، وذلك كي لا تتعرّض البلاد إلى الفتن والقلاقل في غياب القوة العسكرية الأساسية المتوجهة للجهاد.

لقد حفل التاريخ العسكري بالأمثلة التي تؤيد النظرية المذكورة. فالاسكندر المقدوني، وقبل إنطلاق حملته الشهيرة لإخضاع آسيا، عمل على توحيد جميع الممالك اليونانية تحت قيادته. والخليفة أبو بكر الصديق، وقبل توجيهه الجيوش العربية الإسلامية في حملات الفتوحات الكبرى، عمل على قمع حركة الردة في شبه الجزيرة العربية معيداً توحيدها تحت راية الإسلام.

ج - لم تكن الصراعات الجانبية مقتصرة على الجانب الإسلامي، فصاحبة مرعش الفرنجية استدعت القائد آقسنقر إلى مدينتها معترفة بقيادته، فيما هاجمت سرية من الفرنجة المدينة التي دافع عنها المسلمون مع جند صاحبتها الفرنجية.

د - لم يتمكّن جيش السلطان السلجوقي من فتح حلب التي تحصّن فيها

قادة ثلاثة، فسار إلى حماه وشدد الحصار عليها وافتتحها عنوة.

هذه الاستراتيجية أظهرت نجاحها عبر العصور. فعندما يضع جيش ما خطة هجومية يحدّد فيها محور هجوم رئيسياً ومحور هجوم فرعياً أو ثانوياً، ويضع ثقله العسكري على المحور الرئيسي لخرق جهاز الدفاع المعادي. ويصدف أن تتمكّن القوى العسكرية من التقدّم بنجاح على المحور الثانوي، فيما يتعرقل تقدّمها على المحور الرئيسي. ففي هذه الحال تنقل القيادة جهدها الرئيسي إلى المحور الثانوي وتتابع تقدّمها عليه، فيما يصبح الجهد الثانوي على المحور الرئيسي السابق.

هـ - بعد أن حاصر الجيش الإسلامي كفرطاب، وتأكّد الفرنجة المحاصرون في داخلها من سقوطها، قتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم قبل سقوطها، فحرموا المهاجمين منها.

هذه الاستراتيجية التي مورست عبر التاريخ العسكري تسمى «سياسة الأرض المحروقة»، وتهدف إلى حرمان العدو المهاجم من الغنائم التي يمكن أن يحصل عليها في حال فتح المدينة عنوة.

وهذه الاستراتيجية طبقتها مدينة صيدا الفينيقية عندما هاجمها نبوخذنصر البابلي، فأحرقت نفسها ولم تمكّنه من استثمار انتصاره عليها. كما طبّقت الجيوش الروسية هذه الاستراتيجية عندما غزا نابوليون بونابرت روسيا، وأعطت نتائج جيدة إذ حرمت الجيش الفرنسي من الموارد التي هو بحاجة إليها لمتابعة مهمته، ففشل في هذه المهمة.

و - بعد فتح كفرطاب ارتكب المسلمون خطأً استراتيجياً أدى إلى خسارتهم الحرب. ففيما كان التهديد الفرنجي ما زال قائماً، تركوا معسكرهم من دون حماية، فاستولى عليه روجيل الفرنجي صاحب انطاكية. كما أنهم سيّروا جيشهم بمجموعات منفصلة من دون أخذ الحيطة والحذر، فسمحوا للقائد الفرنجي باستفرادها والقضاء عليها الواحدة تلو الأخرى.

لم يطبق جيش البرسقي في هذا التصرّف مبدأي حرية العمل والحصيل الأقصى للوسائل وقاعدة تجميع القوى، إذ سمح لعدوّه بمواجهة وحدات جيشه منفردة بدلاً من أن تكون مجتمعة. فقاعدة تجميع

القوى كلّها واشراكها في المعركة قبل انتهائها تدخل أيضاً في إطار مبدأ حرية العمل التي سبق وسلّطنا الأضواء عليها سابقاً في هذا الجزء من الموسوعة.

ز - ولا بدّ من التعليق على حادث اغتيال أبرز قائد عسكري مسلم، هو الأمير مودود، في ذروة الصراع بين المسلمين والفرنجة، على يد أحد الفدائيين الباطنيين.

وهنا يمكننا التساؤل: من هي الجهة التي يخدمها هذا الاغتيال؟ وهل أن الحشاشين الاسماعيليين كانوا يعملون دائماً، خلال هذه المرحلة، للمصلحة الإسلامية العامة؟ ولماذا لم يوجّه هؤلاء جهودهم خلالها لاغتيال القادة الفرنجة البارزين؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات ليست بالأمر اليسير، إنما من المؤكّد أن اغتيال الأمير مودود، كاغتيال غيره من القادة المسلمين البارزين على يد الفدائيين الباطنيين، لم يخدم الاستراتيجية الإسلامية العامة في مخطط الصراع ضد الفرنجة.

٢٤ - حملة السلطان سنجر بن ملكشاه على غزنة

في شوال من السنة ثمان وخمسمائة للهجرة توفي الملك علاد الدين صاحب غزنة، وملك بعده ابنه ارسلانشاه[١] الذي قبض على إخوته وسجنهم. لكن أحدهم، واسمه بهرام، فرّ إلى خراسان واستنجد بالسلطان سنجر بن ملكشاه.

جهّز سنجر جيشاً كبيراً بقيادة الأمير أنز الذي اصطحب معه الملك بهرام وسيّره إلى غزنة حيث اصطدم بجيش كبير أيضاً للملك ارسلان فهزم جيش غزنة الذي عاد جنده إلى المدينة في أسوأ حال.[٢]

عاد الملك إرسلان وجهّز جيشاً جديداً بقيادته، بعد أن حاول استرضاء سنجر، مرسلاً له هدايا وأموال بلغت مائتي ألف دينار، من دون نتيجة.

التقى الجيشان، على بعد فرسخ من غزنة، في صحراء شهرأباذ. وكان أرسلان في ثلاثين ألف فارس وعدد كبير من الرجّالة، ومعه

---

(١) ام ارسلانشاه سلجوقية، هي أخت السلطان ألب ارسلان بن داود.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٥٩.

مائة وعشرون فيلاً على كلّ منها صندوق يتسع لأربعة مقاتلين.

أ - **مجرى المعركة:**[1]

١ - **في المرحلة الأولى** من المعركة حملت فيلة أرسلان على قلب جيش سنجر، فبدأت إشارات الهزيمة تظهر عليه. عند ذلك أمر سنجر جنوده الأتراك برمي الفيلة بالسهام، فتقدّم ثلاثة آلاف راجل رموا الفيلة رشقاً واحداً من ثلاثة آلاف سهم، فقتلوا عدداً منها.

٢ - **في المرحلة الثانية** عدلت الفيلة عن القلب وهاجمت ميسرة جيش سنجر وجالت بين فرسانه ومشاته، فضعفت عزائم من في الميسرة.

٣ - **طريقة التخلّص من الفيلة:** كان قائد الميسرة أبو الفضل صاحب سجستان من الفرسان الأقوياء، فترجّل عن فرسه بنفسه وراح يشجع جنده للتصدي للفيلة.[2]

كتب ابن الأثير:[3]

«وقصد كبير الفيلة ومتقدّمها ودخل تحته، فشق بطنه وقتل فيلين آخرين».

٤ - **في المرحلة الثالثة** رأى الأمير أنز، الذي كان في الميمنة، ما جرى في الميسرة من قتال، فقرّر تعزيزها، فحمل من خلف جيش ارسلان وقصد الميسرة واختلط بجندها وأعانهم. وكان المقاتلون الذين كانوا يركبون الفيلة قد شدوا أنفسهم عليها بالسلاسل. فلما هوجمت الفيلة وقتل بعضها وعمل السيف في ركابها، ألقوا أنفسهم عنها، فبقوا معلقين عليها، فهاجمهم جند السلطان سنجر وقضوا عليهم.

انتصر السلطان سنجر ودخل غزنة واستولى على القلعة الكبيرة المشتملة على الأموال والتي تبعد عن المدينة تسعة فراسخ. وأجلس بهرام على عرش والده في

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٥٦.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.

غزنة، فخطب فيها للخليفة وللسلطانين محمد وسنجر، وبعدهم لنفسه.[1] وكانت هذه المرة الأولى التي يخطب في غزنة لسلطان سلجوقي.[2]

ب - هجوم إرسلانشاه المعاكس:

سار إرسلان بعد هزيمته إلى هندوستان، حيث اجتمع إليه أصحابه وقويت شوكته. فلما عاد سنجر إلى خراسان، انتقل إرسلان إلى غزنة التي هرب منها بهرام إلى باميان مستنجداً بالسلطان سنجر الذي أرسل جيشاً إليه في الحال.

وعندما وصل جيش سنجر إلى قرب غزنة، انهزم ارسلان من دون قتال، فلاحقة قائد جيش سنجر إلى جبال اوغنان مخرباً البلاد التي هو فيها ومهدداً سكانها الذين سلموه إرسلان خوفاً منه، فقتله.[3]

ج - الدروس المستقاة من معركة غزنة:

١ - قبض ارسلانشاه على إخوته وسجنهم بعد أن ورث الملك عن أبيه. وهذا الأمر ليس بمستغرب، إذ أنه كان يحصل ليس فقط في العالم الشرقي، إنما خاصة في الغرب الأوروبي خلال القرون الوسطى من تاريخه. فقصة القناع الحديدي، الذي وضع على رأس شقيق الملك لويس الرابع عشر التوأم الذي سجن لإخفائه عن العيون نظراً للشبه الكبير بينهما، هي قصة معروفة.

وفي اوروبا كان الملوك يورثون كلّ أملاكهم للابن الأكبر من أبنائهم، وقد سُنّ لذلك قانون دعي «قانون الارث للذكور». وهذا ما دفع بابناء الملوك غير الأبكار للتطوّع في صفوف الحملات الصليبية المتجهة إلى

(١) استولى جيش سنجر في غزنة على أموال كثيرة من الملك والرعايا. وكان لملوكها بعض الدور على حيطانها ألواح من الفضة، وسواقي المياه إلى البساتين من الفضة. وحصل سنجر على خمسة تيجان قيمة احدها تزيد عن مليوني دينار، وعلى سبعة عشر سريراً من الذهب والفضة، وألف وثلاثمائة قطعة مصاغ مرصعة.
عن ابن كثير، جزء ١٢، ص ١٩٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٥٧.

(٣) المرجع نفسه.

الشرق، وذلك للتفتيش عن ممالك لهم. وقد نجح بعضهم في ذلك.

٢ - استعمل الملك ارسلان الفيلة في معركته ضد السلطان سنجر. وأعطى هذا الاستعمال نتيجة جيدة، إذ أن هجوم الفيلة على قلب جيش سنجر وميسرته أضعف عزائم جندهما. ويمكن اعتبار الفيل كالدبابة الحالية التي تقوم وحداتها بالهجوم الصاعق لشق جبهة العدو وخرقها وإسقاطها. وترافق عناصر من المشاة الدبابات لحمايتها في القتال المتقارب من رماة الأسلحة المضادة للدبابات.

أما في زمن المعركة التي نتكلّم عنها، فبدلاً من الأسلحة المضادة للدبابات استعمل سنجر رماة السهام بشكل كثيف جداً ضد الفيلة التي جنحت عن القلب إلى الميسرة بعد أن قتل بعضها. ونقل ابن الأثير أن أحد قادة سنجر قصد كبير الفيلة وقائدها، ودخل تحته فشق بطنه ووضعه خارج القتال. وهذا الأمر يذكّر بمغاوير الجيوش الحديثة الذين يقتربون من الدبابة، فيصبحون في منطقة عدم الرؤيا لطاقمها، ويلصقون عليها أحد الألغام المضادة للدبابات المغنطيسية الذي ينفجر فيعطّلها.

٣ - يمكن إجراء مقارنة بالنسبة لقتال الفيلة بين معركة غزنة ومعركة القادسية التي كانت أول معركة يتواجه فيها المسلمون مع الفيلة الفارسية في القتال. وأوجه الشبه في القتال ضد الفيلة في المعركتين كان:[1]

* أعطى الهجوم الأول للفيلة تأثيراً كبيراً على المقاتلين في الحالين، إذ أنه فاجأ القوات الإسلامية وشقّ صفوفها وأنزل بها خسائر بالأرواح. وهذا يذكّر بأول استعمال للدبابات من قبل القوات البريطانية في السنة ١٩١٧ في معركة كومبري، حيث شكّل استعمالها مفاجأة تكتية ساهمت في خرق الجبهة الالمانية في شكل لم يسبق له مثيل.

* جرى التخلّص من الفيلة خلال المعركتين في الطريقة عينها. ففي معركة القادسية قام القعقاع بن عمرو وأخوه

(١) للمزيد من المعلومات حول معركة القادسية، يمكن مراجعة الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

بمهاجمة الفيل الأكبر الذي كان يقود الفيلة، فوضعوه خارج القتال وولى هارباً بعد أن قطع القعقاع خرطومه. ولحقت به الفيلة الأخرى رامية المقاتلين الفرس عن ظهورها.

وفي معركة غزنة شُقّ بطن كبير الفيلة وقائدها، فوضع خارج القتال وهوجمت الفيلة وقتل بعضها وفرّ الباقي منها رامياً المقاتلين عن ظهوره.

* في الحالين ربح المسلمون المعركة بعد وضع الفيلة خارج القتال.

٤ - نفذ ارسلان هجوماً معاكساً على غزنة بعد جلاء سنجر عنها إلى خراسان. ومفهوم الهجوم المعاكس هو مفهوم حديث في الحروب التقليدية، إذ أن الجيوش التي تنفّذ حالياً خطة دفاعية تحتفظ بقسم من وحداتها كاحتياط عام لتنفيذ هجمات معاكسة في حال نجاح العدو بخرق جبهتها الأساسية، وذلك بهدف طرده من المواقع الصديقة وإعادته إلى خارج خطوطها.

ومن الأمثلة عن الهجمات المعاكسة الناجحة نذكر الهجوم المعاكس الذي شنته قوات فيشي السنة ١٩٤١ في قطاع مرجعيون - الخيام[١] ضد القوات البريطانية والفرنسية الحرّة التي كانت قد تمكّنت من خرق الجبهة في ذلك القطاع. وقد تمكّنت القوات الفيشية، ومنها فوج القناصة اللبناني الأول وإحدى كتائب الخيالة اللبنانية، من إعادة القوات المهاجمة إلى مشارف فلسطين، محققة بذلك انتصاراً مهماً عليها.[٢]

٢٥ - حملة جاولي سقاوو على بلاد فارس

في السنة عشر وخمسمائة سار السلطان السلجوقي محمد إلى بلاد فارس بعد موت نائبها خوفاً عليها من ارسلانشاه صاحب كرمان. ثمّ أقطعها إلى جاولي سقاوو الذي

---

(١) مرجعيون والخيام تقعان في القطاع الشرقي من جنوب لبنان.

(٢) للمزيد من المعلومات حول هجوم مرجعيون المعاكس، يمكن مراجعة موسوعة «تاريخ الجيش اللبناني المعاصر»، للعميد سامي ريحانا، انتاج نوبليس، بيروت، الجزء ٤، ص ٦٧٦ - ٦٧٧.

سار إليها واستولى على قلاع كثيرة أهمها قلعة اصطخر، وهي من أمنع القلاع وأحصنها.[١]

أما صاحب مدينة فسا،[٢] واسمه خسرو، فإنه رفض تسليمها، فأظهر جاولي أنه عائد إلى بغداد، وحمّل أثقاله على الدواب وسار وكأنه يطلب العراق. ورجع الرسول إلى خسرو فأخبره بذلك، فاغترّ وجلس للشراب وهوآمن. لكن جاولي عاد من الطريق إليه في صورة مفاجئة، فقصده وهو في نفر يسير، فوصل إليه وهو مخمور ونائم، فهزمه وفرّق أصحابه. ونهب جاولي أثقاله وأمواله، وأكثر القتل في أصحابه فيما نجا خسرو إلى حصن يقع بين جبلين.[٣]

تسلّم جاولي مدينة فسا وسار إلى خسرو فحاصره مدّة وضيّق عليه. لكنه رأى من امتناع حصنه وكثرة ذخائره ما أثبت له أن مدّة الحصار ستطول عليه، فصالحه بهدف المتابعة بغزو باقي بلاد فارس. ثمّ رحل إلى شيراز، ومنها إلى كازرون فملكهما.

ثمّ سار جاولي إلى دارابجرد فهرب صاحبها إلى كرمان طالباً النجدة من صاحبها ارسلانشاه.[٤] توجّه جاولي لحصار «رتيل رننه» وهو مضيق بطول فرسخين داخل وادٍ، وفي صدره قلعة منيعة على جبل عالٍ، وأهل دارابجرد يتحصنون فيه حافظين أعلاه. وهنا خطّط جاولي لخدعة أدت إلى احتلال القلعة.

أ - احتلال القلعة الحصينة بخدعة:

كتب ابن الأثير عن الخدعة ما يلي:[٥]

«فلما رأى جاوي حصانته، سار يطلب البرية نحو كرمان. ثمّ رجع من طريق كرمان إلى دارابجرد مظهراً أنه من عسكر الملك ارسلانشاه صاحب كرمان، فلم يشك أهل

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٩٦.
(٢) في ابن خلدون «نسا».
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٦٣.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٣.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٦٣ - ١٦٤.

الحصن انه مدّد لهم مع صاحبهم، فأظهروا السرور وأذنوا له في دخول المضيق. فلما دخله وضع السيف فيمن هناك، فلم ينجُ غير القليل. ونهب أموال دارابجرد».

هكذا نجت حيلة جاولي الذي عاد ووقع في شباك خدعة مماثلة أدت إلى خسارته الحرب.

ب - حسن استعمال الأرض:

وفي التفاصيل أنّ جاولي كان قد سار بجيشه فنزل بمنطقة «فرج»، بين فارس وكرمان، وحاصرها. فلما بلغ ذلك ارسلانشاه ملك كرمان، جمع جيشاً من ستة آلاف فارس وكلّفه بالمسير لقتال جاولي. وكان صاحب ولاية «فرج» أمير يسمى «موسى» ذا رأي ومكر، فاجتمع بقائد جيش كرمان وأشار عليه بترك الطريق التقليدية لأن جاولي محتاط عليها، وأن يسلك بجيشه طريقاً غير مسلوكة بين الجبال والمضائق.[(١)]

كتب ابن الأثير عن نتيجة المعركة ما يلي:[(٢)]

«فاجتمع بالعسكر وأشار عليهم بترك الجادة المسلوكة. وقال: «إن جاولي محتاط بها»، وسلك بهم طريقاً غير مسلوكة بين جبال ومضايق. وكان جاولي يحاصر فرج وقد ضيّق على من بها وهو يدمن الشرب، فسيّر أميراً في طائفة من عسكره ليلقى العسكر المنفذ من كرمان. فسار الأمير فلم يرَ أحداً فظنّ أنهم قد عادوا فرجع إلى جاولي وقال: «إن العسكر كان قليلاً فعاد خوفاً منا». فاطمأنّ حينئذ جاولي وأدمن شرب الخمر. ووصل عسكر كرمان إليه ليلاً وهو سكران نائم فأيقظه بعض أصحابه وأخبره فقطع لسانه، فأتاه غيره وأيقظه وعرّفه الحال فاستيقظ وركب وانهزم، وقد تفرّق عسكره منهزمين فقتل منهم وأسر كثير».

وتوافقت رواية ابن خلدون مع رواية ابن الأثير إذ كتب:[(٣)]

«واجتمع معهم صاحب الحصن المحاصر، وسلك بهم غير الجادّة. وسمع جاولي بخبرهم فأرسل بعض الأمراء ليأتيه بالخبر

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٦٤.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٤ - ٩٥.

فلم يجد بالجادة أحداً فرجع، وأخبره أن عسكر كرمان قد رجع فاطمأنّ. ولم يكن إلاّ قليل حتى بيتته عساكر كرمان في شوّال سنة ثمان وخمسمائة فانهزم وفتكوا فيه قتلاً وأسراً. وأدركه خسرو بن أبي سعد الذي كان قتل أباه، فلما رآهما خاف منهما فآنساه، وأبلغاه إلى مأمنه بمدينة نسا. ولحقة عساكره، وأطلق ملك كرمان الأسرى، وجهزهم إليه. وبينما هو يجهز العساكر لكرمان لأخذ ثأره توفي جعفري بك ابن السلطان في ذي الحجة من تسع لخمس سنين من عمره، فقطعه ذلك عن معاداة كرمان. ثمّ بعث ملك كرمان إلى السلطان ببغداد في منع جاولي عنه فقال: لا بدّ أن تسلّم الحِصن إلى حاصره جاولي في حدّ كرمان، وانهزم عليه، وهو حصن فرج. ثمّ توفي جاولي في ربيع سنة عشر فأمّنوا إعادته والله سبحانه وتعالى أعلم».

ج - الدروس المستقاة من حملة فارس:

١ - قيل: «الحرب خدعة». فبالفعل عمد كثير من القادة خلال عصور التاريخ العسكري إلى خداع العدو للانتصار عليه. وفي حملة فارس انتصر جاولي على خسرو صاحب فسا بعدما قام بخدعة ناجحة، إذ جعل هذا الأخير يعتقد اعتقاداً جازماً أنه غادر المنطقة قاصداً بغداد. فسرّح جنده ولم يتخذ تدابير الحيطة، فهزمه جاولي ونهب أثقاله وأمواله وفرّق أصحابه بعد ان أكثر القتل فيهم.

أما الخدعة الثانية الني نفذها جاولي لربح المعركة فقد قضت بابتعاد جيشه عن المضيق والقلعة الحصينة وسيره نحو البرية، مما جعل أصحاب الحصن يقتنعون بأنه تراجع عن فكرة فتحه. لكن جاولي عاد بجيشه موهماً المدافعين عن الحصن بأنه من عسكر حليفهم ارسلانشاه صاحب كرمان. وهكذا اعتقد أهل الحصن بأنه مدد لهم، فدخل بجيشه المضيق والقلعة حيث قتل كلّ من فيها. وقد نقل كلّ من ابن خلدون وابن الأثير الرواية نفسها عن أحداث احتلال القلعة الحصينة.

ويمكننا التساؤل عن سبب عدم تأكّد قائد حامية القلعة الحصينة من هوية الجيش المتجه إليه قبل السماح له بدخول المضيق

والقلعة، خاصة أنّ جاولي سبق وقام بخدعة مماثلة حول مدينة فسا؟

لقد حفل التاريخ العسكري بخدع مماثلة للخدعتين المذكورتين. وخير مثال يأتي من حرب طروادة إذ أن الأساطيل الاغريقية رفعت مراسيها وغادرت شاطىء طروادة مظهرة أنها عائدة إلى بلادها. إلاّ أنها تركت حصاناً خشبياً ضخماً بداخله مجموعة من خيرة المقاتلين. ولما أدخله الطرواديون إلى مدينتهم وانصرفوا إلى الاحتفال بالنصر واللهو والشراب، انحدر منه المقاتلون ليلاً وفتحوا أبواب المدينة للجيوش الاغريقية التي عادت إلى الشاطىء الطروادي وأنزلت المقاتلين الذين اقتحموا طروادة ودمّروها تدميراً كاملاً.

مثال آخر جرى في افريقيا في السنة نفسها أي السنة عشر وخمسمائة للهجرة نقل خبره ابن الأثير فكتب:[١]

«في هذه السنة حصر عسكر علي بن يحيى صاحب أفريقية مدينة تونس وبها أحمد بن خراسان وضيق على من بها فصالحه صاحبها على ما أراد.

وفيها فتح أيضاً جبل وسلات بأفريقية واستولى عليه وهو جبل منيع ولم يزل أهله طول الدهر يفتكون بالناس ويقطعون الطريق. فلما استمرّ ذلك منهم سيّر إليهم جيشاً فكان أهل الجبل ينزلون إلى الجيش ويقاتلون أشد قتال. فعمل قائد الجيش الحيلة في الصعود إلى الجبل من شعب لم يكن أحد يظن أنه يصعد منه. فلما صار في أعلاه في طائفة من أصحابه ثار إليه أهل الجبل فصبر لهم وقاتلهم فيمن معه أشد قتال. وتتابع الجيش في الصعود إليه فانهزم أهل الجبل وكثر القتل فيهم ومنهم من رمى نفسه فتكسر ومنهم من أفلت. واحتمى جماعة كثيرة بقصر في الجبل. فلما أحاط بهم الجيش طلبوا أن يرسل إليهم من يصلح حالهم، فأرسل إليهم جماعة من العرب والجند، فثار بهم أولئك بالسلاح فقتلوا بعضهم وطلع الباقون إلى أعلى القصر ونادوا أصحابهم من الجيش فأتوهم وقاتلوهم بعضهم من أعلى القصر وبعضهم من أسفله فألقى من فيه من أهل الجبل أيديهم فقتلوا كلّهم».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٦٥.

فالخدعة في القتال تدخل في إطار «إخفاء النوايا عن العدو»، وتؤمّن بالتالي «حرية العمل» للقوات الصديقة. لذلك يعمد إلى التخطيط لها وتنفيذها كبار الاستراتيجيين العسكريين في الجيوش الحديثة.

٢ - في نهاية الحملة عاد جاولي ووقع في الخطأ الذي وقع فيه أخصامه، إذ أنه استبعد كلياً إمكان اقتراب الجيش المعادي منه عبر الشعاب والجبال، ففقد حرية عمله وفوجىء بعدوّه، فيما كان غير جاهز للقتال.

فالقائد المتبصّر لا يهمل أي احتمال من الاحتمالات التي قد يلجأ إليها خصمه في خوض معركته. والأرض اعتبرت خلال العصور صديقة القائد الذي يحسن استعمالها. فخلال الدراسة التحضيرية التي يقوم بها القائد وأركانه تمهيداً لاعتماد خطة مناورته، يوجه اهتماماً خاصاً إلى عنوان عام هو «الوسط» أي الإطار التي ستجري فيه المعركة، بما فيه الأرض والسكان والعوامل الطبيعية والمناخية والحواجز والمسالك. وفي دراسة الأرض يعرض القائد مختلف الإمكانات التي تتيحها له ولخصمه ويتخذ تدابير وقائية لا تهمل أياً من الاحتمالات التي تقدّمها الأرض لعدوّه، وذلك كي لا يرتكب الخطأ الذي ارتكبه جاولي والذي خسر معركته بسببه.

٢٦ - حملة السلطان محمد على الباطنية

لما علم السلطان محمد السلجوقي أن مصالح الناس منوطة بمحو آثار الباطنية وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم، قرّر شنّ حملة كبيرة على قلاعهم. وكان القائم بأمرهم يومذاك هو الحسن بن الصبّاح الرازي صاحب قلعة ألموت الذي كانت أيامه قد طالت حتى بلغت ستاً وعشرين سنة من الحكم. وكان السكان المجاورون لقلاعه في أسوأ حال بسبب غزواته عليهم وقتله وأسره رجالهم، وسبي نسائهم.(١)

لهذه الأسباب، سيّر السلطان إلى الإسماعيليين الباطنية جيشاً كبيراً السنة

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٥.

إحدى عشرة وخمسمائة، بقيادة الأمير انوشتكين شيركير صاحب آية وساوة وغيرهما.

سار الجيش فملك قلاعاً عدّة للباطنية، بعد أن أمّن من فيها وسيّرهم إلى قلعة ألموت، ومنها قلاع «كلام» و«بيرة».[١] ثمّ سار إلى قلعة الموت بعد ان أمدّه السلطان بقوى جديدة بقيادة عدد من إمرائه، فحاصرها وبنى حولها مساكن سكنها ومن معه، وخصّص لكلّ فرقة من فرق جيشه أشهراً يبنون خلالها بيوتهم، وأشهراً يقاتلون فيها المحاصَرين داخل القلعة.[٢]

وكان السلطان يعزّز جيشه الذي يحاصر القلعة بالميرة والرجال والذخائر، فضاق الأمر على الباطنية وفرغت عندهم الأقوات وغيرها.

نقل ابن الأثير رواية عن نهاية الحصار دون التمكّن من فتح القلعة بسبب وفاة السلطان محمد، فكتب:[٣]

«فلما اشتدّ عليهم الأمر نزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا. فلم يجابوا إلى ذلك وأعادهم إلى القلعة قصداً ليموت الجميع جوعاً. وكان ابن الصباح يجري لكلّ رجل منهم في اليوم رغيفاً وثلاث جوزات، فلما بلغ بهم الأمر إلى الحدّ الذي لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم. ووصل الخبر إلى العسكر المحاصر لهم بعدهم بيوم ولزموا على الرحيل، فقال شيركير: «إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددناه من الأقوات والذخائر. والرأي أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها. وإن لم يكن المقام فلا بدّ من مقام ثلاثة أيام حتى ينفد منا ثقلنا وما أعددناه ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو». فلما سمعوا قوله علموا صدقه فتعاهدوا على الاتفاق والاجتماع. فلما أمسوا رحلوا من غير مشاورة ولم يبق

(١) قلعة بيرة تقع على سبعة فراسخ من قزوين.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) المرجع نفسه.

غير شيركير. ونزل إليه الباطنية من القلعة فدافعهم وقاتلهم وحمى مَن تخلف من سوقه وأتباعه ولحق بالعسكر. فلما فارق القلعة غنم الباطنية ما تخلف عندهم».

٢٧ - وفاة السلطان محمد والخليفة المستظهر بالله

في الرابع والعشرين من ذي الحجة السنة إحدى عشرة وخمسمائة للهجرة توفي السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب ارسلان السلجوقي إثر مرض ألمّ به. فلما حضرته الوفاة استدعى ابنه محموداً، وعمره أربع عشرة سنة، وأمره بأن يخرج ويجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس.(١)

وخطب لمحمود بالسلطنة، فصرف الأموال للجند، وكان في الخزنة أحد عشر مليون دينار. واستقرّ الملك له في بغداد وغيرها من الأمصار.

وفي السادس عشر من شهر ربيع الآخر السنة اثنتي عشرة وخمسمائة للهجرة توفي الخليفة المستظهر بالله بسبب مرض التراقي. وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً. وحكم في عهده ثلاث سلاطين سلاجقة هم تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان، وبركيارق ومحمد ابنا ملكشاه.

وتولى الخلافة بعده ابنه المسترشد بالله الذي كان ولي العهد طيلة ثلاثة وعشرين سنة. فلما توفي والده بايعه أخواه وأعمامه وغيرهم من الأمراء والقضاة والائمّة والأعيان.(٢)

وبوفاة السلطان محمد دخلت السلطنة السلجوقية في مرحلة من الصراعات الداخلية أدت لاحقاً إلى تراجع التأثير السلجوقي على مقدرات الخلافة العباسية وإلى سيطرة آل زنكي عليها. فمنذ تولية

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٩٧ - ١٩٨.
(٢) نقل ابن خلدون أن الخليفة المستظهر بالله توفي سنة ٥١٢هـ.
عن ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٥.

محمود السلطنة خرج عليه أخوه الملك طغرل،[1] كما أعلن شقيقه الملك مسعود عصيانه فجرت حروب داخلية عنيفة بينهم.[2]

وهكذا بدأت عائلة البرسقي، التي تحدّر منها آل زنكي، تبرز على الساحة السياسية والعسكرية في الشرق الإسلامي.

هذا ما سنفصّله في الجزء التالي من موسوعتنا هذه.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٨ - ٩٩.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

- انظر ملحق رقم ١٠: سيرة السلطان محمد.

ملحق رقم ٢

سيرة القائد صدقة بن مزيد أمير العرب

ابن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي، الأمير سيف الدولة، صاحب الحلة وتكريت وواسط وغيرها. كان كريماً عفيفاً ذا ذمام، ملجأ لكلّ خائب يأمن في بلاده، وتحت جناحه. وكان يقرأ الكتب المشكّلة ولا يحسن الكتابة، وقد اقتنى كتباً نفيسة جداً. وكان لا يتزوّج على امرأة قط، ولا يتسرى على سرية حفظاً للذمام، ولئلا يكسر قلب أحد، وقد مدح بأوصاف جميلة كثيرة جداً. قتل في بعض الحروب، قتله غلام اسمه برغش، وكان له من العمر تسع وخمسون سنة.(١)

كتب ابن الأثير عن صدقة ما يأتي:(٢)

«الأمير سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدي أمير العرب، وهو الذي بنى الحلة السيفية بالعراق. وكان قد عظم شأنه وعلا قدره واتسع جاهه واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم. وكان كثير العناية بأمور السلطان والتقوية ليده والشد منه على أخيه بركيارق حتى انه جاهر بركيارق بالعداوة ولم يبرح على مصافاة السلطان محمد. وزاده محمد أقطاعاً من جملته مدينة واسط وأذن له في أخذ البصرة ثمّ أفسد ما بينهما العميد أبو جعفر محمد بن الحسين البلخي وقال في جملة ما قال عنه: «إن صدقة قد عظم أمره وزاد حاله وكثر إدلاله ويبسط في الدولة وحمايته

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ١٨٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٣ - ١١٤.

كلّ من يفر إليه من عند السلطان، وهذا لا تحتمله الملوك لأولادهم ولو أرسلت بعض أصحابك لملك بلاده وأمواله». ثمّ إنه تعدى ذلك حتى طعن في اعتقاده ونسبه وأهل بلده إلى مذهب الباطنية وكذب وإنما كان مـذهـبـه الـتـشـيـع لا غير. ووافـق أرغـون السعدي أبا جعفر العميد وانتهى ذلك إلى صدقة. وكانت زوجة أرغون بالحلة وأهله، فلم يؤاخذهم بشيء مما كان له أيضاً هناك من بقايا خراج ببلده. فأمر صدقة أن يخلص ذلك إليه بأجمعه ويسلم إلى زوجته. وأما سبب قتله فإن صدقة كان كما ذكرنا يستجير به كلّ خائف من خليفة وسلطان وغيرهما. وكان السلطان محمد قد سخط على أبي دلف سرخاب بن كيخسرو صاحب ساوة وآبة، فهرب منه وقصد صدقة، فاستجار به فأجاره. فأرسل السلطان يطلب من صدقة أن يسلّمه إلى نوابه فلم يفعل وأجاب: «إني لا أمكن منه بل أحامي عنه».

ملحق رقم ٣

سيرة القائد تميم بن المعزّ بن باديس صاحب إفريقيا

صاحب إفريقية، كان من خيار الملوك حلماً وكرماً، وإحساناً. ملك ستاً وأربعين سنة، وعمّر تسعاً وتسعين سنة، وترك من البنين أنهد من مائة،(١) ومن البنات ستين بنتاً،.وملك من بعده ولده يحيى. ومن أحسن ما مدح به الأمير تميم قول الشاعر:

أَصَحُّ وَأَعْلَى ما سَمِعْنَاهُ في النَّدَا
مِـنَ الخَبَـرِ المَروِيِّ مُـنْـذُ قَـدِيمِ
أَحَادِيثُ تَرْوِيها السُّيُولُ عَنِ الحَيَا(٢)
عَنِ البَحْرِ عَنْ كَفِّ الأَمِيرِ تَمِيمِ

---

(١) أنهد من مائة: أكثر من مائة.

(٢) الحيا: المصر.

ملحق رقم ٤

سيرة هند بنت عتبة

هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. صحابية، قرشية، عالية الشهرة. وهي أم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. تزوّجت أباه بعد مفارقتها لزوجها الأول الفاكه بن المغيرة المخزومي، في خبر طويل من طرائف أخبار الجاهلية. وكانت فصيحة جريئة، صاحبة رأي وحزم ونفس وأنفة، تقول الشعر الجيد. وأكثر ما عرف من شعرها مراثيها لقتلى «بدر» من مشركي قريش، قبل أن تسلم. ووقفت بعد وقعة بدر (في وقعة أُحُد) ومعها بعض النسوة، يمثّلن بقتلى المسلمين، ويجدعن آذانهم وأنوفهم، وتجعلها هند قلائد وخلاخيل. وترتجز في تحريض المشركين، والنساء من حولها يضربن الدفوف:

نَحْنُ بَناتِ طارِقْ
نَمْشي على النَّمارِقْ
إن تُقْبِلوا نُعانِقْ
أو تُدْبِروا نُفارِقْ
فِراقَ غير وامِقْ

ثمّ كانت ممن أهدر النبي ﷺ دماءهم، يوم فتح مكة، وأمر بقتلهم، ولو وجدوا تحت أستار الكعبة؛ فجاءته مع بعض النسوة في الأبطح، فأعلنت إسلامها، ورحّب بها. وأخذ البيعة عليهنّ، وكان من شروطها ألا يسرقن ولا يزنين، فقالت: وهل تزني الحرّة، أو تسرق يا رسول الله؟ قال: ولا يقتلن أولادهن.

فقالت: وهل تركت لنا ولداً إلاّ قتلته يوم بدر؟ (وفي رواية: ربيناهم صغاراً وقتلتهم أنت ببدر كباراً!).

وكان لها صنم في بيتها تعبده، فلما أسلمت، عادت إليه، وجعلت تضربه بالقدوم حتى فلذته، وهي تقول: كنا معك في غرور!

ومن كلامها: المرأة غِلّ لا بدّ للعنق منه، فانظر من تضعه في عنقك! ورُئيَ معها ابنها معاوية، فقيل لها: إن عاش ساد قومه. فقالت: ثَكِلْتُه إن لم يسدْ إلا قومه! وكانت لها تجارة في خلافة عمر. وشهدت اليرموك. وحرضت على قتال الروم.

ملحق رقم ٥

الرواية الصليبية لاحتلال طرابلس

كتب وليم الصوري عن احتلال طرابلس ما يأتي:[١]

«الملك بلدوين يسرع إلى طرابلس. مواصلة الحصار بنشاط كبير والاستيلاء على المدينة.

عندما علم الملك أن أسطول الجنويين كان ما يزال متريثاً في المنطقة المجاورة لطرابلس بعد الاستيلاء على جبيل جاء مسرعاً إلى طرابلس. فقد رغب في إدخال جنود الأسطول في خدمته وفق شروط معينة، حتى يتمكّن بمساعدتهم من الاستيلاء على إحدى المدن الساحلية، لاسيما بيروت وصيدا وصور وعسقلان، وهو وضع أعاق خططنا كثيراً لتوسيع مملكتنا الفتية. وجلب حضور الملك ابتهاجاً كبيراً لجميع الذين شاركوا في الحصار في البر والبحر، وجعلهم أكثر حماسة حول العمل قيد الإعداد. وكان قدومه مصدر تشجيع كبير للذين كانوا يعملون في الحصار أمام المدينة، فقد ألهبوا بشجاعة كبيرة وشعروا بثقة أن قوتهم قد ازدادت. هذا وجلب وصوله - بالمقابل - إحباطاً مماثلاً للمحاصرين، وأزال بالكامل أملهم الضعيف بالمقاومة، وبدأت قوتهم تتلاشى قياساً مع قوّة المسيحيين التي ازدادت، وإن الذي زاد قوّة أعدائهم جعل ضعفهم أكثر وضوحاً. وفي ضوء هذا الحال جدد جنودنا الهجوم، بقوّة الإمدادات الجديدة، وهاجموا العدو بعنف وبروح رائعة كلّما سنحت الفرصة لهم بذلك.

---

(١) وليم أسقف صور، تاريخ الحروب الصليبية، دارنوبليس - بيروت، ١٩٩٠، جزء ٣، ص ٥٣١ - ٥٣٢.

وحدث ذلك وكأنهم في البداية ذاتها للحصار، بينما كانوا في الواقع يواصلونه بجهد كبير لمدّة سبع سنين متتالية.

رأى سكان المدينة أن قوة المسيحيين كانت تزداد يومياً على عكس قوتهم التي كانت تتضاءل، وأضجرهم الجهد المتواصل ولم يكن عندهم أي أمل بالمساعدة. وهكذا، تداولوا فيما بينهم بغية وضع نهاية لهذه المشاق الكبيرة، وأرسلت الرسل إلى الملك والكونت باقتراحات الاستسلام تحت الشروط التالية: أن يُسمح للّذين رغبوا بمغادرة المدينة بمغادرتها بحرية ودون إعاقة، وأن ينقلوا أسرهم وممتلكاتهم إلى حيثما أرادوا التوجّه، وأن يُسمح للذين لم يرغبوا بمغادرتها بالبقاء في منازلهم بسلام وأمان وأن يحتفظوا بممتلكاتهم شريطة دفعهم مبلغاً سنوياً محدداً للكونت.

أصغى الملك إلى مطالب الطرابلسيين ووافق على مطالبهم بعد تشاوره مع الكونت والزعماء واستلم المدينة فوراً، وكان القرار مرضياً للجميع. وبناء عليه، فقد استدعي الطرابلسيون وأعطوا مطالبهم حسبما رغبوا تماماً، واتفق بأداء الأيمان أن تتم المحافظة على هذه الشروط بإخلاص صادق ودون خداع أو نية شريرة. ثمّ سُلّمت المدينة، وفتحت مداخلها لجميع الذين رغبوا بدخولها. لقد تمّ الاستيلاء على طرابلس في العاشر من شهر حزيران في العام /١١٠٩/ لتجسيد ربنا. وتعهد برترام في الوقت نفسه بالولاء للملك وأصبح الرجل التابع والمخلص له، ولهذا السبب، فإن خلفاءه ملزمون حتى الوقت الحالي بإظهار الولاء ذاته لملك القدس».

ملحق رقم ٦

الرواية الصليبية لاحتلال جبيل

كتب وليم الصوري عن احتلال جبيل ما يأتي:[١]

«تقع مدينة جبيل على ساحل فينيقيا، وهي إحدى المدن التي كانت تابعة لمطرانية صور مع حقوق المطرانية، ويذكرها الرسول حزقيال بقوله: «شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلافوك».[٢] ومجدداً جاء في سفر الملوك الأول المقولة التالية بخصوص المدينة ذاتها: «وهيأ الجبليون الأخشاب والحجارة لبناء البيت».[٣] وكان الإسم القديم لهذه المدينة هو ايف Eve حيث يعتقد أن ايفيوس، الابن التاسع لكنعان، كان مؤسس هذه المدينة.

حاصرت الجيوش، لدى وصولها إلى جبيل، المدينة براً وبحراً، واستولى الرعب على الأهلين حيث لم يكن لديهم أية ثقة بقوة دفاعاتهم. وبناء على ذلك أرسلوا وفداً إلى قائدي الأسطول أنسالدوس وهيو امبرياكوس ليعلن أن السكان كانوا على استعداد لفتح المداخل إلى المدينة واستقبالهما كحاكمين لها تحت شروط محددة. واشترط أن تعطى فرصة للذين رغبوا بمغادرة المدينة ليتصرّفوا كما رغبوا دون إعاقة، مع زوجاتهم وأبنائهم، وأن يسمح للذين لم يرغبوا بالتخلي عن منازلهم في المدينة، أن يقيموا في ظلّ شروط إيجابية، ومنح السكان الشروط التي طلبوها فسلموا

---

(١) وليم الصوري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٣١ - ٥٣٢.
(٢) حزقيال: ٩/٢٧.
(٣) الملوك الأول: ١٨/٥.

المدينة مباشرة إلى القائدين وتسلّم أحدهما وهو - هيو أمبرياكوس - المدينة لفترة محددة من الزمن مقابل دفع مبلغ سنوي محدد من المال لخزينة الجنويين. وكان هذا الرجل نفسه جدّ هيو الذي يحكم حالياً تلك المدينة ويحمل الاسم ذاته والكنية ذاتها.

وبعدما تمّ الاستيلاء على المدينة بهذه الطريقة عاد الأسطول من جديد إلى طرابلس».

ملحق رقم ٧

الرواية الصليبية لاحتلال صيدا

كتب وليم الصوري:[١]

«انطلقت في ذلك العام ذاته مجموعة من الحجاج من جزر الغرب وخاصة من الأراضي المعروفة باسم النروج، فقد كانوا سمعوا أن المؤمنين بالمسيح كانوا قد استولوا على مدينة القدس المقدّسة، فرغبوا بالذهاب إلى هناك من أجل العبادة. وهكذا، أعدوا أسطولاً موائماً وركبوا على متنه، وأبحروا به عبر القناة الإنكليزية بعدما دفعتهم ريح مواتية، ثمّ دخلوا بحرنا الداخلي بعبورهم المضائق الواقعة بين كالبي وجبل أطلس، وأبحروا على طوله إلى يافا. وكان القائد العام للأسطول رجلاً شاباً وطويلاً وصاحب مظهر وسيم، وأخاً لملك النروج. ورسا الأسطول في الميناء وهبط منه المسيحيون، وأخذوا على الفور طريقهم نحو القدس، وهدف حجهم.

وما إن أُبلغ الملك بوصولهم حتى انطلق مسرعاً نحوهم لمقابلتهم، وحيا الأمير بلطف وحاول أن يتأكّد أثناء محادثته الودية معه فيما إذا اعتزمت الحملة البحرية على البقاء لفترة من الزمن في المملكة. وأراد أن يعرف - في حال الإيجاب - فيما إذا كان أفرادها مستعدين لتكريس خدماتهم للمسيح لفترة من الزمن بحيث يمكن توسيع ممتلكات المسيحيين عن طريق جهودهم الحماسية وذلك بالاستيلاء على إحدى مدن الكفرة.

---

(١) وليم الصوري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٤٠ - ٥٤٢.

وأجاب الإسكندنافيون، بعد أن تداولوا فيما بينهم، أنهم قد أتوا من أجل تكريس أنفسهم لخدمة المسيح. وأضافوا أنهم كانوا على استعداد للتقدّم بحراً بالسرعة القصوى نحو أي من المدن الساحلية التي رغب الملك وجيشه بمحاصرتها، ولم يطلبوا شيئاً مقابل خدماتهم إلا الطعام الضروري.

وأصغى الملك إلى أقوالهم باهتمام وحماسة، وجمع على الفور كامل قوة المملكة وتقدّم بقوّة كبيرة بقدر الإمكان نحو صيدا. وأبحر الأسطول في الوقت نفسه من ميناء عكا وأسرع إلى صيدا بمنحى مباشر بحيث يتمكّن الجيشان من الوصول إلى أمام المدينة في وقت واحد تقريباً.

تعتبر مدينة صيدا مدينة بحرية واقعة بشكل موات بين مدينة بيروت ومطرانية صور، وتشكّل جزءاً كبيراً من فينيقيا. وقد أشير إليها مراراً في كلّ من الكتابات القديمة والحديثة: وهكذا يقول سليمان في سفر الملوك الثاني [الأول] أثناء كتابته إلى حيرام ملك صور: «والآن فأمر أن تقطعوا لي أرزاً من لبنان ويكون عبيدي مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كلّ ما تقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين».(١)

ويذكر ربنا هذه المدينة في الأناجيل قائلاً: «لو صنعت في صور وصيدا القوات المصنوعة فيكما»(٢) الخ.

ونقرأ أن كنعان أسس هذه المدينة حيث تحتفظ منه باسم مؤسسها حتى الوقت الحالي هي إحدى المدن المساعدة لمطرانية صور.

وهكذا، فقد حاصرت قواتنا صيدا براً وبحراً، واستولى خوف كبير على السكان لأنهم أدركوا أن المقاومة بالقوة ستكون عقيمة. وبناء عليه حاولوا أن يحدثوا بالإستراتيجية ما لم يستطيعوا إحداثه بالشجاعة وذلك لتفادي الخطر الوشيك.

كان في حاشية الملك شخص يدعى بلدوين، وكان واحداً من أتباعه الثقاة، وكان حاجبه الخاص والقائم على خدمته بشكل

(١) الملوك الأول: ٥/٦.

(٢) متى: ١١/٢١.

عملي، وكان هذا الرجل وثنياً من قبل، وقد طلب أن يُعمّد، ولم يستقبله الملك بحماسه الورع في جرن المعمودية المقدّس فحسب، بل أعطاه اسمه الخاص وجعله واحداً من خدمه.

وقرّر أعيان صور تحرير أنفسهم بأية وسيلة، وأرسلوا الوسطاء سراً للتفاوض مع هذا الرجل، ووعدوه بمبلغ كبير من المال وبممتلكات واسعة في المدينة إذا ما قتل الملك وخلصهم من الخطر الكبير. وكان بلدوين صديقاً حميماً للملك وكان عزيزاً لديه حيث غالباً ما لازم سيّده بمفرده عندما خلا الأخير إلى نفسه ليتخلّص من ضرورات الطبيعة. ومع ذلك، فقد فكّر عن طواعية بالاقتراح المقدّم ووعد أن ينفّذه، واستسلم في الواقع إلى الجريمة حيث انتظر فقط وقتاً موائماً لتنفيذ العمل.

لكن بعض المسيحيين الموجودين في المدينة حصلوا على تلميح في هذه الأثناء عن المسألة. وبما أنهم خافوا من إمكانية تنفيذ هذا العمل بالفعل بسبب عدم اكتراث الملك، كتبوا رسالة مجهولة شارحين فيها الخطة بالتفصيل وأرسلوها بواسطة سهم قذفوه إلى داخل جيشه.

وصدف أن سقطت الرسالة بين يدي الملك، حيث تأثر جداً بعد قراءته لها، واستدعى على الفور نبلاءه الرئيسيين وتشاور معهم بخصوص المنحى الذي يتوجّب اتخاذه. واستدعي الرجل المذنب أمامهم، واعترف بجريمته وحكم القضاة عليه بالشنف.

وعندما بات جلياً أن هذه المؤامرة كانت مخفقة، جرب السكان طريقة أخرى لتحقيق غايتهم، وأرسلوا رسلاً توسلوا أن يسمح للأعيان بمغادرة صيدا، وأن يبقى عامة الناس كما كانوا من قبل تحت شروط مواتية يتمكنون بها من الاستمرار في زراعة الحقول. واستجيب لهذا المطلب، واستسلمت المدينة وسمح للأعيان أن يرحلوا بحرية إلى حيث رغبوا مع زوجاتهم وأبنائهم.

ومنح الملك على الفور المدينة بسخاء إلى أحد نبلائه، وهو يوستاس غرينر ليحتفظ بها بحق وراثي. ثمّ استأذن أصحاب الأسطول بالرحيل، وعادوا إلى بلادهم محملين بالهدايا الثمينة، ومصحوبين بمباركات الجميع.

تمّ الاستيلاء على هذه المدينة في التاسع عشر من كانون الثاني من العام /١١١١/ لتجسيد ربنا».

ملحق رقم ٨

الرواية الصليبية لمعارك الأمير مودود

كتب وليم الصوري:[١]

«- مودود الأمير التركي القوي يغزو المملكة بقوات ضخمة. الملك يقابله في معركة ويهزم. المنطقة تتعرّض جميعها للانهاك بشكل يفوق الاحتمال.

في الصيف التالي يعني في عام /١١١٣/ لتجسيد ربنا قذفت بلاد فارس ثانية حشودها التي لا تحصى، مثل الينبوع الملوث الذي يقذف المياه باستمرار بحيث تزيد من انتشار الوباء. وقاد هذه الحشود أمير قوي من أصل رفيع يدعى مودود، وزحف مودود وسار في ركابه قوات ضخمة جداً لا حدود لها، واجتاز البلدان المتوسّطة ووصل إلى نهر الفرات. وكان يجرب خطة جديدة، فقد اعتادت الجيوش السابقة لهذا الشعب نفسه أن تجرب قوتها على أرض انطاكية.

أولاً، إلا أن هذه الخطة كما أظهرت النتيجة كانت بعيدة عن تفكيره وكانت غاياته مختلفة تماماً. عبر مودود مناطق سورية المجوفة مخلفاً دمشق إلى اليسار، واجتاز طبرية الواقعة بين لبنان والساحل وخيّم بالقرب من الجسر المقام على نهر الأردن.

عندما وصل هذا النبأ إلى الملك، استدعى لمساعدته روجر أمير انطاكية وكونت طرابلس، حيث كان عارفاً تماماً أن ثقة خصومه قامت في أعدادهم الضخمة، غير أنه رحل مع جنوده قبل وصول روجر والكونت وأقام معسكره في المنطقة القريبة

(١) وليم الصوري، المرجع نفسه، ص ٥٤٧ - ٥٤٩.

للعدو. وحالما اكتشف الفرس هذا الأمر، أدركوا أنهم كانوا بحاجة للاستراتيجية أكثر من القوة في هذا الأمر. وهكذا أرسلوا ألفين من الفرسان وأمروا ألفاً وخمسمائة منهم أن ينصبوا كميناً، وكان على الخمسمائة الباقين أن تتابع سيرها مسافة أبعد وبطريقة غير مبالية بحيث يندفع الملك ورجاله لمطاردتهم. ووقع كلّ شيء تماماً حسب الترتيب، فقد لاحظ الملك الفرسان الخمسمائة الممتطين جيادهم يتقدّمون بطريقة مهملة وغير آبهة وكأنهم متوجّهون إلى مسافة أبعد، فاستدعى رجاله باندفاع وزحف نحوهم. وتظاهر الفرسان أنهم يلوذون بالفرار، وطاردهم الملك باندفاع وسقط في الكمين المنصوب له؛ وانطلق الكفرة من مخابئهم وأصبحوا قوّة كبيرة. كما عاد الفرسان الخمسمائة أيضاً وانضموا إليهم، وانقضت القوات المتحدة بهجوم عنيف على المسيحيين. وحاول شعبنا المقاومة في البداية لصدّ الأعداء بالسيوف عندما انقضوا بضراوة عليهم، إلاّ أن أعداد الأعداء المتفوّقة قهرتهم وأجبرتهم على الفرار. غير أنهم لم يجدوا السلامة في تلك الطريقة، حيث أنزلت بهم مذبحة مريعة أثناء هروبهم. وحتى الملك نفسه رمى الراية التي كان يحملها بيده ونجا بصعوبة من المذبحة، كما نجا معه البطريرك رنولف الذي كان معه بالإضافة إلى نبلاء آخرين من المملكة؛ وتخلى المسيحيون عن المعسكر وعن جميع أمتعتهم.

وهكذا، استولى العدو على معسكرنا ونشأ اضطراب كبير بين شعب الله عقاباً على آثامهم. ونسبت الكارثة بكليتها إلى الملك لأنه لم ينتظر المساعدة التي كان قد طلبها، بل اعتمد بإفراط على قوته وشجاعته، حيث كان روجر أمير أنطاكية وكونت طرابلس قريبين وعلى وشك الوصول من غير ريب في غضون يوم أو يومين. وسقط ثلاثون فارساً مسيحياً في ذلك اليوم، وألف ومائتان من الرجالة.

ووصل بعد هذه المصيبة القائدان القويان والعظيمان المشار إليهما آنفاً، ولاما الملك على عمله المتهوّر عندما علما بأخبار الكارثة التي وقعت. ثمّ اتحدت جميع القوات وخيمت كقوّة واحدة في الجبال المجاورة حيث تمكّنوا من مراقبة جيش العدو في الوادي الواقع في الأسفل منهم.

غير أن الكفرة المدركين تماماً أن المملكة قد جُرّدت من المدافعين عنها، أرسلوا زمراً من

الجنود في كلّ الاتجاهات عاثت في المنطقة بأسرها؛ وأحدثت مذابح مريعة في كلّ مكان على طول الطرق العامة؛ وأشعلت الحرائق ونهبت القرى وقبضت على المزارعين وعاملت المنطقة بأسرها وكأنها قد أصبحت تحت سيطرتها تماماً.

تخلّى خدمنا عنا خلال هذه الأيام بالإضافة إلى السكان العرب في قرانا التي تسمى كاسيليا وانضمّ هؤلاء إلى كتائب الأعداء وعلموها كيف تتولى إبادتنا، وتمكن الأعداء من صنع هذا بشكل جيد لأنه كانت لديهم معلومات كاملة عن موقفنا. «ذلك أنه ليس هناك وباء أشد هلاكاً وفعالية من عدو داخل منزل المرء».

وهكذا، فقد استمرّ العدو، بتوجيه من هؤلاء الناس بعدما جعلته مساعدتهم أكثر فعالية، بالتجوّل بين المدن والقلاع ناقلاً معه الغنائم والعبيد. وبالاختصار، فقد حوّلوا المملكة بأسرها إلى حالة كبيرة من الرعب بحيث لم يجرؤ أحد على المغامرة بالخروج من داخل الحصون».

ملحق رقم ٩

الرواية الصليبية لحملة آقسنقر إلى بلاد الشام

كتب وليم الصوري:(١)

أ - «زلزال ضخم يضرب منطقة أنطاكية. البرسقي الحاكم التركي القوي جداً ينهب تلك المنطقة.

ضرب زلزال كبير الأراضي السورية بأسرها ودمّر مدناً وقلاعاً كثيرة تدميراً تاماً وذلك في العام ١١١٤ لتجسيد ربنا المسيح. وكان أكثر تهديماً في كليكية وأقليم أثور وسورية المجوفة،(٢) فقد دمّر المصيصة في كليكية مع أماكن كثيرة محصّنة أخرى. كما دمّر مدينة مرعش مع مناطقها الممتدّة بحيث لم يبق سوى آثار من بعضها، ودمّرت أبراج وحصون. وسبّب انهيار الأبنية الضخمة الهلاك لعدد كبير من الناس، وأصبحت المدن الكبيرة مجرّد أكوام من الحجارة وركاماً من المقابر للذين كانوا قد قتلوا، وقبوراً للناس الذين دفنوا تحت الأنقاض. وهرب السكان بذعر من منازلهم في المدن خائفين من سقوط المنازل، وأملوا أن يجدوا الطمأنينة تحت السماء المكشوفة، إلاّ أن الخوف مزق نومهم، لأنهم عاشوا في أحلامهم وسط القدر الذي كانوا قد خافوا منه في ساعات يقظتهم.

---

(١) وليم الصوري، المرجع نفسه، ص ٥٥٥ - ٥٥٨.

(٢) كانت الزلازل كثيرة الحدوث، وكانت قد حدثت هزات في فلسطين في العام الفائت، وكان لهذه الهزة الأكثر تدميراً آثاراً ونتائج في كلّ مكان من شمال سورية خلال الأسبوعين الأخيرين من شهر تشرين الثاني من عام ١١١٤.

لم تقتصر هذه الكارثة الساحقة على مقاطعة واحدة بمفردها، فقد انتشرت في كلّ مكان وحتى إلى أكثر الأجزاء بعداً من الشرق.

في العام التالي جمع برسق، الحاكم التركي القوي، حشداً كبيراً من أهله، حسب عادته المألوفة ودخل منطقة أنطاكية بنية عدوانية، وخيم بين حلب ودمشق، بعد أن اجتاز تلك المقاطعة بأسرها، لينتظر فرصة لشن الغارات هنا وهناك على أراضينا. وقلق طغتكين، ملك دمشق، قلقاً شديداً إزاء هذه الحملة؛ وخشي كثيراً من أن تكون قد انطلقت لتثير المتاعب له لمملكته أكثر من إثارتها ضد المسيحيين الذين كان الأتراك قد اختبروا قوتهم مراراً وتكراراً. لأن موت النبيل مودود، الذي اغتيل في دمشق، ألصقت تهمته به، وبات من المعتقد أنه كان عارفاً تمام المعرفة بالأمر وأنه تمّ بالتدبير والاتفاق معه.

وهكذا، عندما علم طغتكين أن الأتراك كانوا قد وصلوا، وكان مدركاً تماماً لأهدافهم، فقد أرسل رسلاً بهدايا نفيسة إلى الملك وإلى أمير أنطاكية؛ وتوسّل إليهما أن يمنحاه هدنة مؤقتة، وعرض تقديم الرهائن ووعد مقسماً أنه سيحافظ طوال زمن الهدنة على حلفه بإخلاص مع المسيحيين في كلّ من المملكة والإمارة.

وكان أمير أنطاكية قد ناشد الملك في هذه الأثناء من أجل المساعدة، لأنه عرف أن الأتراك كانوا قريبين جداً من أراضيه، وقد تلقى تقارير كبيرة تشير إلى أنهم كانوا يحاولون غزو بلاده. كما دعا أيضاً طغتكين الذي كان مرتبطاً بالمعاهدة معه، للقدوم إليه مع قواته.

كان الملك قلقاً قلقاً كبيراً حول مصالح البلاد وازدهارها. فجمع قواته بدون إضاعة للوقت، وزحف إلى هنالك بصحبة بونز كونت طرابلس وبمرافقة مجموعة كبيرة من الفرسان. ووصلوا خلال أيام قليلة إلى المكان المنشود، حيث كان الأمير قد حشد جنوده، وكان طغتكين قد وصل قبل الملك وجيشه، لأنه كان أقرب منه، وانضم إلى معسكر المسيحيين كحليف لهم.

ثمّ اتحدت الفرق المختلفة في قوة واحدة ووجه الزحف نحو مدينة شيزر حيث قيل إن الجيش المعادي كان معسكراً حولها. وعندما

علم الأتراك بهذه الحركة أدركوا أنهم لن يتمكّنوا من مقاومة قواتنا دون التعرّض لخطر كبير. وهكذا، تظاهروا بالانسحاب وكأنهم ليس لديهم أية نيّة بالعودة، ونتيجة لذلك فرّق المسيحيون قواتهم أيضاً وعادوا إلى ديارهم.

ب - برسق يغير ثانية على أراضي أنطاكية. الأمير روجر يزحف ضده مع أحلافه فيمزق صفوفه ويجبره على الفرار.

كان هذا هو الوضع في المملكة آنذاك، وكان برسق قد تظاهر بالفرار من منطقة انطاكية عند اقتراب الملك والنبلاء الآخرين. لكن، عندما ارفضّ جمع الملك وأمير أنطاكية وطغتكين أيضاً، وعاد كلّ منهم إلى بلاده لينكبّ على تصريف أموره الخاصة، فقد أدرك أنه لن يكون من السهل بالنسبة لهم إعادة تجميع قواتهم ضده. وبناء عليه، عاد إلى أنطاكية وبدأ يجتاح المنطقة بأسرها، فأحرق المزارع والأماكن النائية وسلّم إلى الجند كأسلاب وغنائم كلّ شيء وجده خارج الأماكن المحصّنة. وقسم قواته إلى زمر وأرسلها في اتجاهات متنوّعة لتواصل أعمال القتل في كلّ مكان، وقتل وأسر أي شارد غافل التقى به في الحقول أو على طول الطريق العامة. ولم تقتصر المعاناة على الأماكن التي لم تكن محصّنة، فحتى المدن المحصنة استولى عليها بالقوّة، فقد جرى تدمير المعرّة وكفرطاب تدميراً كاملاً، وقتل جميع سكانهما أو أسروا. وبالاختصار، استولى الكفرة على المنطقة بأسرها ونقلوا المغانم يومياً واتخذوا المسيحيين كأسرى لهم.

عندما علم أمير انطاكية بهذه الأحوال، استدعى لمساعدته كونت الرها، وانطلق بنفسه من أنطاكية في الثاني عشر من شهر أيلول ووصل بدون إضاعة للوقت إلى الروج مع قواته. وأرسل الكشافة على الفور ليتحققوا من حالة العدو وخططه، وعبأ الأمير في هذه الأثناء صفوف قواته للمعركة ورتبها واستعدّ بشجاعة للصدام. وعندما كان منشغلاً بحماسة بهذا الشكل يساعده الكونت بإخلاص في ذلك، وصله رسول بسرعة كبيرة أعلن أن العدو قد أقام معسكراً في وادي سرمدا. وابتهج الجيش بأسره لهذا النبأ وكأنه قد أحرز النصر.

وعندما أبلغ برسق باقترابنا أمر جنوده أيضاً بحمل أسلحتهم والاستعداد للمعركة، وحض أتباعه الجنود على التصرّف بشجاعة. وكان قد استولى مع أخيه وعدد من أصدقائه على جبل مجاور يسمى جبل دانيث، وذلك ليحتاط لسلامته قبل أن يتقدّم المسيحيون. واستطاع الإشراف على رجاله من هذا الارتفاع عندما حاربوا واستطاع إعطاء التعليمات اللازمة لمواصلة المعركة. وبدأت كتائب المسيحيين تتقدّم برايات مرفوعة بينما كان منشغلاً بهذا الشكل.

كان بلدوين، كونت الرها، موجوداً في المقدّمة مع فرقته. واندفع عندما لمح الأعداء غير آبه بأعدادهم الضخمة بهجوم ضار هزّ الجيش بأسره. وقذفت الكتائب الأخرى بأنفسها حاذية حذوه بقوة مماثلة إلى وسط قوات العدو، وقاتلوا بالسيوف في قتال متلاحم وهم مصممون على الانتقام من المظالم التي أنزلوها بطغيان كبير بالفلاحين والفقراء. وحاول الكفرة في البداية - حيث كان أملهم قوياً في المقاومة - أن يدفعوا المسيحيين بشجاعة مثلى، إلا أنهم استداروا في النهاية وهربوا باضطراب كامل إزاء قوّة الخصم والهجوم والمثابرة الرائعة للمقاتلين.

شاهد برسق من قمّة الجبل تضاؤل قدرات قواته والنجاح المتزايد للمسيحيين، فتخلّى عن رايته ومعسكره مع جميع الأمتعة واتخذ ما لزم من إجراءات لإنقاذ حياته بالفرار برفقة أخيه والأصدقاء الذين كان قد أخذهم معه إلى الجبل.

طاردت قواتنا بنشاط الجند المضطربين مسافة ميلين تقريباً، وأنزلوا ضربات ماحقة بين الهاربين بسيوفهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم. وبقي الأمير في ميدان المعركة مع عدد من قواته لمدّة يومين منتظراً عودة رجاله الذي كانوا قد لاحقوا الأعداء باتجاهات متنوّعة. وعندما رجعوا أمر أن تجلب جميع المغانم إلى عنده، وخصص حصصاً موائمة للذين كانوا قد شاركوا في الانتصار، لأن الكفرة كانوا قد تخلّوا عن معسكرهم ولاذوا بالفرار مهملين تماماً كميات المؤن الهائلة والثروات الضخمة التي كان يحتويها. وهكذا، لم يقتصر المسيحيون على الفوز بالمغانم والأسلاب التي كانت قد نقلت من جميع المناطق، بل استردوا أهلهم الذي

كـانـوا قـد أسـروا وألـقـوا في السـلاسـل والسـجـون. وأعـيـد هؤلاء إلى منازلـهم وهم مبتهجون بالإضافة إلى زوجاتهم وأولادهم وحيواناتهم. ويقال إن العدو قد فقد في هذه المعركة أكثر من ثلاثة آلاف رجل.

وبعدما جرى تنفيذ جميع هذه الأشياء أرسل الأمير أمامه عدداً من الخيول والبغال والأسرى، بالإضافة إلى ثروات وفيرة من كلّ نـوع، ثـمّ دخـل أنطاكـيـة كـمـنـتـصـر وسـط التهاليل المفرحة للناس».

ملحق رقم ١٠

سيرة السلطان محمد السلجوقي

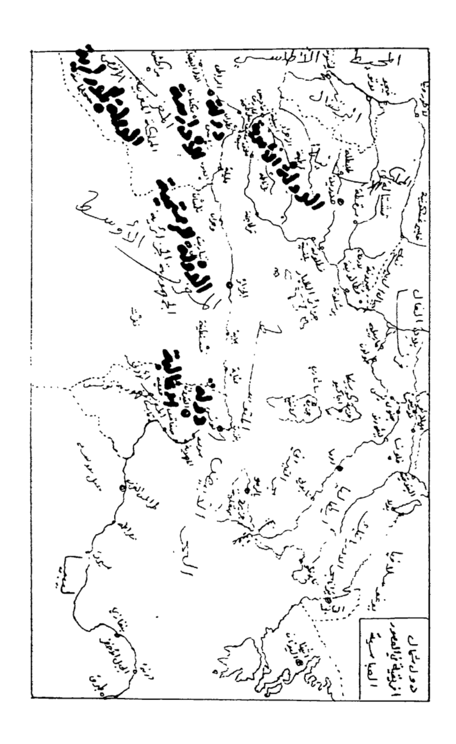
السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب ارسلان، كان عادلاً حسن السيرة شجاعاً. فمن عدله أنه اشترى مماليك من بعض التجّار وأحالهم بالثمن على عامل خوزستان فأعطاهم البعض ومطل بالباقي، فحضروا مجلس الحكم وأخذوا معهم غلمان القاضي. فلما رآهم السلطان قال لحاجبه: «انظر ما حال هؤلاء؟»، فسألهم عن حالهم فقالوا: «لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم». فقال: «من هو؟» قالوا: «السلطان». وذكروا قصتهم فأعلمه ذلك، فاشتدّ عليه وأمره بإحضار العامل وأمره بإيصال أموالهم والجعل الثقيل، ونكل به حتى يمتنع غيره عن مثل فعله. ثمّ إنه كان يقول بعد ذلك لقد ندمت ندماً عظيماً حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم فيفتدي بي غيري ولا يمتنع أحد عن الحضور فيه وأداء الحق.

ومن عدله أنه كان له خازن يعرف بأبي أحمد القزويني قتله الباطنية. فلما قتل أمر بعرض الخزانة، فعرض عليه فيها درجٌ فيه جوهر كثير نفيس، فقال: «إن هذا الجوهر عرضه عليّ منذ أيام وهو في ملك أصحابه». وسلمه إلى خادم ليحفظه وينظر من أصحابه فسلم إليهم. فسأل عنهم وكانوا تجاراً غرباء، وقد تيقنوا ذهابه وأيسوا منه فسكتوا فأحضرهم وسلمه إليهم. ومن عدله أنه أطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد ولم يعرف منه فعل قبيح. وعلم الأمراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه.[1]

---

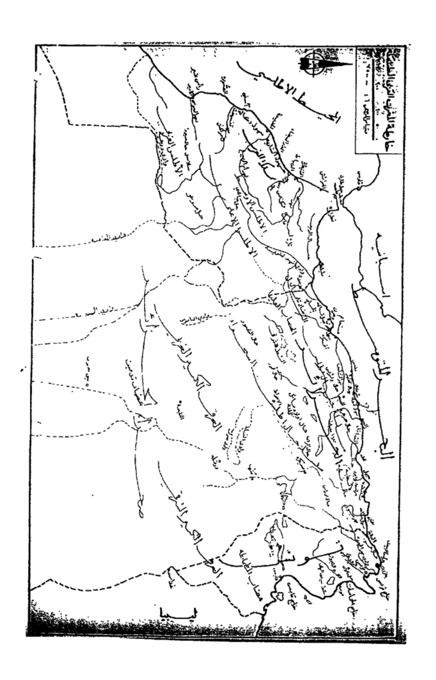
(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٦٧ - ١٦٨.

دول شمال افريقية في العصور العباسية

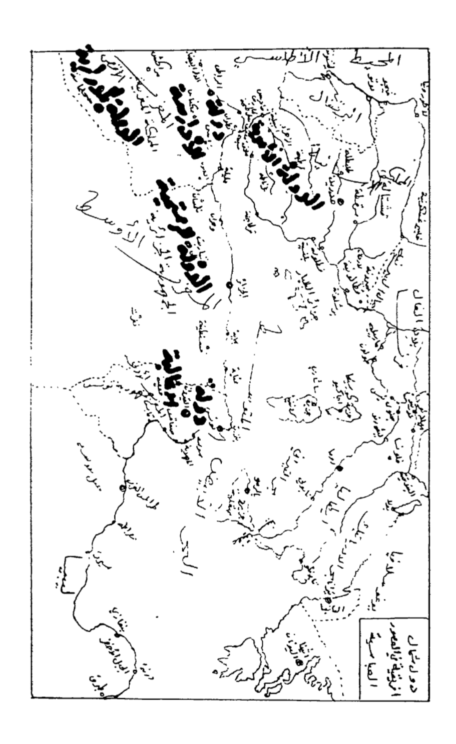


خارطة

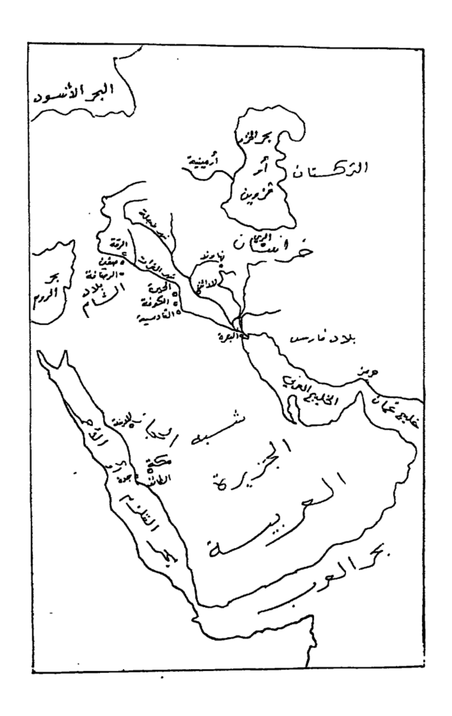
المغرب العربي الطبيعية



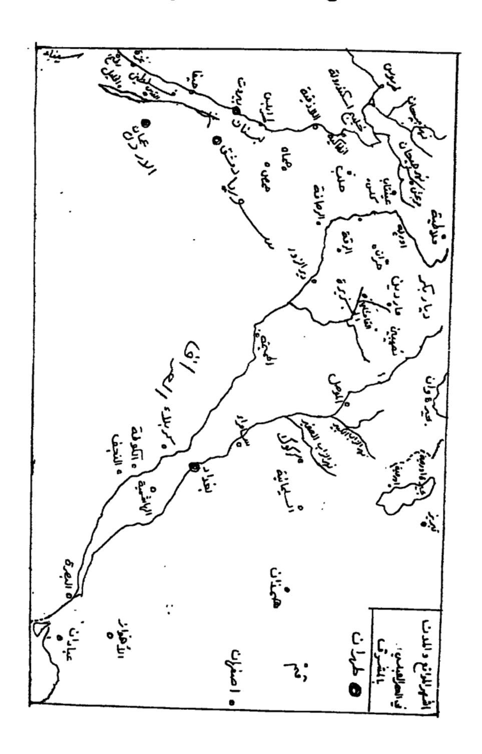
دول شمال افريقية في العصور العباسية



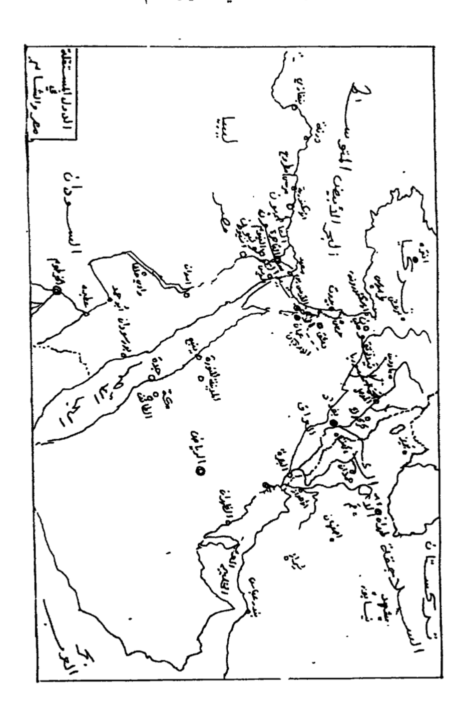
الشرق الأدنى



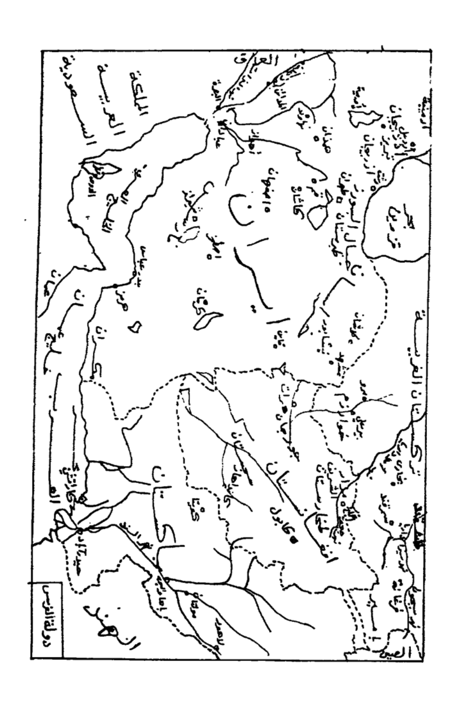
أشهر المواقع والمدن في العصر العباسي بالمشرق



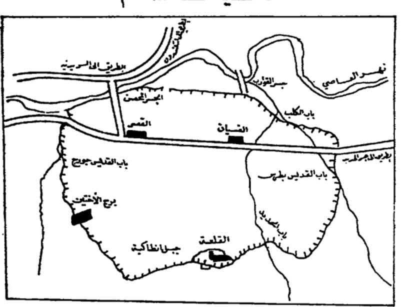
الدول المستقلة في مصر والشام



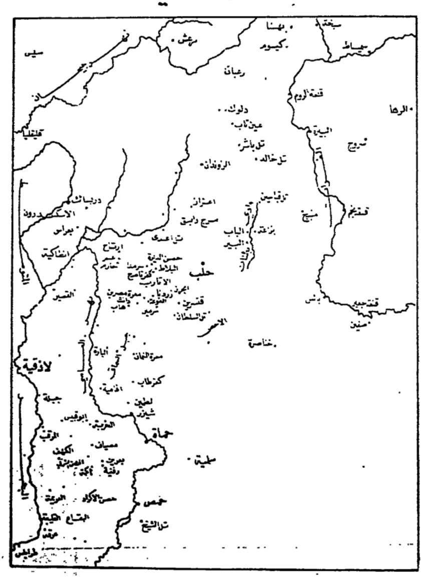
دولة الفرس



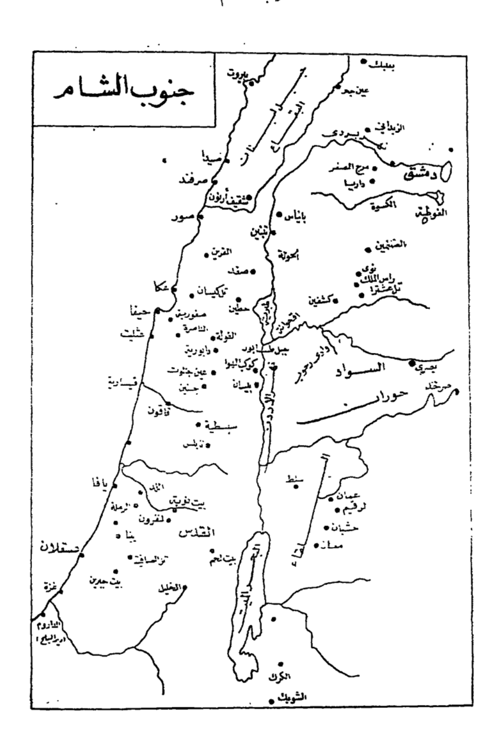
انطاكية سنة ١٠٩٨م .



الشام الشمالي

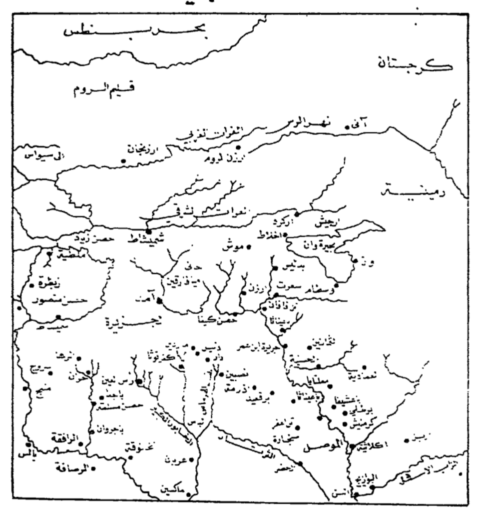


جنوب الشام



جنوب الشام
بعلبك
بيروت
الزبداني
بردى
دمشق
مرج الصفر
داريا
الكسوة
الغوطة
صيدا
صرفند
شقيف أرنون
صور
بانياس
تبنين
الحولة
الصنمين
نوى
راس الملك
صفد
عكا
حيفا
حطين
صفورية
الناصرة
الفولة
كوكب الهوا
عين جالوت
جنين
بيسان
قيسارية
قاقون
سبسطية
نابلس
السواد
حوران
بصرى
صرخد
الأردن
يافا
الرملة
اللد
بيت نوبة
القدس
عسقلان
بيت لحم
بيت جبرين
الخليل
غزة
عمان
حسبان
الكرك
الشوبك

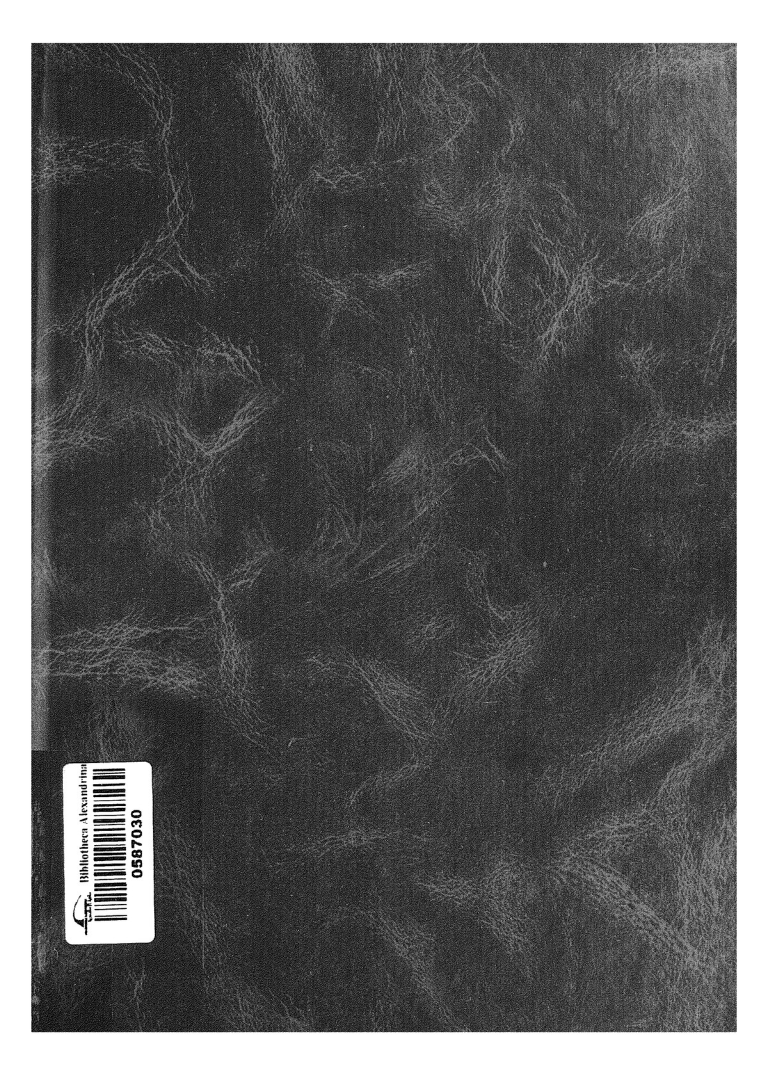
منطقة الجزيرة





فهرس الجزء (١٤)

الخرائط:



Bibliotheca Alexandrina
0587030